

الأمير

ميكافيللي

جمال إبراهيم

الحرية للنشر والتوزيع


الأمير
ميكافيللي

الأمير.. ميكافيللى

المؤلف:

جمال إبراهيم

الناشــــر

الحرية

للنشر والتوزيع

3 ميدان عرابى ـ القاهرة

تليفون: 01223877921 ـ 01112227423

فاكس: 20225745679+

darelhorya@yahoo.com

التنفيذ الفنى



رقم الإيداع: 2012/19560

الترقيم الدولى: 977-977-5832-64-1



ولد مكيافللى فى فلورنسا عام ١٤٦٩ من أسرة توسكانية عريقة وكان أحد أسلافه قد عارض معارضة فعالة فى وصول المتمولين من أبناء أسرة مديشى إلى الحكم فى المدينة، فقضى نحبه من جراء معارضته فى السجن وقد أقام المديشيون حكما استبداديا من النوع اللين نسبيا، إذ حافظوا على الأنظمة الجمهورية القديمة، فى الوقت الذى امسكوا فيه بأيديهم زمام الحكم الحقيقى ولم يكن المكيافلليون موالين لأسرة مديشى، فقد كان والد نيقولا (نيكولو)، محاميا بارزا، وكان كوالده من غلاة الداعين إلى الجمهورية ولم يتوفر لنا إلا القليل عن دراسة مكيافللى الشاب فى صباه، ولكن فى وسعنا أن تفترض أنه تثقف ثقافة مأثورة كغيره من أبناء عصره، فعثر على مثله العليا فى تاريخ الرومان، وقرأ الترجمات اللاتينية لمختلف الكتب الإغريقية القديمة.

وشب مكيافللى فى عهد الأمير المديشى، الذى اطلق عليه الفلورنسيون اسم لورنزو العظيم، والذى وصفوا عهده بالعصر الذهبى للنهضة الإيطالية. وكان لورنزو أديبا مأثوريا وشاعرا، فشمل برعايته الفنانين والأدباء وأهل العلم. واليه يرجع الفضل فى حفظ التوازن فى القوى بين الوحدات الرئيسية الخمس للسلطات فى إيطاليا، وهى مملكة نابولى،



والدولة البابوية فى روما، والبندقية، وفلورنسا، وميلان. ومن الواجب أن نذكر أنه فى فترة حكمه بين عامى ١٤٦٩ و١٤٩٢ اغتيل أخوه وأصيب هو نفسه بجراح إثر مؤامرة قامت بها إحدى الفئات المعارضة المنافسة، ونضيف إلى ذلك أن هذه الوحدات الخمس نفسها لم تكن مستقرة، فهى فى حالة اشتباك دائم مع المدن الصغيرة كفلورنسا مثلا، التى قادتها اشتباكاتها المستمرة مع بيزا إلى ما يشبه الحرب الصريحة المعلنة. وكان توازن القوى تبعا لذلك على درجة من التبدل والغرابة، حتى أن متتبعا ذكيا كمكيافللى لم يكن فى وسعه أن يتجاهل عثور مدينته على حل لمشاكلها السياسية. ومات لورنزو عام ١٤٩٢، واضطر خلفه بييرو إلى الخروج منفيا بعد عامين، عندما تعرضت المدينة لغزو جديد جاءها على أيدى شارل الثامن ملك فرنسا. وظهر راهب دومينكانى اسمه سافونارولا، قام بإصلاح الجمهورية ونجح فى إقامة حكومة ثيوقراطية دينية ما فتئت أن انهارت، فاعدم الراهب وأحرقت جثته عام ١٤٩٨. وانتخب مكيافللى بعد بضعة اشهر سكرتيرا للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسا التى تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية. وأضحى من واضعى السياسة ومخططيها، حتى أنه اختير فى اربع وعشرين بعثة دبلوماسية، بينها أربع لملك فرنسا، وعدة بعثات لروما، وواحدة إلى الإمبراطور مكسمليان. ووقع تطور جديد فى المنظر السياسى بعد أن قضى مكيافللى ثلاثة عشر عاما فى الحكم، فجاء الجيش الفرنسى من جديد إلى فلورنسا، واضطر أهلها تحت ضغط الفزع والخوف إلى استدعاء آل مديشى، وخرج مكيافللى بدوره منفيا من مدينته.

كان مكيافللى خادما أمينا مخلصا وكفؤا للجمهورية، وقضت عليه أوضاع المنفى أن يعيش بعيدا عن فلورنسا، معتمدا عفى إعالته على دخل متواضع

يجيئه من ممتلكات صغيرة كانت له فى ضواحى المدينة. وقد وصف هذا الانقلاب فى طالعه فى رسالة بعث بها إلى صديقه فيتورى قال فيها:

"مازلت أعيش فى الريف منذ خروجى إلى المنفى. استيقظ مبكرا عند الفجر وامضى إلى الغابة الصغيرة لأرى ما قام به الحطابون من عمل". وبعد أن يتبادل الأقاويل والشائعات مع الحطابين، يمضى وحيدا إلى أحد التلال، حيث يقرأ دانتى أو شيراك أو تيبولوس أو أوفيد. وبعد أن يتناول غداءه البسيط، يمضى إلى الحانة حيث يتحدث إلى الطحان وصاحب الحانة والقصاب وبعض عمال البناء، ويقضى معهم طيلة بعد الظهر فى لعب الورق والنرد "نتقاتل على الدريهمات. وعندما يحل المساء اعود إلى البيت وادخل المكتبة بعد أن انزع عنى ملابسى الريفية التى غطتها الوحول، ثم ارتدى ملابس البلاط والتشريفات وأبدو فى صورة أنيقة، وادخل المكتبة لأكون فى صحبة هؤلاء الرجال الذين يملأون كتبها، فيقابلوننى بالترحاب وأتغذى على الغذاء الذى هو فى الحقيقة ما أعيش عليه، والذى جعل منى الإنسان الذى هو أنا. وفى وسعى أن أتحدث إليهم وان أوجه إليهم الأسئلة عن أسباب أعمالهم، فيتلطفون علىّ بالاجابة اننى لم اعد اخشى الموت أو العوز... وقد تمكنت بالملاحظات التى دونتها من أن اضع كتابا صغيرا سميته (الأمير)".

واعتزم مكيافللى اهداء كتابه هذا إلى أحد أفراد أسرة مديشى، آملاً بذلك أن يدعوه المديشيون للعودة إلى الخدمة العامة، والجاه والمنصب وكتب فعلا كتابا ضمنه الإهداء إلى لورنزو الجديد، ولكن من المشكوك فيه قطعا أن يكون هذا الكتاب قد قدم بالفعل إلى لورنزو قبل وفاته عام١٥١٩ والشىء الأكيد الثابت أن كتاب الأمير قد وزع على شكل مخطوط ونسخ مرات عدة، ولكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة مكيافللى عام١٥٣٢.

واوفد مكيافللى فى أخريات ايامه ـ بفضل أصدقائه وبعض المنظمات فى فلورنسا ـ فى بعثات دبلوماسية لا شأن لها كبير، كما تكرم الكاردينال دى مديشى ـ الذى أصبح فيما بعد البابا كليمنت السابع ـ فعهد إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا"، مخصصا له مرتبا سنويا صغيرا.

وكانت قد ظهرت فى هذه الآونة عوامل جديدة عقدت مشاكل إيطاليا، وأضافت إلى ما تعانيه من مشاحنات وخصومات، كما ضاعفت من تعاسة مكيافللى وشقائه، فقد بدأ لوثر إصلاحه الدينى، وادت المنافسات بين الإمبراطور شارل الخامس الألمانى والملك فرنسوا الاول الفرنسى للسيطرة على إيطاليا إلى ما لحق بروما من خراب، والى طرد عائلة مديشى من جديد من فلورنسا.

ولا يضم كتاب الأمير جميع آراء مكيافللى السياسية، إذ اقتصر على بحث أكثر مشاكل إيطاليا حدة، والى الحديث عن تخلفها فى التنظيم السياسى والقوة العسكرية عن الدول المجاورة لها كأسبانيا وفرنسا، وكان هذا الحديث موجها إلى الأمراء من أمثال اسرة مديشى الذى ظهر اسمهم فى الإهداء. ولعل عدم اقدامه على طبعه فى حياته على الرغم من نسخه وبروز اسمه عليه، خير برهان على ما سبق لنا قوله. وعلينا ألا تعرونا الدهشة من ذكر الحقيقة الواقعة، وهى أن الكتاب غدا مرجعا لكل طامح فى السيطرة السياسية، كما غدا كتابا مقروءا يدرسه المثاليون والمغامرون السياسيون على حد سواء فى القرن العشرين، عندما اصبحت الدول القومية عرضة لفترة من عدم الاستقرار. ولعل من سوء حظ سمعة مكيافللى أن هذا الكتاب بالذات قد طغى على جميع مؤلفاته، واضحى المؤلف الوحيد الذى تستند إليه سمعته.

ولم يمض عشرون عاما على طبعه حتى كان هذا الكتاب قد طبع للمرة العشرين. واذا كان هناك من بطل للامير فهو قيصر بورجيا، الذى تحتل اعماله ومآثره الفصل السابع من الكتاب، بعد اضفاء عبارات الاطراء والثناء عليها. وكان مكيافللى - شأنه فى ذلك شأن "غاربيالدى" الذى جاء بعد عدة قرون- يرى فى وجود دولة دينية فى قلب إيطاليا عقبة كأداء فى طريق وحدتها السياسية. وكان قيصر - بإغضاء من والده البابا ألكسندر السادس، أن لم نقل بتأييده الفعال - يعمل على إقامة دولة سياسية قوية فى هذه المنطقة، وكان مكيافللى يرى فى هذه الدولة - إذا ما حالفها القليل من حسن الطالع - نواة يمكن لإيطاليا الجديدة الالتفاف حولها. وتطلع مكيافللى - بعد أن رأى اسرة مديشى تزود الكنيسة بعدد من البابوات والكرادلة - إلى استمرار هذه العملية بنجاح اكبر، عن طريق تعاون النفوذ الذى تمتلكه الاسرة فى كل من فلورانسا وروما.

وقد أثبت الزمن - من وجهة النظر المتعلقة بسمعته الأخيرة - أن مكيافللى ارتكب أعظم أخطائه فى اختيار هذا البطل، فقد اقترف قيصر بورجيا جرائم كثيرة وهو فى طريق الوصول إلى السلطان، كما اقترف جرائم أخرى بصورة عارضة. لكن ما اتفق عليه المؤرخون المعاصرون فى تلك المنطقة - وهو ما يجب ذكره هنا - أن قيصر قد اختار مديرا للاشغال العامة فى منطقته مهندسا ذا مواهب فائقة، هو "ليوناردو دافنشى". وثمة سبب آخر حمل مكيافللى على الاعجاب بجرأة قيصر واقدامه، فإذا تذكرنا أن مكيافللى اثناء عمله فى الوظيفة كان مهتما أيضاً بالشئون العسكرية، وانه كان مقتنعا من أن استخدام فلورنسا وغيرها من المدن الايطالية للمرتزقة فى جيوشها لن يمكنها مطلقا من اقتناء قوات عسكرية كافية وموثوقة. وان قيصر بعد أن اجرى اصلاحات



مـهـمـة فى مـقـاطعـتـه رومـانا تناولت افـراد الشـعب ـ اخـتـار جنوده من الأهليين بعد تدريبهم ـ تبين لنا سبب هذا الاعجاب الذى حمل مكيافللى على احـتـذاء حـذوه. وعلى الـرغم من كل هذا فـإن النصـوص الواردة فى الفصل السابع المشهور تشير إلى أن مكيافللى كان مدركا تمام الادراك لما يستفـزه اختيـاره لقـيصـر كبطل له من نقـمـة وسـخط فى مـحيطه، وهـذا الادراك هو الذى حمله على التكرار أكثر من مرة أن "استعراض الاعمال التى قـام بهـا الدوق (قيصـر بورجيا)، تجعله بعيـدا عن كل لوم، وتحـملنى على العكس، كمـا فعلت، على اعتبـاره مثلا يجب على الآخرين احتذاؤه. واعنـى بهم أولئك الـذين رفـعـهم الحظ ورفـعـتـهم سـواعـد غـيـرهم إلى مناصب السلطان". ولكن الجـو الاخـلاقى فـى اوربا وإيطاليـا مـا فـتئ أن تبـدل تبـدلا كليا، ولـم يمض خمسون عـاما حتى اضحى أى ولد من اولاد البابوات ـ ولاسيما هذا النجل بالذات للبابا البورجى ـ بعيدا عن أن يكون مـثـلا مـقـبولا للمنقـذ المرجو لإيطاليـا. وكانت ثمة اعـتـراضـات أخـرى ولاسيما تجسيد تلك الصفات التى تتمثل فى كل من الاسد والثعلب والتى تتمثل فى القوة والحيلة.

ولهذا السبب لم يترك كتاب الأمير أثراً بارزاً وثورياً فى حياة إيطاليا السيـاسـيـة. واعلنت رومـا ـ لاسبـاب أخرى زعمـتهـا ـ وضـعـه على قـائمة الكتب الممنوعة عـام ١٥٥٩وقـررت مـحـاكم التفـتـيش احـراق جـميع كـتب مكيافللى، وأقر مجمع ترنت الكنسى هذا القرار، وكتب، أحد البروتستنت الفرنسيين فى عام ١٥٧٦ ردا عنيفا على كتاب "الأمير"، سرعان ما انتشر وترجم إلى الانجليزية.

انما بالنسبة إلى القراء البريطانيين، فقد كانت السرعة التى انتشرت فيها سمعة مكيافللى واضحة فى تكرار ورود اسمه فى جميع مؤلفات كتاب

المسرحية فى عصر الملكة اليصابات. وبالطبع فإن شخصية مكيافللى التى تلقى الاستهلال فى مسرحية مارلو "يهودى مالطة" هى شخصية زائفة مزورة. وقد اثبت الاديب الامريكى هاردين كرنغ، أن الافتراض السالف بان هؤلاء المسرحيين لم يكونوا قد اطلعوا اطلاعاً مباشراً على مؤلفات مكيافللى، ليس بالافتراض الصحيح. وقد أصبح من الواضح أنه بالاضافة إلى الترجمات اللاتينية والفرنسية التى طبعت، فقد وجدت هناك ترجمات انجليزية كانت توزع على شكل مخطوطات. ولا ريب فى أن شكسبير فى روايته "زوجات وندسور المرحات" عندما اطلق على لسان احدى شخصياته قوله: "ماذا، أأنا مخادع.. أأنا مكيافللى؟" لم يكن يضفى مديحا على الكاتب الإيطالى. وفى وسعنا أن نوجز الصبغة الغالبة لجميع هذه الاشارات فى قول مارتسون فى روايته "بيجماليون": "وكان أحد المكيافلليين الملعونين يحمل المصباح للشيطان برهة من الزمن".

ولا ريب فى أن هذه الامثلة كافية للاشارة إلى أن اسم مكيافللى ظل ـ بعد أن مرت على طباعة كتابه "الأمير" فى انجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا ـ خمس وسبعون سنة وهو يختلط فى الاحاديث العامة بهذه الصفات والنعوت التى اشرنا اليها. وقد غدا مكيافللى "عبد الادب السكير" الذى تنهال عليه المثالب وتجرى عليه التجارب. ولم يحدث أى تبدل فى موقف الرأى العام تجاه سمعة مكيافللى فقد ظلت كلمتا " مكيافللى" و"مكيافللية" اليوم تحمل نفس المعانى التى كانت تحملها فى الماضى.

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون ـ معاصر شكسبير ـ قد بيَّن أن مكيافللى يتناول الاشخاص كما هم لا كما يجب أن يكونوا، فإن أياً من فرسان الادب والنقد فى القرن ونصف القرن التاليين، لم يقم بأية محاولة لتحسين سمعة مكيافللى.



ولم يختلف تقدير العالم المثقف لمكيافللى بصورة جوهرية عن تقدير الرأى العام فى حينه، ولذا فإن التبدل القائم فى التاريخ الثقافى لأوربا الغربية لاعادة تقييم كتاب مكيافللى، الذى كان فى الماضى ملعوناً، فغدا الآن مشهورا من قبل المؤرخين وعلماء السياسة، يعتبر امرا بارزا وكبير الاهمية.

ويقول "و. ش. داننغ" فى كتابه "تاريخ النظريات السياسية" أن مؤلف مكيافللى كان مغايرا للنظام النظريات السياسية المألوف فى عصره، كما كان اكتشاف معاصره كولومبس لامريكا مخالفا لنظام الجغرافية المقبولة فى ذلك العصر. وفى وسعنا أن نضيف أن هذا المؤلف ظل مغايرا للتيارات الجوهرية للفكر السياسى الحديث مدة ثلاثة قرون، وقد بدأ مكيافللى فى التسلل إلى هذه التيارات الحديثة فى اواخر القرن الثامن عشر، وغدا قريبا من السيطرة عليها فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

وكثيرا ما اعتبر أرسطو إنسانا واقعيا، وأثرت رسالته عن "السياسة" على اتجاهات الفكر فى العصور التى سبقت ظهور مكيافللى. ولعل خير ما يبيِّن الفرق بين التراث القديم وبين مكيافللى هو أن نضع امام القارئ الاستهلال الذى بدأ به أرسطو رسالته، وان نقارن بينه وبين استهلال كتاب الأمير. قال أرسطو فى استهلاله:

"لما كانت الدولة، كل دولة، نوعا من المشاركة، وكانت كل مشاركة تتم للوصول إلى نفع وخير - إذ المفروض أن الخير هو نهاية كل عمل - فإن من الواضح أنه بالنظر لكون الخير هدف جميع المشاركات، فإن الخير الأسمى فى ارفع رتبه هو هدف تلك المشاركة السامية، التى تضم كل ما عداها، أو بكلمة اصح الدولة أو المشاركة السياسية".



وفى إمكاننا تلخيص فصل نختاره كنموذج من أرسطو على الشكل التالى:

ثمة شروط ثلاثة يجب أن تتوفر فى كل من يملكون السلطة المطلقة فى الدولة، وهى:

١ ـ الاخلاص لنظام الدولة.

٢ ـ الكفاءة لاداء مهام وظائفهم.

٣ ـ الفضيلة والعدالة، فى المعنى الذى يتفق مع نظام الدولة.

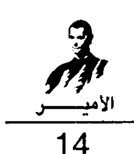
وعندما يتحدث عن خير السبل للمحافظة على نظام الدولة يقول خير ما يصون هذا النظام هو تعليم المواطنين على روحية الدولة، إذ "بدون هذا التعليم تغدو احسن القوانين واكثرها حكمة، غير مجدية".

ولا يهتم مكيافللى بتثقيف المواطنين، إذ إنه يعتبرهم جامدين هامدين، وليست الدولة فى رأيه أداة للوصول إلى حياة طيبة، وانما هى قوة فعالة بل وحدة ديناميكية مفتونة. ويرى بعض طلاب مكيافللى المعاصرين من امثال ليوناردو أولشكى، الذى وضع كتابه " مكيافللى العالم" أنه كان اقرب إلى الطريقة العلمية من أرسطو أو من غيره من سابقيه، وان هذا هو العامل الاساسى فى انقلاب مكيافللى على التقاليد المتوارثة. وفى هذا القول الكثير من الصدق والصحة، إذ على حد تعبير أولشكى "تؤلف الدولة فى عقل مكيافللى حقيقة نظرية مجردة، بل مبدأ ثابتا يتمثل حقيقه العلم فى الإمارات والجمهوريات"، ولعل من بعض الغلو فى القول أن نذكر أن دور الأمير يقوم فى توجيه هذه القوة وفقا للمبادئ التى تتفق فى جوهرها مع المبادئ التى يوجه العالم بواسطتها سير صاروخه

الموجه. وليس ثمة من هدف فطرى فى الدولة، إذ أن أى توجيه تسير عليه، يجب أن يفرضه الحاكم عليها فرضا.

ولم يكن هذا الاعتراف بالصفات العلمية فى مؤلفات مكيافللى من الناحية الاولى هو الدافع إلى تجدد الاهتمام به وبمؤلفاته، بل نجم هذا الاهتمام عن اعتبار مختلف كل الاختلاف لا يتضح للقارئ إلا عندما يصل إلى الفصل الاخير من كتاب "الأمير"، "فالتحريض لتحرير إيطاليا من البرابرة"، مع الامل فى أن "يختار الله شخصا لانقاذها" هما ابلغ ما ورد فى مؤلفات مكيافللى من فقرات وعبارات ولا ريب فى أن ما فى هذا الفصل من شعرية متدفقة تبرز بروزا واضحا فى فكرتها ازاء العرض الرياضى الرتيب الذى يبدو فى بقية انحاء الكتاب، حتى أن النقاد والادباء كانوا حتى عهد قريب يعتبرون هذا الفصل ملحقا به لا جزءاً اصيلا منه. لكن أية دلائل لا تقوم مؤيدة اضافة هذا الفصل فيما بعد. والتفسير الصحيح هو أن مكيافللى كان يجمع بين الروح العلمية وبين الوطنية العارمة، ولعل هذه الروح الوطنية هى التى حملت مكيافللى من جديد إلى موضع الاعتبار والتقدير.

ولم تكن النظريات السياسية السابقة لتعنى عناية كبيرة بالحقوق الشعبية المجردة. وكانت فرنسا وانجلترا مثلاً فى عهد مكيافللى قد خطتا خطوات أكثر اتساعا من خطوات إيطاليا نحو الوحدة القومية. لكن فكرة السيادة التى ظلت ردحا طويلا موضع البحث والنقاش فى النظريات السياسية، كانت لا تزال مرتبطة ومشتبكة مع فكرة الملكية الوراثية. وكانت الحقوق المعترف بها للأمير الذى حصل على لقبه بالوراثة من القوة بحيث تيسر لآخر افراد الهنزولرن (الاسرة المالكة فى



المانيا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى) أن يزعم لنفسه الحقوق الإلهية التى جعلت منه ملكا، ومازلنا حتى يومنا هذا نرى على النقد الانجليزى عبارة لاتينية تشير إلى هذا الحق على الرغم من أن الانجليز قد ارتضوا أحد ابناء اسرة هانوفر (جورج الأول) ملكا لهم. وكانت سلطات الأمراء بالوراثة - إبان الحروب الدينية التى نشبت بعد عصر مكيافللى - مقررة راسخة الدعائم، حتى أن الأمير كان يعتبر صاحب الحق فى تقرير المذهب الذى يتبعه رعاياه. ولم يكترث أمير مكيافللى كثيرا بالمشاكل السياسية المركزية التى تحتم على هذه البلاد الاهتمام بها فى محاولة لحلها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد اعترفت القوانين الأساسية للملوك فى كل من انجلترا وفرنسا بسلطان الملك وبحقه فى الوراثة. وكانت المشكلة الفورية التى تواجهها هذه القوانين، لا معالجة اوضاع الدول القومية على حقيقتها، وانما صياغة الديمقراطية الحديثة التى اضحت طابعنا. وتتخلص المشكلة فى السؤال التالى: ما هى الحقوق التى يجب أن يتمتع بها الرعايا؟ وفى بلد تمارس فيه الملكية القائمة على اسس سليمة صلاحياتها بشكل مخالف للقوانين الأساسية؟ ولقد كانت هذه المشكلة هى أكثر المشاكل إلحافاً التى عالجتها ثورات انجلترا وفرنسا وأمريكا. وكان من الواجب حلها بتطبيق مبادئ القانون الطبيعى ذات الجذور العميقة فى اصول القانون الرومانى وتطبيقاته، على الرغم من تجاهل مكيافللى لها وإهماله أمرها، ولو اعدنا قراءة اعلان الاستقلال الامريكى بشكل سطحى، وما فيه من اتهام لملك انجلترا، فسيتبين لنا اننا حتى فى عام ١٧٧٦ لم نكن نصر إصراراً قاطعاً على الحقوق القومية. ولم تكن الذريعة التى اعتمدنا عليها فى اقامة الدولة الجديدة هى تعلقنا بقوميتنا الامريكية، بل نشداننا التمسك بالحقوق

الجوهرية للحياة الإنسانية، كالحرية والسعى وراء الرخاء، وهى حقوق اعتدى عليها ملك انجلترا الذى كنا من رعاياه ومع ذلك، كانت الاعتبارات القومية - التى قدر لها أن تبرز مكيافللى فى حياة القرن التاسع عشر السياسية تفكيره - آخذة فى التطور.

اعتبر المؤرخون والعلماء السياسيون منذ ايام عصر النهضة - التى كان مكيافللى أحد ابطالها وممثليها - الحضارة الأوربية عميقة الجذور، تمتد إلى اقدم ايام الإنسان، مارة بحلقة طويلة من التطور عبر القرون الوسطى، تشبه فترة العلاج الطويل فى المصطلح الطبى. وقام اداء القرن الثامن عشر بصورة خاصة بسلسلة من التحريات قدر لها أن تؤدى إلى نتائج اخرى، وان تميل إلى فصل ذلك الرابط المنبعث عن الاحساس بالقدم، ويطلق طلاب الادب على هذه الفترة اسم الثورة الابتداعية (الرومانطيقية)، وقد اهتمت هذه الثورة فى احدى مراحلها بالقرون الوسطى على علاتها، وادى اهتمامها إلى عناية فائقة للغاية بشعر هذه الحقبة واغانيها الشعبية. وكانت هذه الحركة أكثر بروزا فى ألمانيا منها فى غيرها من البلاد، على الرغم من أنها لم تكن قد خطت نحو الوحدة القومية. وكانت المانيا اقل البلاد الأوربية تأثرا بالرومان، ولذا لم يكن من المدهش أن نراها تبحث عن اصول ثقافتها فى شعرها الشعبى المنقول عن القرون الوسطى، وفى عاداتها ومؤسساتها. وهذا التيار الفكرى الحديث هو الذى أثمر ما عرف فى عهد هتلر بالثورة على الغرب، وهى تعنى الثورة على التقاليد الاغريقية - الرومانية. وهذا التجميد للشعب ذو علاقة وثيقة بما بدا من تأكيد او حتى من غلو فى تأكيد الاصول القومية بصورة عامة. وبدأ الشعب يتخذ صورة الوحدة الخفية، أو الشخص الماثل، مع ما تربط هذا الشخص إلى نظرائه وقرنائه من وشائج القربى والدم. وهكذا اصبحت حقوق السيادة



متمثلة فى هذا الشعب دون غيره، كوحدة خفية وكشخص قانونى، وبالطبع لم تكن لدى مكيافللى أية فكرة كهذه عن وجود شعب ايطالى، إذ أن الإيطاليين كانوا بالنسبة إليه النسل المباشر للرومان، ولذافإنهم احق من غيرهم من الشعوب فى أن تكون لهم دولة قومية. وهكذا فإن ارتفاع موجة المطالبة بتأميم المؤسسات فى اوربا وخلق الدولة القومية، قد ادى إلى عودة افكار القومية إلى الظهور على المسرح، والى اقحام هذا الاتجاه الفكرى فى التيار العام الذى ساد القرن التاسع عشر.

وامتازت فلسفة هيجل فى القرن التاسع عشر، بالعمل على أن ترى فى الدولة الجهاز الذى تتحقق عن طريقه الارادة الإلهية على التاريخ أو بواسطته. ومالت هذه الفلسفات إلى وضع القوى التى تؤثر على العالم الإنسانى فوق سيطرة البشر. وقد اخذت هاتان العقيدتان التى تقول أولاهما بالقومية كوحدة خفية تمتد جذورها فى الشعب، وتقول ثانيتهما برأى هيجل، فى أن الدولة قوة تفرضها السماء، وسلطة تتجاوز حدود اللانهائية فى تطوير الحضارة، تشتدان وتقويان لتنبثق عنهما فكرة الدولة القومية، ومهد هذا التطور الطريق امام موقف أكثر تقبلا للافكار القومية التى انطوى عليها كتاب "الأمير". وارتفع الستار الذى كان مفروضا على مكيافللى، واسفر كتحقيق الوحدة القومية الإيطالية التى كان نبيها الاول على اعتباره بطلا من الابطال وجعل الإيطاليون من ذكرى مرور اربعمائة عام على مولده فى سنة ١٨٦٩ عيدا قوميا، واقامت مدينته فلورنسا على ضريحه نصبا تذكاريا كتبت عليه العبارة التالية: "لن يكون أى إطراء كافيا لوفاء مثل هذا الاسم العظيم حقه".

وتميل العامة من قراء المناقشات الأخيرة عن كتاب "الأمير" التى دارت بين علماء السياسة، إلى استخلاص نتائج خاطئة، فهم يعرفون أن هتلر



وموسولينى وستالين قد اتبعوا سيرا من العمل، كعمليات التطهير التى تشبه القواعد التى وضعها مكيافللى. وعندما يرون أن الدراسات الاخيرة لكتاب الأمير تميل إلى إنصاف مكيافللى وإطرائه بالنسبة إلى معتقداته السياسية الأساسية، يستنتجون بان علماء السياسة اخذوا يتجهون اتجاهات فاشية، وانى ارى من اللازب هنا أن اورد كلمة شرح ضرورية.

لا ريب فى أن الكثيرين من الزعماء السياسيين من مختلف الفئات والاتجاهات الذين تولوا منذ ايام مكيافللى، قد وجدوا فى كتابه "الأمير" الكثير مما يتفق مع اهدافهم واغراضهم وعلينا ألا ندهش لرؤية المؤرخين الألمان فى مطلع القرن التاسع عشر يبدون اهتماما خاصا بمكيافللى، فلقد كانت المشكلة الرئيسية لألمانيا، شأنها فى ذلك شأن إيطاليا، الحاجة إلى الوحدة القومية.

وكان رانكى ـ الذى يعتبر اقدر المؤرخين الألمان، ومؤسس الطريقة التاريخية الحديثة ـ يشعر بالاضطراب إلى حد كبير. ولا ريب فى أن ما كتبه عن مكيافللى ينطوى على نوع من الاعتذار والتبرير، عندما قال أنه وقد ادرك الحالة اليائسة التى تعانى منها إيطاليا، وقد وجد "الشجاعة ليصف لها السم كعلاج".. وينطبق هذا القول على الكثير من الوصفات المميتة التى وصفها مكيافللى لعلاج ما نسميه الآن "القتل الإشفاقى". ولكن رانكى يرى دائما فى مكيافللى الرجل الذى يتأثر دائما من اقواله ناقضيه واعدائه، لأنهم لا يفهمونه، ولأنه على حد تعبير انكى "مؤلف من الطراز الاول لم يكن فى يوم من الايام بالرجل الشرير". ولا ريب فى أن مينيكى يعتبر من اقدر المؤرخين الألمان فى القرن العشرين. ويبدو أن هذا المؤرخ لم يتأثر بكتاب سابق كما تأثر بمكيافللى، فوضع عنه دراسته التحليلية المشهورة لكتاب "الأمير"، التى تستخدم كمقدمة لأحسن

الطبعات الألمانية من الكتاب. وموضوع الوقت هنا على جانب كبير من الاهمية، فنظرية رانكى فى التاريخ قد تأثرت باحداث القرن التاسع عشر وتياراته الفكرية. اما نظرية مينيكى المتشائمة فقد وضعت فى القرن العشرين وكتبت دراسته التحليلية عن كتاب "الأمير" فى الفترة المضطربة التى تلت الحرب العالمية الاولى. ومع ذلك أبدى مينيكى شجاعة فائقة فى رفض ادعاءات هتلر بزعامة الشعب الألمانى، وأبى أن يذعن عندما اراد هتلر أن يفرض السيطرة الفكرية على الجامعات الالمانية. وكان الكونت كارلو سفورزا فى إيطاليا المعاصرة من اشد خصوم موسولينى جرأة وشجاعة. وسفورزا هذا هو الذى ألف مجلداً عن افكار مكيافللى الحية، وهو المجلد الذى يؤكد خلود الكثير من تفكير الكاتب الايطالى.

وكان التيار الفكرى فى الميل إلى مكيافللى فى فرنسا وانجلترا وامريكا، أبطأ منه فى غيرها من البلاد. وكان بعض المؤرخين فى انجلترا أكثر اهتماما بالمحافظة على الحريات الشخصية والمدنية من اللورد اكتون، ولا ريب فى أن اقواله عن تأثير الفساد على السلطان اشهر من أن تكرر. ومع ذلك، فقد كتب اكتون هذا ـ فى الحقبة الاخيرة من القرن قبل الماضى ـ المقدمة التى تظهر عطفا عاما على مكيافللى ككتاب بيرد عن "الأمير". وبدأ الاهتمام الأولى فى امريكا بمكيافللى بعد الحرب العالمية الأولى، وكان خيرة ما ظهر من كتب عنه فى الحقبة الاخيرة. وأود هنا أن اقول، تجنبا لكل سوء فهم، أنه إذا كان طلاب النظريات السياسية من الأمريكان قد اضحوا أكثر ميلاً لمكيافللى، فإن هذا لا ينبثق عن اتجاههم نحو الفاشية وانما عن محاولتهم ممارسة الطريقة العلمية. ويبدو لى أن ثمة خطأ فى هذا الموضوع، وان هذا الخطأ قد بولغ فيه إلى



حد كبير. وعلينا اذا اردنا أن نضع اعتبار مكيافللى تحت المجهر، فمن الضرورى أن نذكر انفسنا أنه إذا كان ثمة خطأ قد ارتكب فإن هذا الخطأ إدراكى فكرى، ولعل من نافلة القول أن نذكر أن الاخطاء الفكرية فى الديمقراطية الأمريكية بريئة فى مقصدها.

من حسن الطالع، فى ناحية واحدة على الاقل، أن دراسة السياسة تسمى عامة بعلم السياسة، إذ أن السياسة لا يمكن أن تكون علما، بنفس المحتوى الذى ينطوى عليه علم الفيزياء مثلا لما يقوم عليه من قياسات وتجارب وارقام. ففى كل قرار سياسى يوجد دائما عنصر معين من المغامرة أو المجازفة. والادباء المعاصرون الذين يميلون إلى قبول صاروخ مكيافللى الموجه فى نظريته القائلة بالعلاقة بين الدولة والأمير، إنما يقبلون بنوع من الجناس بين السياسة والفيزياء والتجربة فى ميادين العلوم الطبيعية هى الوسيلة التى يوجه بها العالم سؤاله إلى الطبيعة. وهذا ما عمله فرانكلين عندما طير "طيارته الورقية" فى وجه عاصفة شديدة من الرعود، فقد كان يسأل الطبيعة الرد على سؤاله عما إذا كان البرق ظاهرة كهربائية. وكانت الطبيعة لا فرانكلين هى التى تولت الرد على هذا السؤال. ولا تدخل "المعادلات الشخصية" ضمن نطاق هذه الردود العلمية. اما العالم السياسى فلا يملك تحت تصرفه مثل هذه الاساليب المتزمتة، وخير ما يستطيع أن يعمله هو أن يدرس دوافع الأمراء فى الاوضاع المحدودة دون أن تكون لديه افكار سابقة. وقد اعتقد مكيافللى أن بين هذه الافكار السابقة التى تحول دون الوصول إلى الحقيقة فكرة شديدة الخطورة، وهى أن على الأمراء أن يتبعوا نفس القواعد الاخلاقية التى تتحكم فى سلوك الافراد. ولهذا فقد فرق مكيافللى تمام التفريق بين دراسة السياسة ودراسة الشئون الاخلاقية،

واكد عدم وجود أى رابط بينهما . وهنا نجد انفسنا، وقد خضنا فى سلسلة من التناقضات النفسية (السيكولوجية)، التى وصل اليها مكيافللى عن طريق احساسه الواقعى الشديد . فقد اوصى الأمير بان يستخدم المصانعة والرياء، حيث يرى استخدامهما نافعا للوصول إلى السلطان، وبالطبع لن تكون هذه الطريقة مجدية على المدى الطويل، إذ أن علاقات الأمير المهمة تكون مع الأمراء الآخرين. ولا يتطلب ادراك هذه النتيجة أى قسط من التعلق بالمثاليات، وعلى الرغم من أن لاروشيفوكو الفرنسى لا يُعتبر من المثاليين، إلا أنه يقول فى احدى حكمه المشهورة أن "المصانعة هى الجزية التى تدفعها الرذيلة للفضيلة" . وهو يعنى أن المصانعة تؤتى اكلها لأن غالبية الرجال ليسوا من المرائين والمنافقين وانهم تبعا لذلك لا يشكون كثيرا . وعندما يمارس جميع الأمراء اساليب الخداع، يتوقف الخداع عن تحقيق اية نتائج لهم جميعا . وهذا ما حدث بالفعل لبطله قيصر بورجيا، إذ حصل على سلطان كبير عن طريق استخدام القوة والحيلة. ولكنه سرعان ما فقد هذا السلطان عندما لجأ الأمراء الاخرون إلى نفس اساليبه واستخدموها بنجاح ضده. وعندما قام بعض المؤرخين والمنظرين السياسيين من امثال مينيكى بخلق شخصية "الرجل السياسى" على غرار "أمير" مكيافللى، فإن هذه الشخصية من ناحية تفسير التاريخ الإنسانى تصبح مضللة فى تعبيرها تماما كتضليل شخصية "الرجل الاقتصادى" التى ابتكرها علماء الاقتصاد مدفوعين بنفس الرغبة فى أن يكونوا من العلماء، ولا ريب فى أن هذه الرغبة هى رد الفعل الطبيعى للافتراضات التى لا مبرر لها، والتكفير الساذج اللين الذى اقتحم به طلاب السياسة والزعماء السياسيون والمواطنون عامة، بوابة القرن العشرين.



كان التفكير فى القرن التاسع عشر مغاليا فى التفاؤل، ولعل السبب فى ذلك اننا جميعا، بما فى ضمننا المؤرخون، قد اخذنا نعتقد بان التقدم هو القانون الحتمى للحضارة. وعلى الرغم من وجود فترات من التوقف ومن الانتكاسات المؤقتة، فقد كان ثمة شىء فى طبيعة العالم وفى طبيعة الإنسان يجعل الحضارة تسير فى طريق إنسانى مرغوب فيه. واتجه التفكير فى القرن التاسع عشر إلى الناحية القومية بصورة بالغة، واكتسبت جميع كتب التاريخ التى وضعت فى هذا القرن صورة قومية ايضا. وعندما تناول المؤرخون وضع الدول النامية تتبعوا اصولها الخام من عهد قبائل البرابرة الشعبية حتى عظمتها، واصبح الشعب يعتبر اداة القدر للتقدم والازدهار. وعندما تطرقوا إلى بحث الشعوب الأخرى التى لم تتحقق لها وحدتها افترضوا أن سير التقدم قد تأخر بفعل حكام محللين أنانيين، مؤكدين أنها ستصل حتما وعما قريب إلى مرتبة القومية، وانتشر الافتراض العام بعد تحقيق الوحدتين الإيطالية والألمانية، بان البشرية اصبحت متأهبة الان للخطو نحو الامام خطوة واسعة. واستمر هذا الاتجاه الفكرى الذى ينطوى عامة على القومية وروح التفاؤل طيلة ايام الحرب العالمية الاولى. ولعل خير ما يوضح ايماننا بان الشعب وحدة فطرية خيرة هو قبولنا دون تحفظ للمبدأ القائل بالحق القومى فى تقرير المصير. واصبح من المفروض أن الشعب كالملك فى النظريات السياسية السابقة لا يمكن له أن يخطئ ابدا. لكن اضطهاد الاقليات فى الدول القومية ذات المصير الحر، وظهور الفاشية الوطنية، وفشل عصبة الامم بعد عشرين سنة من قيامها، كلها عوامل ادت إلى صدمة قاسية أيقظتنا جميعا، بمن فينا من مؤرخين وعلماء سياسة. وتلقت الفكرة الجديدة القائلة بان الشعب ليس "بالوحدة الخيرة"



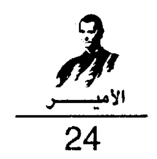
تأكيدا جديدا من تطور نشأ بعد الحرب العالمية الاولى. فقد قام كارل ماركس بتفسير التاريخ من جديد حوالى عام ١٨٥٠ واحتفظ ببعض نظريات هيجل القائلة بأن قوى التاريخ لا تخضع لتوجيه الإنسان وانما تعمل تلقائيا وآلياً. واسقط ماركس الله من حسابه، على اساس أنه افتراض لا جدوى منه، وفسر التاريخ تفسيرا يقوم على عداء القومية. وعلى الرغم من أن نظريات ماركس قد اصبحت فى حينها موضع الكثير من الجدل والنقاش، إلا أنها اكتسبت اهمية سياسية من الطراز الاول بعد اعتناق الروس السوفيت لها، واضفائهم عليها نواة ومركزا قوميين. ووضعت هذه التطورات نهاية للتفكير الذى ساد القرن التاسع عشر واختفى من الوجود الاصطلاح الذى طالما تردد فى القرن التاسع عشر بصورة مقبولة، وهو اصطلاح "عائلة الشعوب". واذا كان هناك عائلة من هذا النوع،فإنها ولاشك عائلة شقية تعسة. ولو تحمل أى منا مشقة الاطلاع على خرائط أوربا وآسيا عام ١٩١٠ وقارنها بخرائط عام١٩٣٠ ثم عام ١٩٥٠ لأذهله ما يجد فيها من استمرار فى انتقال الحدود، وظهور دول جديدة واختفاء اخرى. وتوصل إلى النتيجة المحتومة بان عالمنا المزدحم والمتشابك يضم دولاً قومية فى القرن الحادى والعشرين لا تختلف من ناحية ما فيها من عدم استقرار وفوضى عن الاوضاع التى كانت سائدة فى دول المدن فى إيطاليا فى ايام مكيافللى.

ليس من العسير أن نفهم، لماذا تجدد الاهتمام بآراء مكيافللى فى هذه الفوضى الراهنة من الدول القومية فى العالم، التى تشبه الدول المدنية التى كانت سائدة فى ايام مكيافللى.

ويرى الكثيرون من نقاد مكيافللى فى القرن العشرين أنه كان الرجل الحديث الاول. ولا ريب فى أنه يبدو كذلك، فى ناحيتين على الاقل، فمن

الناحية السلبية لم يؤمن مكيافللى قط بالتقدم، وقد توقف الكثيرون من الرجال المعاصرين عن الايمان بذلك ايضا. اما من الناحية الايجابية فقد آمن مكيافللى بالقومية كما آمن بالطريقة العلمية، إلى الحد الذى حمله على التخلص من الآراء والافكار الغيبية. ولا ريب فى أن مشاكلنا من الناحية الظاهرية على الاقل مشابهة للمشاكل التى واجهها. وجل ما يهدف إليه رجل القرن الحادى والعشرين الوصول إلى السلام و"السلامة" بالنسبة لدولته ولنفسه ولكن مكيافللى لم يهتم بالسلام ولم يؤمن بضرورته. لكن الحروب فى ايامه كانت بردا وسلاما إذا ما قورنت بالحروب فى ايامنا. ولو لم تنشب الحروب آنذاك لما قدر للاثار الفنية الخالدة والنصب المعمارية الرائعة فى روما وفلورنسا والبندقية أن تعيش، ولكنه اراد "السلامة" لمدينته. وآمن بان هذه السلامة يمكن أن تتحقق بواسطة أمير يستطيع أن يفرض على دويلات المدن الانصهار فى دولة قومية.

من الواضح فى كتاب مكيافللى "محادثات عن الجباية" أن الدولة القومية الإيطالية تعنى بالنسبة إليه أن تكون وريثة عظمة الجمهورية الرومانية. ومن الواضح أيضاً فى جميع مؤلفاته أنه كان يرى الإيطاليين متفوقين على غيرهم من الشعوب والأجناس البشرية. وهو يرى أن ما يحققه الفرنسيون والأسبان من سيطرة على بعض انحاء إيطاليا، وما يلبسونه منها ناجم عن تفوقهم فى التنظيم السياسى الذى يمكنهم من ذلك. واذا تمكنت إيطاليا من ايجاد هذه الدولة، فإن وضعها الجغرافى الممتاز على البحر الابيض المتوسط "بحرنا"، سيمكنها من اعادة فرض سيطرتها على العالم المتمدن. ولما كانت روما قد افلحت فى تحقيق ذلك فى الماضى، فإن فى وسع ابناء الرومان إذا نظموا امورهم تنظيما فعالا



مؤثرا، واذا توفر لهم بعض حسن الطالع، وتطبعوا بفضائل الرومان الاقدمين، أن يعيدوا هذه الامجاد التليدة. ولعل احساس مكيافللى العميق بالهوان من جراء سقوط الاقوياء، يفسر هذه البلاغة العاطفية الرائعة البادية فى الفصل الاخير من كتابه، الذى أثار حيرة ناقديه ودهشتهم. وقد اجمع مؤرخو القرن التاسع عشر على تأييد إيطاليا فى كفاحها البطولى لتحقيق الوحدة، فقد آمنوا أنها بوصولها إلى الوحدة ستتمكن من استعادة مركزها التاريخى المرموق بين اسرة الشعوب.

وقد اهمل الناقدون الاشارة بصورة عامة، ومازالوا يهملونها، إلى عدم وجود ما يدل على أن مكيافللى كان من المحتمل أن يبدل فى نصيحته إلى الأمير عندما تصبح إيطاليا شعبا واحدا. والقيمة الحقيقية أو العلمية المفترضة لكتاب "الأمير" تجعل ما فيه من نصائح يوجهها إلى الحاكم لتيسير اعماله، امرا يمكن تطبيقه بصورة عامة. وكان موسولينى فى هذه الناحية حواريا أكثر ولاء وصدقا لمكيافللى من مازيتى الذى رغم عمله المستمر لوحدة إيطاليا كان يعارض بعض آرائه الاخرى. فالدولة القومية بالنسبة لمكيافللى أو الدولة بصورة عامة، هى قوة يجب أن تعتمد فى جوهرها على العمل الديناميكى وعلى العدوان، وقد كتب أحد خيرة الباحثين السياسيين فى أمريكا بُعيد الحرب العالمية الاولى، أن القومية قد برهنت على أنها "مرحلة مؤقتة وانتقالية فى طريق التوسع". واذا لم نحمل هذا الرأى على محمل الاعتبار والتقدير التامين، فليس فى وسعنا أن نفهم مكيافللى ولا أياً من المشاكل الدولية فى عصرنا.

وقد رأينا مكيافللى يستخلص من نظريته العلمية القائلة بان الدولة قوة قواعد السلوك التى يتحتم على الأمير اتباعها. فقوة كهذه سواء

أكانت قذيفة أو قنبلة لا تنطوى على مبادئ اخلاقية، لاسيما وقد رأينا أن هذه المبادئ لا تربط الأمير، وانما تُرك له حق الاختيار فى تقبلها أو رفضها. ونحن ندرك أن الاوضاع التى تجد الدولة نفسها فيها هى التى ترسم صورة القواعد الاخلاقية للمواطن فى ظل النظام الديمقراطى. فعندما تشتبك بلاده فى حرب يتحلل من قواعد احترام ما للحياة من قداسة واطاعة الوصية المقدسة التى تأمره بألا يقتل. وعندما يرى بلاده فى خطر يتوجب عليه أن يدافع عنها. ولما كانت مسئولية الحاكم عن سلامة بلاده تفوق مسئولية المواطن العادى، فإن مُثله الاخلاقية تكون عرضة للتبدل اثناء الحروب أكثر من غيره. ولا ريب فى أن ما افزع قراء كتاب "الأمير" القدامى، ومازال يفزع بعضهم حتى الآن، هو أن ما اسماه رانكى بالسم والذى وصفه مكيافللى فى كتابه، يمكن أن يستخدمه الأمير لا ضد اعدائه الخارجية فحسب، بل ضد مواطنيه الذين يعارضون فى حكمه لسبب من الاسباب. وثمة فقرات فى الكتاب يبدو فيها أن تحديد مكيافللى لتطبيق القوانين وسريان مفعولها مشتق من نظريته فى القوة، واليك المثال:

"عندما تفتقر الدولة إلى السلاح الكافى، تنعدم القوانين الجيدة، وعندما تكون جميع الدول مسلحة تمام التسلح تكون جميع قوانينها جيدة. وسأتخلى فى حديثى عن القوانين وأقتصر فيه على الأسلحة".

وعندما ظهرت فى القرن التاسع عشر الدول الجديدة كألمانيا وإيطاليا، لم تعتبر القومية قوة من الناحية الأولية، وانما اعتبرت حارسا خيرا للحقوق السيادية التى يتمتع بها شعبها، ولكن هذه الحقوق السيادية التى تمتعت بها الشعوب جعلت العالم الأوسع الذى تعيش فيه عالما لا سيطرة للقانون فيه. وكان رجل القرن التاسع عشر المؤمن بالتقدم

والقومية ميالاً إلى اعتبار هذا العالم من الدول القومية، نوعا من الدولة المثالية (يوتوبيا) التى ستتحقق عند انتهاء التاريخ، كما يعتبر الماركسى مجتمعه الذى تنعدم فيه الطبقات عالما مثاليا. واذا لم يكن هناك من قانون يسود القومية السيادية، فقد ظل هناك ما نسميه بقانون الطبيعة الاول، وهو حق البقاء والدفاع عن النفس، وكثيرا ما ارتكبت الجرائم باسم هذا الحق. فلم يكن الشعب يسمح لجيرانه بالإيغال فى القوة والتسلح. والكثير من مظاهر التوسعية والاستعمارية والحروب الوقائية كانت تجرى تحت اسم المصالح القومية أو الدفاع عن المصير. وكثيرا ما بررت هذه الاعمال على أنها ضرورية لاسباب تتعلق بالدولة، وبالنظر إلى الافتقار إلى أى مبدأ اخر، فقد اضحى هذا القانون هو الوحيد. وبالنظر إلى هذه المظاهر، كان من حق مكيافللى أن يستخلص بأن نواة الدولة هى القوة. ولا ريب فى أن مكيافللى فى اعتباره للدولة على أنها قوة توسعية ديناميكية كان اقرب إلى الواقعية والى الواقع السياسى من كثيرين من مفكرى القرنين التاسع عشر والعشرين، فكان بهذا الاعتبار أكثر عصرية.

ولكن مكيافللى ظل من الناحية الاخرى، بعيدا عن العصرية ومتمسكا بالمأثورية الإيطالية التى بدت فى عصر النهضة. فهو لا يحس مطلقا بما نسميه الآن بالتطور التاريخى. وقد عثر على مُثله العليا فى روما، وكانت الجمهورية الرومانية بالنسبة إليه ترمز إلى ذروة ما حققه الإنسان. وفى "مساجلاته" تبدو الجمهورية الرومانية وكأنها خير ما ابتكره الإنسان من طرازات الحكم وصوره. وكان شديد الاعجاب بمؤسسات هذه الجمهورية، حتى أن أحد الطلاب الفرنسيين المعاصرين لمكيافللى ويُدعى "رينوديه" كتب يقول أنه لو طُلب إلى مكيافللى وضع دستور لدولة حديثة، فسيشتمل هذا



الدستور على القناصل ومجلس الشيوخ والحكام (التريبون)، ولكان قد اعاد فى هذا الدستور الافكار الرومانية بنصها وروحها، فجاء أقرب إلى الدستور الفرنسى الذى سنه اليعاقبة بعد الثورة الفرنسية - لاسيما وقد كانوا من المعجبين بالرومان - منه إلى الدستور الذى سنه المستعمرون الامريكان، وجاهدوا فى سبيل وضعه محتملين الآلام والمتاعب، لينطبق على احتياجات الشعب الذى وجد نفسه بعد سبع سنوات من الثورة، وقد اتيح له أن يخلق طرازا من الحكم مثاليا، يتفق مع اوضاع شعب حر، ولم يكن لمكيافللى أى اثر على طراز الحكومة الامريكية أو ما يسمى بالديمقراطية الجفرسونية. واذا ما اعاد الإنسان قراءة كتاب جفرسون ونقب فى جميع ما ورد فيه من عبارات،فإنه لا يرى أى اثر أو حتى اشارة عابرة لمكيافللى. وليس فى كتاب "الأمير" أى تحديد لسلطة الدولة، بينما كانت مشكلة هذا التحديد هى كل ما اهتم به جفرسون.

واصول العقيدة القائلة بحقوق الإنسان والتى لا يقبل التنازل عنها معروفة إلى حد كبير، حتى يصبح أى حديث عنها من نافلة القول، ولذا تكفى الاشارة اليها ومن الغريب أن هذه النظرية برزت لاول مرة فى عهد انحطاط دول المدن الإغريقية. وكان المفكرون الإغريق قد توصلوا إلى النتيجة القائلة بأن عالم الطبيعة كون هيولى يضم عالما من القوانين التى يكتشفها العقل البشرى. وقد اسفرت فتوحات الإسكندر الأكبر فى الشرق عن قيام المزيد من الاتصالات بين مواطنى المدن اليونانية وبين مواطنى الدول الاخرى. واحس الرواقيون احساسا عميقا بأن الناس يعيشون فى عالم واحد، وانهم جميعا مواطنون فى مدينة عظيمة اطلقوا عليها اسم المدينة العالمية. ولهذا العالم الإنسانى قوانينه ايضا. وعلينا أن نُقر بها إذا اردنا أن يحقق الإنسان جميع إمكانياته البشرية.

وفى وسعنا أن نتجاهل جميع هذه الاقوال على اعتبار أنها من الفرضيات، ولكن من الغريب أن الرومان الذين يمتازون عن الإغريق بالروح العملية الواقعية قد واجهوا نفس المشكلة، واخذت الاقوام التى تمت إلى اجناس غير رومانية تتدفق على روما لمزاولة الاعمال التجارية ولتنعم بما تضفيه عليهم من سلامة وطمأنينة. ولما كان ابناء هذه الاقوام لا يعتبرون من المواطنين، لم تكن لهم اية حقوق قانونية أو اية رعوية. واخذ القضاة الرومان يبحثون عن قاسم مشترك لقوانين جميع الشعوب، واعتقدوا انهم عثروا عليه فيما أطلقوا عليه اسم "قانون الشعوب"، وهو ما اعتبروه القانون الاساسى. وكان هذا القانون الاساس الذى قامت عليه جميع قوانين الطبيعة وقوانين طبيعة الله، التى استوحاها جفرسون فى اعلان الاستقلال الأمريكى، والتى قدر لها أن تؤلف اساس معتقداتنا العصرية عن حقوق الإنسان وعن العدالة. وقد ادخلت جميع هذه القواعد فى التشريع الرومانى الذى قدر له أن يؤثر كل التأثير على الحضارة الأوربية وبالتالى الحضارة الأمريكية. ويدين المؤرخون الألمان المعاصرون الذين يمثلهم مينيكى - الشديد الاعجاب بمكيافللى - جميع أولئك الذين يشغلون انفسهم فيما يسميه بالطريقة الطبيعية المثلى للتفكير. ومن الغريب أن نجد أن مكيافللى الذى كان شديد الاعجاب بروما، لم يكن يهتم كثيرا بالتشريع الرومانى الذى يعتبر اعظم اسهام لروما فى الحضارة البشرية.

ولم يكن تمكن الإنسان رغم جميع العوامل من البقاء - على الرغم من ضعفه الجسمانى إذا ما قورن بالأسود مثلاً - ناجما عن الخديعة أو الحيلة التى لجأ اليها بعض الافراد. وعلى الرغم من وجود الرجال الشريرين فى كل زمان ومكان، فإن الإنسان مدين ببقائه - عبر ما يقرب



من نصف مليون عام، وبحضارته التى اقامها فى غضون الستة آلاف سنة الاخيرة - إلى شىء سليقى فطرى فى طبيعته. وهذا هو السبب الذى يحتم علينا اعتبار الحضارة أمراً طبيعياً بالنسبة إلى الإنسان. وهذا هو السبب الذى دفع بأرسطو إلى اعتبار الإنسان حيوانا سياسيا أو اجتماعيا. والدولة ليست خارج نطاق عالمنا الإنسانى. فالشكل المعين لهذه الدولة التى يعيش البشر فى ظلها ليس من صنع الله ولا من صنع الشيطان أو فرضهما، وهى إلى حد ما من الاشياء التى خلقها الإنسان، ولذا من الواجب أن تكون خاضعة - كغيرها من الامور التى خلقها - لاعادة نظره ودراسته.. وهذا السبب أيضاً هو الذى حمل الرواقيين على الاعتقاد اعتقادا صحيحا كما ذكرت آنفاً، بان جميع الناس يعيشون فى مدينة عظمى، بل فى عالم إنسانى يختلف فى إمكانياته واتساعه عن العالم الذى تعيش فيه الاسود والثعالب. وفى إمكان الرجال الذين تنعدم فيهم صفات البشر ويفتقرون إلى الرحمة والإنسانية، أن يعيشوا كالحيوانات المفترسة وان يبحثوا عن فرائسهم. ولكن مثل هذا الزحف على القوة والسلطان قد يكون ممكنا لأن الكثيرين يشعرون بالحاجة الفطرية إلى التعاون والأخوة البشرية. ولما كان الإنسان ذكيا بطبعه وخلاقا، فمن المحتوم أن تقوم خلافات ومصادمات، وان تظهر مشاحنات دامية حول الصور الممكنة والمختلفة التى يجب أن توجد فيها الارتباطات القبلية أو المدنية أو القومية أو العالمية، ومع ذلك يظل هنالك شعور بالمصلحة المشتركة، وبالرابطة التى تصل بين الناس. وهذا هو السبب الذى يحفز رجال عصرنا الحاضر على الاهتمام بالمدن القديمة وبالطريقة التى كان يعيش فيها الناس، وسيجد الزعيم نفسه دائما منهزما امام تصلب وعناد افراد جيله. ولكن هذا الزعيم إذا كان ذكيا

مدركا،فإنه يدرك أن طبيعته الاجتماعية وحاجته تحتمان عليه أن يضع قانونا للسلوك يكون بالطبع قانونا اخلاقيا يستهدف اولا وقبل كل شيء خير المجموع. ولا ريب فى أن العامة من الناس يعرفون هذا تمام المعرفة، ولذا فهم لا يضعون قيصر بورجيا وإيفان الفظيع فى نفس المكانة مع القديس بولس الملك الفرنسى أو جورج واشنطن.وعلى الرغم من أن مكيافللى لا يذكر هذا بصراحة فى كتابه "الأمير"، إلا أن الاحساس بطبيعة الرجل وحاجته لم يكن بالشيء الغريب عليه، ففى مساجلاته حول موضوع الجباية يأمر قارئه بأن:

يُلاحظ ما اضافه الناس من إطراء ومديح على الاباطرة المستحقين، الذين بعد أن غدت روما امبراطورية، تمسكوا باهداب الشرائع والقوانين كحكام طيبين خيرين، يعكس أولئك الذين اختاروا السبيل المضاد. وسيلاحظ هذا القارئ أن شيش ونيرفا وتراجان وهادريان وأنطونيوس وماركوس أوريليوس، لم يكونوا بحاجة إلى الحرس البريثورى والى فرق الجنود للدفاع عنهم، لأن لهم من سلوكهم الحسن وحب الشعب لهم وتأييد مجلس الشيوخ خير ضمان لحمايتهم".

وقد ادت الاكتشافات العلمية الحديثة إلى قوة الاحساس بأننا نعيش فى مدينة عظيمة يسودها الانسجام، وتسيطر عليها قوانين الطبيعة، ولم يعد هناك إلا النذر اليسير من الناس ليشك فى هذه الحقيقة. ولا يستثنى هذا الاحساس بالطبع وقوع بعض الكوارث والخراب. ولا ريب فى أن الاخطاء التى تسبب الزلازل هى نتيجة عمل قوانين الطبيعة، تماما كعودة الربيع أو إيناع الزهور أو قتل الرياح الشديدة للكثير من البراعم. وهكذا ففى العالم الإنسانى وفى الشئون البشرية ستكون هناك ثورات يائسة ومميتة تؤدى إلى خسائر عديدة فى الارواح.



لقد قضى مكيافللى ثلاثة عشر عاما يجاهد لتحسين الاحوال فى بلاده وقد تعلم فى هذه المدة الكثير من الحقائق، وكان الجزاء الذى لقيه هو النفى. ومن نافلة القول ألا ننكر أن كتاب "الأمير" مؤلف ينطوى على المرارة التى نجمت عن فشله فى حياته وليس فى استطاعة القارئ الحديث أن يسمح لهذه الحقيقة بأن تحول بينه وبين رؤية ما يحتوى عليه الكتاب من حقائق مازالت تنطبق على واقعنا فى هذه الأيام.

كريستيان غاوس

■■■



ملاحظات على الفكر
الميكافيللى

اذا كان الفضل يرجع لأرسطو فى منهجة المعرفة التى قامت عليها منهجة التفكير السياسى بوجه عام، واعتماد المنهج الاستقرائى بوجه خاص. واذا كان افلاطون قد أمد التفكير السياسى بطاقة الخيال الخلاقة البناءة. واذا كان ابن خلدون قد زود الفكر السياسى بالمادة الموضوعية، وربطه ربطا محكما بالاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، فإننا نجد أن مكيافللى (١٤٦٩-١٥٢٧م) قد حقق انفصال التفكير السياسى عن الاخلاق انفصالا جليا واضحا، واكتشف أن السياسة متسقة فى قوانين ثابتة لا يعتريها التغيير، حيث اعتمد فى ذلك المنهج الموضوعى الذى استمد مادته من تحليل ومراجعة التاريخ الرومانى "كتاب المطارحات"، ومن سياسات الدول التى عاصرها "كتاب الأمير".

وفى الواقع فإن كتاب (الأمير) يمثل الجانب الايجابى والعملى فى تفكير مكيافللى السياسى، ويمكننا أن نعتمد عليه وحده كمرجع لفهم تفكيره السياسى.

وفى دراسة لأرنستو لاندى يرى أن مكيافللى كان - دون ريب - واقعيا، بمعنى أنه شدد دوما على ما اعتبره حقائق عن الطبيعة الإنسانية والمجتمعات السياسية مهما ابتعدت هذه الحقائق عن الخُلق، وان ميوله

الجمهورية لم تكن محاكاة لذلك المجتمع السياسى المركانتلى الذى كان يراه فى البندقية. وعلى نقيض ذلك كانت ميوله تنبع من رغبة فى احياء نمط جمهورى استهواه عند قراءته كتب التاريخ، لاسيما تاريخ روما القديم. وكان مكيافللى مفكرا سياسيا مبكرا، وقد قام اعتقاده على أن قواعد السلوك الإنسانى يمكن استنباطها من الاختبار، مؤملا استخدام هذه العبر لاغراض نبيلة مثل خلق جمهورية فى إيطاليا المعاصرة تحاكى روما القديمة فى مجدها". ولكننا نرى أنه ـ مع هذا ـ لم يكن متحمسا لتطبيق نظام الحكم الشعبى الرومانى بحذافيره، وذلك لاستحالة تطبيقه على إيطاليا فى عهده.

ونجد أن مكيافللى ـ انطلاقا من اعتباره أن غاية السياسة هى المحافظة على قوة الدولة والعمل على ازديادها ـ قد عنى فى كتاباته بالوسائل التى تستطيع الدولة عن طريقها أن تحقق قوتها، وتتمكن من توسيع سلطانه فى الخارج. ولم تكن الوسائل التى قصدها مكيافللى تقوم على المقاييس والمعايير الاخلاقية المسلم بها، ذلك أن الهدف هنا هو تحقيق الغاية المنشودة، ولا عبرة فى الوسيلة الموصلة اليها. ومن هنا جاء تبرير مدح مكيافللى للحكام الذين يحققون تركيز سلطتهم وقوة دولهم، دون الوضع فى الاعتبار الوسائل التى لجأوا اليها واستخدموها لتأمين ذلك، ودون مراعاة عدم ارتباط هذه الوسائل بالقيم والمسلمات الاخلاقية. وهذا ما دعا دومرجيه عند مقارنته مكيافللى بأرسطو إلى أن يقول: "لقد اوجد ارسطو الركن الاول فى علم السياسة؛ وهو اعتماد منهج الملاحظة، واوجد مكيافللى العنصر الثانى؛ وهو المنهج الموضوعى المتجرد من الاهتمامات والاعتبارات الخلقية".

.ولكن يجدر بنا أن ننبه إلى أن مكيافللى عندما فضل استخدام الحاكم للوسائل المنافية للاخلاق سبيلا لتحقيق اهدافه التى يسعى اليها،فإنه من جهة أخرى اكد أن الدولة القوية لا يمكنها الحفاظ على كيانها إلا على اساس اخلاقى. وقد قام مكيافللى بربط اخلاقية المواطن باخلاقية الدولة، حيث نجده يؤكد على وجوب تمسك المواطن بالاخلاق، معتبرا مقدار الخدمات التى يقدمها للمجتمع هو معيار مواطنيته. ومن هنا كان استشهاد مكيافللى بالفضائل الخلقية الشعبية الرومانية القديمة والسويسرية الحديثة، والتى ارجعها إلى صفاء الحياة العائلية واخلاص الافراد فى القيام بواجباتهم ومسئولياتهم.

وبالرغم من هذا فإننا نجد أنه ظل مصرا على اعتقاده بسوء طبائع البشر، فقد اعتبر أن اهم ما يميز طبيعة البشر الأنانية وحب الذات، وما رغبة المواطن فى تأمين حياته والمحافظة على ممتلكاته وسعى الحكام إلى تقوية وتوسيع سلطانهم إلا نتيجة لتلك الانانية الكامنة فى نفوس البشر، وان قيام الحكومات ما هو إلا تحقيق تلك الرغبات المتولدة اصلا عن الانانية. وقد اعتقد مكيافللى ـ انطلاقا من الاعتقاد ذاته ـ سوء طوية البشر ـ أن نشأة القوانين إنما هى للحد من ميل وسعى الإنسان للنزاع والتملك والسلطة. ولكننا نرى مكيافللى يعود من جهة ثانية ليؤكد أن القوانين هى الوسيلة للحفاظ على اخلاق الشعب وتنمية فضائله. ومن هنا يؤكد على ضرورة وجود مُشرعين بصفة مستمرة. ولكن إذا تخلى الشعب عن الاخلاق الفاضلة، فإن وجود المشرع يفقد مبرره، وفى هذه الحالة لابد أن يكون الحكم استبداديا لتحقيق الاخلاق الشعبية!.

وقد كان مكيافللى معجبا بالحكم الجمهورى الرومانى، ومؤمنا بنظام الحكم الاستبدادى، فى حين أنه كان يرى أن الحكم الديمقراطى هو



اصلح الانظمة، وذلك بشرط أن يكون الشعب مستنيرا ومتمسكا بالاخلاق الفاضلة والدولة مستقرة الاوضاع، اما إذا كانت الدولة ناشئة حديثا أو فاسدة، فإن انسب الانظمة لها هو الحكم المطلق.

وبالاضافة إلى ذلك فإننا نرى أن مكيافللى كان مؤمنا بضرورة اشتراك الشعب بالحكم، معتبرا أن هذا الاستقرار يؤدى إلى الاستقرار الحكومى. وبرأى مكيافللى أنه بالرغم من عدم مقدرة الشعب على فهم السياسات الدقيقة للدولة،فإنه يكون اصلح من الأمير فى الحكم على فساد ادارة الولاة العموميين الفاسدين.

وقد وصل الأمر بمكيافللى إلى الحد الذى جعله يعلق عدم ثقته بنظام الحكم الأرستقراطى وبطبقة النبلاء، بل أنه دعا إلى الغاء هذه الطبقة، أن لم يكن فى الواقع قد دعا إلى القضاء عليها حتى يتحقق استقرار الحكم.

هذه هى بعض الملاحظات التى استطعنا استخلاصها من افكار مكيافللى السياسية، وهى افكار - كما يبدو جليا واضحا لنا - لا تجعلنا نسلم بتلك "السمعة السيئة" التى وصمت بها افكاره السياسية، ليس فى القرون الماضية فحسب، بل فى ايامنا هذه عندما استغلت وحورت من بعض الديكتاتوريين ومفكريهم تبريرا لسلوكهم وانظمتهم، بل على العكس، حيث تذكرنا بتفسير بيكون لفكر مكيافللى فى أنه عالج البشر كما هم لا كما ينبغى أن يكونوا. وهذا لا يعنى اننا نسلم بتشاؤم مكيافللى المطلق فى اطار تعميم حكمه على نفسية البشر جميعهم.

ومما يجدر ذكره أن تلك "السمعة السيئة" لم تلحق بفكر مكيافللى فى حياته، بل لحقته بعد وفاته يوم نشر كتاب "الأمير" للمرة الاولى.



وقد كان اول من كتب مؤلفا فى مهاجمة كتاب "الأمير" هو الكاردينال الانجليزى بولس Polus مما كان له كبير الاثر، حيث ادى إلى حظر كتب مكيافللى وتحريم نشرها. كذلك انتقد غانتيه Gantillet - وهو أحد الكاليفنيين - فى كتاب ضخم مكيافللى فى الحكم.

وعندما بدأت النهضة تترسخ فى القرن السادس عشر وجدنا من ينبرى لبحمل لواء الدفاع عن مكيافللى ويقوم بترجمة كتبه، كما وجد من اتخذ موقفا حياديا كما فعل مونين Montaigne، وذلك حصر انتقاده لكتاب "الأمير" فى مسألة انكار مكيافللى انكارا تاما استحالة نجاح الاخلاص والاستقامة فى المجال السياسى.

ومن الطريف اعتبار عبارة "المكيافللية" كصفة فى كل استشهاد أو وصف للخبث والمكر والدهاء والغدر والفساد فى السلوك والاخلاق. ولعل الذى مهد وكرس هذا الاستشهاد هو الادب الانجليزى فى العهد الإليزابيثى. وفى مسرحية "يهودى مالطة" The Rchiew of Malta لكريستوفر مارلو Christopher Marlow ومسرحية "نساء وندسور" The Merry Wives of Windsor لشكسبير، ففى هذه المسرحيات مقاطع تظهر ذلك بوضوح.

ولم ينل تفكير مكيافللى التقدير ولم يسترجع اعتباره الكلى إلا منذ القرن الثامن عشر، حيث نجد أن اثار مكيافللى قد تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات. ويثنى "روسو" Rousseau ويقوم "فيخته" Fichte بتحليل كتاب "الأمير"، وذلك فى معرض خطابه للشعب الالمانى، ويشهد له هيجل بالعبقرية الفذة، ويعتبر "رانكه" Ranke مكيافللى رائد المنهج التاريخى الحديث، واحد مؤسسى التحليل التاريخى الحديث، ويشيد "تراتيشكه" Treitschke بفضل مكيافللى فى دراسة الدولة، بينما يعتبر

كافور وزعماء الريزور جيمنتو Risor Gimento مكيافللى رسول الوحدة الايطالية.

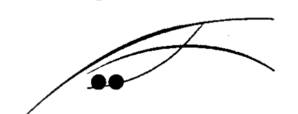
وقد اخذت الدراسات والشروح المفصلة لافكار مكيافللى تتوالى، فيكتب فيها "سانكتس" Sanctis و"توماريني" Tomarini و"فيلارى"Villari و"فرانشيسكو اوركلى" Francesco Ercole و"فريدريكو كابود"Fredrico Cabod فى إيطاليا، و"ماكوولى" Maccauly و"لورد اكتون"Lord Acton فى انجلترا.

ويرى لاندى فى دراسته عن مكيافللى الآنف ذكرها؛ أن مكيافللى - وان لم يكن باعتقاده أن بإمكانه التنبؤ بتاريخ البشرية المقبل كما تنبأ جاليليو بحركات الكواكب السيارة المقبلة - فإن ما قصده لم يكن بعيدا عما قصد إليه ماركس بعد ذلك بعدة قرون: السيطرة على المستقبل وتسييره وكسب قوى جديدة فى السياسة نتيجة المعرفة بقوانين التاريخ، إلا اننا نجد أن ماركس، خلافا لاسلوب مكيافللى الاقرب إلى اسلوب مزارع، يسيطر على الطبيعة بمعرفة طرقها، مما اضفى على عمله عظمة تاريخية مميزة.

■■■



ميكيافيللى
ونظرية الفوضى الخلاقة



اشتهر ميكيافيللى المتوفى عام ١٥٢٧م بأنه عميد المدرسة التى تُعرّف السياسة بأنها : " فن الخداع والغش " أو وهى بتعبير آخر « فن الخساسة»!

وأظن وأرجو أن يكون ظنى خاطئا بأن كثيرين لم يقرؤوا بيتى أبى العلاء المعرى فى سقط الزند الذى قال عن الحكام والأمراء والرؤساء ومن على شاكلتهم :

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويُقال ساسة

فأفٍّ من الحياة وأفٍّ منى على زمنٍ رياسته خساسة!

فلو شاع البيتان لقلنا بأن أبا العلاء سابقٌ على ميكيافيللى بسبعة قرون على الأقل!

ولن أقوم كما اعتاد كثيرٌ من الكتاب أن يفعلوا بأن ينسبوا كل الآثار لأبناء جلدتهم، وبخاصة من الذين امتهنوا هذه العادة منذ أمد طويل، فإذا سمعوا عن اختراع، أو إبداع جديد « أصّلوه» ونسبوه إلى علمائهم، حتى أنهم افتنوا فى متابعة كل الألفاظ فى اللغات الأجنبية ونحتوا منها ما يعادلها فى اللغة حتى وصل بنا الحال أن ندعى بأن شكسبير عربىٌ لحما ودما فهو (الشيخ زبير)!



كيف نجح ميكيافيللى فى « طمس» آثار سابقيه، وتأسيس مدرسته الخاصة فى فن السياسة، بحيث أصبح عميد السلك النفعى فى السياسة؟

سؤال ينبغى أن أضع له بعض الإجابات بعد أن أقتبس بعض مقولاته بمناسبة رواج مقولة (الفوضى الخلاقة) التى نادت بها كوندوليزا رايس ومعها عدد كبير من الساسة الأمريكيين، وأصبحت الفوضى الخلاقة بذلك نظرية أمريكية تلائم ألفيتنا الثالثة!

يقول ميكيافيللى فى كتابه « الأمير» :

الشجاعة تُنتج السلم

والسلم يُنتج الراحة

والراحة يتبعها فوضى

والفوضى تؤدى إلى الخراب

ومن الفوضى ينشأ النظام

والنظام يقود إلى الشجاعة.

وسأقتبس من ميكيافيللى أقوالا أخرى تؤكد مذهبه النفعى فى السياسة، وتؤكد ريادته للسياسيين فى عصرنا :

" الدين خير وسيلة لتعويد الناس المفطورين على الشر للخضوع للقانون

فعلى (الأمير) أن ينشر الدين

ويظهر بمظهر الورع

وهذا أفضل من أن يتصف بالأخلاق الحميدة



ومن الخير للأمير أن يتظاهر بالرحمة والتدين وحفظ الوعد والإخلاص

ولكن عليه أن يكون مستعدا للاتصاف بعكسها "

فميكيافيللى بالطبع درس آثار سابقيه ودرس كتابات معاصريه، واستفاد من جمهورية أفلاطون ومبادىء سقراط وأرسطو وكل الفيثاغوريين، ثم إن ميكيافيللى نجح فى اختيار المبادىء التى تصلح لكل عصر وأوان، وهو أيضا أحسن فى صياغتها فى قوالب لغوية سهلة وميسورة، وربما تشكل الإجابات السابقة أساسا لفهم ريادة ميكيافيللى «لفن » الحكم.

وليس عندى شك فى أنه استفاد من مقولات سابقيه، فأرسطو مثلا نصح أهل أثينا قائلا لهم :

" لابد أن تكونوا متدينيين لأن فى بلادكم معابد كثيرة!"

وهذه المقولة تصلح أن تكون هى أساس استخدام الدين أيضا استخداما نفعيا، فقد اهتدى أرسطو بفعل قراءاته إلى أن « الربح» الاقتصادى والتجارى يقتضى التمسك بالدين! ولا يغيب عن كثيرين ما فى مقولة أرسطو من معانٍ عديدة.

وبهذه المناسبة سيظل العرب يفتحون أفواههم مندهشين فى كل مرة تظهر فيها نظرية جديدة، لأنهم ببساطة سيظلون يفخرون بأنهم (شبوا عن الطوق) منذ سنين! ألم يكونوا (أساتذة) العالم طوال قرون؟! ومن كان هذا حاله. .... أما آن له أن يعيش على (ذكرياته) الماضوية!!





أنواع الحكومات
وطريقة نشأتها

اذا نظرنا إلى جميع الحكومات والممالك التى قامت بحكم بنى البشر. سواء فى الماضى السحيق أو التى تتولى حكمهم الآن ـ نجد أنها شكل من اثنين؛ اما الشكل الجمهورى واما الشكل الملكى.

والملكيات اما أن تكون وراثية ـ اى ينتقل الحكم فيها إلى افراد الاسرة الواحدة ـ واما حديثة النشأة. والملكيات الناشئة حديثا اما أن تكون جديدة فى كل شىء ـ كما هى الحال فى ميلان التى جعلت من فرانسيسكو سفورزا ملكا عليها واما أن تكون مما اضيف من مناطق جديدة إلى ممتلكات الأمير الوراثى، كما نجد فى مملكة نابولى التى تخضع لملك اسبانيا. وهذه الممتلكات المكتسبة اما أن تكون قد تعودت على هذا النوع من الحكم ـ وذلك راجع لخضوعها لأمير آخر ـ واما أنها كانت دولا حرة، وقد اتبعت بممتلكات الأمير عن طريق قواته العسكرية، أو قوة الآخرين، وإما عن طريق أن تهدى إليه نتيجة كفاءته.

الملكيات الوراثية

نتحدث الآن عن الطرق التى يمكن من خلالها ادارة انواع الملكيات، حيث نجد أن مهمة الاحتفاظ بالملكيات الوراثية ـ حيث تعود الناس على



اسرة حاكمة أكثر سهولة ويسرا من الاحتفاظ بالملكيات الجديدة، إذ يكفى فى هذه الحالة إلا يضطر المرء إلى الاعتداء على المألوفات الوراثية، وبهذه الطريقة يستطيع الأمير - إذا كان مجدا فى عمله ومثابرا عليه - أن يحتفظ بمركزه، إلا إذا وجد نفسه امام ظروف استثنائية اقوى منه فطردته من مركزه، وحتى لو حدث ذلك نجد أن الأمير يستطيع أن يستعيد مكانته ومركزه. واوضح مثال على ذلك ما حدث فى إيطاليا؛ حيث تمكن الدوق "فيزار" من الصمود امام هجمات البنادقة عام ١٤٨٤م، وهجمات البابا "يوليوس" عام ١٥١٠م، وما حدث ذلك إلا بفضل شىء واحد، ألا وهو عراقة اسرته فى حكم المدينة، فمن الطبيعى أن الأمير صاحب الحق الشرعى فى الحكم إذا لم يقترف من بين الموبقات والرذائل ما يحمل الناس على كراهيته، فإن من المنطقى والمعقول بالنسبة لرعاياه أن يكونوا شديدى التعلق به، وفى سبيل التمسك به والدفاع عنه نجدهم يضحون بحياتهم من اجله.

الملكيات المختلطة

اما عن الملكيات الجديدة، فنجد أن الصعوبات والمشاكل كثيرا ما تواجهها؛ إذ عندما تكون الدولة ليست حديثة النشأة، وانما عضو فى دولة مختلطة، فإن الاضطرابات يكون سببها الاول راجعا إلى الصعوبة الطبيعية التى نجدها عادة فى الممالك الجديدة جميعها، وذلك لأن الناس عندما يُقبلون على تغيير حكامهم، إنما يكون ذلك بمحض الرغبة والارادة، أملاً فى تحسين احوالهم، وهذه العقيدة هى التى تدفع بهم إلى الثورة على حكامهم الذين خدعوهم ولم يوفوا بوعودهم التى قطعوها على انفسهم، خاصة إذا اثبتت الاحداث التى مر بها ذلك الشعب انهم

إنما انتقلوا من حالة سيئة إلى حالة أسوأ منها، بالاضافة إلى ما قد يُلحقه جنود الحاكم الجديد من اذى وضرر بالرعايا فى المملكة التى اعتلى الأمير عرشها.

وهكذا سيجد ذلك الأمير أن اعداءه دائما أولئك الذين تضرروا من احتلاله بلادهم. وفى نفس الوقت نجد أنه ليس فى إمكان الأمير الاحتفاظ بصداقة من ساعدوه فى الحصول على تلك الممتلكات الجديدة، لأنه ليس فى استطاعته تحقيق جميع آمالهم واهدافهم، وفى نفس الوقت سيكون عاجزا عن استخدام الشدة والصرامة ضدهم نظرا لشعوره بما له من دين لهم عليه. ولهذه الاسباب كلها نجد أنه مهما كانت جيوشه بالغة القوة، فإن ذلك لا يكفى لاستتباب الحكم له، إذ أنه يكون فى بالغ الحاجة إلى عطف السكان حتى يتمكن من احتلال بلادهم. ولعل ما سبق هو ما يوضح الاسباب التى ادت إلى اخراج لويس الثانى عشر - ملك فرنسا - من ميلان بعد أن احتلها بفضل جيوشه القوية بوقت قصير، فى الوقت الذى نجد فيه أن القوات التى اخرجته لم تتعد جيوش "لودفيكو" الصغيرة، وذلك لأن السكان الذين فتحوا ابواب مدينتهم طواعية فى بادئ الأمر للملك الفرنسى سرعان ما انقلبوا عليه، ذلك لانهم وجدوا أن الآمال التى كانوا يطمحون إلى تحقيقها تتلاشى بسرعة البرق، ولم يحصلوا على المنافع التى كانوا يتوقعونها، وهكذافإنهم لم يستطيعوا احتمال حكم اميرهم الجديد.

ونلاحظ أن الحاكم إذا اعاد احتلال مدينة أو مقاطعة ثارت فيما قبل عليه،فإنه يحاول السيطرة عليها، ويعمل على إلا تضيع منه بسهولة هذه المرة،فإنه وقد جابهته حقيقة الثورة وقوتها فى المرة الاولى، اضحى -



للاحتفاظ بمركزه - اقل عداء عن طريق معاقبة مناوئيه، وتقوية نفسه فى مراكز الضعف.

وهكذا، فعلى الرغم من أن مجرد ظهور شخص كالدوق "لودفيكو" على حدود ميلان كان سببا فى فقدان فرنسا لسيطرتها على المدينة فى المرة الاولى،فإنها فى المرة الثانية لم تتخل عن المدينة إلا بعد أن تألب العالم عليها، وبعد أن وقعت الهزيمة بجيوشها واجبرت على الرحيل عن إيطاليا.

ويجب علينا الآن شرح أسباب خسارة فرنسا للمرة الثانية، وكذلك توضيح السبل والطرق التى كان على فرنسا اتباعها لتحول دون تلك الخسارة، أو الوسائل التى كان من اللازم على ملك فرنسا اللجوء اليها. ولكن يجب اولا أن ندرك أن الدول التى تتحد بفعل ضمها إلى بعضها البعض - خاصة إذا كانت الدولة المضمومة غير متعودة على الحرية - من الضرورى حتى يتم الاحتفاظ بهذا الوضع بعيدا عن كل خطر، وان يقضى نهائيا على الاسرة التى كانت تحكم تلك الدولة فى الماضى. اما ما تبقى فأمر فى غاية البساطة، إذ أن الاوضاع التى كانت سائدة فى الماضى لم تتأثر، وبالتالى يعمد الناس فيها إلى الهدوء وعدم الثورة على حكامهم الجدد، وهذا ما يبدو شديد الوضوح فى بورغنديا وغسكونيا ونورماندیا التى اتحدت منذ أمد بعيد مع فرنسا، وبالرغم من وجود اختلافات فى اللغة، فإن عادات سكان تلك البلاد متشابهة إلى حد بعيد، وفى استطاعتهم أن يعيشوا جميعا متآخين. ويجب على كل من يود السيطرة على هذه الممتلكات والاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائما امرين فى غاية الاهمية؛ أولهما القضاء على الاسرة الحاكمة السابقة، وكذلك ابادة جميع الموالين لها. اما الأمر الثانى فهو عدم احداث تبديل جذرى



فى قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن أن يتحد البلدان فى وقت قصير جدا، بل يمكن لهما أن يؤلفا دولة واحدة.

وعلى الجانب الآخر نجد أن عكس ذلك صحيح؛ فعندما يضم الأمير (او الملك) مقاطعات تختلف فى لغة مواطنيها وقوانينهم وعاداتهم عن ممتلكاته الاصلية، فإن امام ذلك الأمير (او الملك) صعوبات ومشاكل كبيرة، يتطلب حلها وتذليلها العمل الدائب المستمر، وذلك فى سبيل الحفاظ على ممتلكاته الجديدة. ويأتى فى مقدمة الوسائل التى تسهل عليه ذلك أن يقرر الحاكم الجديد اقامة مقره فى تلك الممتلكات الجديدة، فهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة واطول امدا، حيث أن وجود المحتل فى المنطقة المحتلة يمكنه من التعامل مع الاضطرابات والثورات فور وقوعها ومعالجتها، بينما إذا كان بعيدا عنها فإنه لا يسمع بنشوبها إلا بعد حين، مما يجعل من علاجها امرا عسيرا وهذا ما فعله الاتراك فى بلاد اليونان، إذ على الرغم من جميع الوسائل التى لجأ اليها الاتراك للاحتفاظ باليونان، فإن هذا الاحتفاظ ما كان ممكنا لو لم ينتقل الاتراك إلى بلاد اليونان للعيش فيها.

ويضاف إلى هذا أن المقاطعة المحتلة لن تكون ملعبا لشهوات موظفى الحاكم المحتل، يمارسون فيه مؤامراتهم ودسائسهم لتحقيق اطماعهم فى المقاطعة. كما أنه سيكون فى استطاعة الرعايا الوصول إلى ما يتطلعون إليه من انصاف، وذلك عن طريق الاتصال المباشر بحاكمهم.

ولما كانت رغبة الرعية اظهار الولاء الدائم للحاكم، فإن ذلك يحملهم على حبه، أو حتى على مخافته إذا لم يكونوا راغبين فى هذا الحب. واذا كانت احدى الدول الاجنبية ترغب فى مهاجمة تلك الارض المحتلة

والسيطرة عليها، فإن وجود الأمير فيها يجعلها تتردد كثيرا فى الاقدام على عمل كهذا، ادراكا من تلك الدولة الاجنبية لما فى اخراجه من مقره من صعوبة ومشقة.

أما عن العلاج الافضل، فهو - لا ريب - اقامة مستعمرات تقيم فيها جاليات فى مكان أو مكانين استراتيجيين، فمن الضرورى - كى يتم الاحتفاظ بهذه الممتلكات - أن يتم تنفيذ هذه الخطة، أو الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة فى البلاد المحتلة. اما عن تكاليف اقامة هذه المستعمرات، فما هى إلا النذر اليسير، ففى وسع اميرها أن يرسل الجاليات وان يقيم اودها فى المراحل الاولى بتكاليف طفيفة جدا. وهو (الأمير) فى عمله هذا لن يسىء إلا إلى الرعايا الذين تؤخذ منهم اراضيهم وبيوتهم حتى يقطن فيها السكان الجدد، هؤلاء الذين لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من سكان البلاد المحتلة، اضحوا فقراء معدمين مشردين فى كل مكان، ليس فى إمكانهم الحاق الاذى بالأمير، بينما نجد على الجانب الآخر بقية السكان لم يصابوا بسوء، مما يجعلهم يحافظون على هدوئهم مخافة الاساءة إلى الحاكم، الأمر الذى يعرضهم لمعاملة تشبه تلك المعاملة التى لحقت بمن فقدوا اراضيهم.

والخلاصة فإن هذه المستعمرات لا تكلف الأمير شيئا، وتكون اقل ضررا واكثر موالاة واخلاصا إليه من السكان الاصليين، الذين أصبحوا فقراء مبعثرين عاجزين عن الحاق الاذى بالأمير.

على أنه يجب ملاحظة أن علينا اما العطف على الناس ومعاملتهم معاملة حسنة، واما أن نقضى عليهم، إذ أن فى إمكانهم الثأر للاساءات الصغيرة. أما الإساءات البالغة الخطورة فنجدهم اعجز من أن يثأروا



لها، ولذا أن اردنا الاساءة لإنسان فعلينا أن تكون هذه الاساءة على درجة بالغة، بحيث لا نضطر بعد ذلك إلى التخوف من انتقامه. اما الاحتفاظ بالحاميات بدلا من الجاليات، فهو الأمر الذى يكلف الأمير نفقات اكبر تستنزف كثيرا من موارد الدولة، مما يحيل التملك الجديد إلى عبء ثقيل، بالاضافة إلى ما فيه من اساءة لجميع سكان البلاد المحتلة الذين يرون الجيش معسكرا فى اراضيهم. وهذا الشعور بالاساءة يحول جميع السكان إلى اعداء قادرين على الحاق الضرر البالغ، إذ انهم على الرغم من وقوعهم تحت الاحتلال،فإنهم مازالوا فى بيوتهم واراضيهم. وعلى هذا فإن الحاميات غير مجدية، بينما الجاليات نافعة ومفيدة.

وعلى حاكم المقاطعة الاجنبية المحتلة - كما سبق - أن يجعل من نفسه زعيما وقائدا وحاميا لجيرانه الضعفاء، وان يعمل على اضعاف الاقوياء منهم، وان يعمل على حمايتهم من غزو حاكم اجنبى اخر، وفى هذه الحالة سيجد نفسه - دائما - مدعوا للتدخل فى النزاعات التى تنشب بين جيرانه بسبب الطموح أو الخوف، وذلك بطلب منهم. وهذا ما حدث بالفعل عندما دعا الايتوليوس الرومان إلى بلاد اليونان، حيث كانوا يجدون انفسهم يدخلون كل مقاطعة بطلب من اهلها. وهناك قاعدة عامة تنص على أن الاجنبى القوى عندما يدخل امارة ميلاً إلى الضعفاء من اهلها، فإنهم يصبحون على الفور من انصاره ومؤيديه. وما يحفزهم على ذلك هو حسدهم لمن كانوا يتحكمون فى شئونهم. وهكذا لا يجد الحاكم الجديد ادنى صعوبة فى سبيل اجتذاب مثل هؤلاء إلى صفه، وما ذلك إلا لانهم يندفعون إلى تأييد الدولة التى اقامها بمحض رغبتهم الخالصة.

وعلى الحاكم أن يكون "واعياً" بحيث لا يمكنهم من الوصول إلى منتهى القوة والسيطرة، مما يجعلهم مصدر قلق واضطراب، ويمكنه بسهولة -

عن طريق قـواته وتأييـد الموالين له ـ أن يقـضـى على الاقـوياء الذين يناوئونه فى امارته الجديدة، حتى يظل الحاكم المطلق فى جميع شئون الامارة. اما الأمير الذى لا ينهج ذلك النهج فسرعان ما يخسر ما حصل عليه، وسوف يواجه ـ فى غضون حكمه القصير ـ متاعب وصعوبات لا حد لها يستنزف فى مواجهتها كثيرًا من قوته وموارده.

واذا ما نظرنا إلى الرومان سنجدهم قد اتبعوا هذه السياسة دائما فى جميع المقاطعات التى احتلوها، حيث اقاموا المستعمرات والجاليات، وقربوا إليهم صغار وجهاء تلك المقاطعات دون أن يسمحوا لهم بالعمل على مضاعفة قواتهم، كذلك عملوا على كسر شأفة الاقوياء واخماد سلطانهم، ولم يسمحوا للحكام الاجانب بالحصول على النفوذ فى بلادهم. والمثل الفريد من نوعه على ذلك اليونانيون؛ حيث اتخذوا من الآخيين والايتوليين اصدقاء لهم، واستطاعوا القضاء على مملكة مقدونيا، بالاضافة إلى قيامهم بطرد الأنطاكيين، ولم يسمحوا لاصدقائهم الآخيين والايتوليينن بتوسيع رقعتهم وبسط سلطانهم، كما انهم لم يصغوا لاغراءات "فيليب" الذى كان يرجو صداقتهم إلا بعد أن اضعفوا من نفوذه وسلطانه، ولم يسمحوا لـ"أنطيونوس" ـ برغم قوته ـ بالسيطرة على أى جزء من اليونان.

وما قام به الرومان فى هذه الحالات هو ما يجب أن يقوم به الأمراء الحكماء الذين لا ينحصر جل اهتمامهم بشئون الحاضر، بل يتعدونه إلى ما يمكن حدوثه من خلافات فى المستقبل، حيث يتخذون اهبتهم لمواجهتها ودرء أخطارها، لأن مجرد توقعها يمكن الإنسان من علاجها والقضاء عليها بكل سهولة ويسر. اما إذا انتظر مجيئها حتى تقع، فسيصبح من الصعوبة بمكان علاجها والقضاء عليها. وعلى ذلك نجد أن

هذا ما يحدث تماما فى شئون الدولة: إذ أن تمييز المشاكل والشرور قبل وقوعها يجعل من معالجتها امرا بالغ السهولة. اما عدم توقعها قبل حدوثها فإن علاجها الاضطرابات والمشاكل قبل حدوثها بزمن بعيد، وتبعا لذلكفإنهم كانوا يعثرون على العلاج الناجح. وكانت عادتهم إلا يسمحوا لها بالازدياد حتى لا تؤدى إلى حرب، إذ انهم ادركوا أن الحرب امر لا يمكن تجنبه، وانما فى الإمكان تأجيله، وفى الغالب يكون هذا التأجيل فى صالح الطرف الاخر. ولهذا نجدهم يعلنون الحرب على "فيليب" وعلى "أنطيونوس" فى اليونان، تجنبا من محاربتهما فى إيطاليا، بالرغم من أنه كان فى وسع الرومان آنذاك أن يتجنبوا كلا الحربين، ولكنهم لم يختاروا عمل ذلك.

وبالعودة إلى فرنسا، وبالنظر إذا ما كان الملك لويس الثانى عشر قد قام بمثل هذه الامور، نجد أنه قام بعكس ما ذكرناه انفا، فقد استدعى البنادقة الملك لويس للمجىء إلى إيطاليا حتى يستطيعوا عن طريقه الحصول على نصف (لومبارديا). ولا نستطيع لوم الملك على مجيئه، ولا على الدور الذى قام به، إذ أنه كان مدفوعا برغبته فى وضع اقدامه فى إيطاليا، دون أن يكون له اصدقاء ومؤيدون، واضطر إلى أن يقبل أى عروض للصداقة يمكن العثور عليها. وكان يأمل أن تنجح خططه بسرعة، لولا الاخطاء التى ارتكبها فى اجراءاته الاخرى؛ فبعد أن استعاد الملك (لومبارديا) استرجع السمعة التى كان "شارل" قد اضاعها، حيث نجد أن (جنوا) قد اذعنت له، واصبح الفلورنسيون من اصدقائه، ونجد أن "مركيز مانتولم" ومعه دوقان: "فيرارا" و"بنتيفوغلى"، وسيدة فورلى، وسادةفإنيزا وبيزارو وريمينى، وسكان لوكا وبيزاوسيينا، تقدموا إليه جميعا ينشدون وده ويطلبون صداقته، الأمر الذى جعل البنادقة يدركون



نتائج تسرعهم وطيشهم، وكيف أن رغبتهم فى كسب بعض المدن فى (لومبارديا) ادت إلى سيطرة الملك على نحو ثلثى إيطاليا.

ولو أن الملك لويس الثانى عشر قد اتبع القواعد التى ذكرناها آنفاً لما وجد صعوبة تذكر فى الاحتفاظ بسمعته وممتلكاته فى إيطاليا، ولفرض سيطرته على جميع الاصدقاء الضعيفى الشأن والمتخوفين دائما، اما من الكنيسة واما من البنادقة، الأمر الذى يجعلهم مرغمين على الالتفاف حوله والاذعان له، ولكنه بدلا من ذلك لم يكد يضع قدمه فى ميلان حتى قام باجراء مضاد؛ حيث ساعد البابا "أليكساندر" على احتلال رومانا، ولم يفطن - لغفلته - أنه بذلك قد اضعف نفسه بالتخلى عن اصدقائه الذين لجأوا إليه طالبين منه الحماية، كما أنه بذلك قوى من مركز الكنيسة، وذلك باضافته سلطات زمنية إلى سلطتها الروحية التى تضفى عليها قوة هائلة. وبالرغم من أنه ارتكب الخطأ الاول نجده يرتكب اخطاء اخرى!! فنجد أن رغبته فى وضع حد لمطامع "أليكساندر" - وللحيلولة دون صيرورته حاكم (تسكانيا) - حملته على المجىء مرة أخرى إلى إيطاليا. ولم يكتف بما قام به من اعمال ادت إلى زيادة قوة الكنيسة واضاعة اصدقائه، بل امتدت اطماعه إلى مملكة نابولى، واقتسمها مع ملك اسبانيا. وهكذا نجد أنه بعد أن كان سيد إيطاليا، استصحب معه شريكا قد يلجأ إليه الطامحون الذين قد لا يرضيهم حكمه لانصافهم، وبدلا من أن يترك فى تلك المملكة ملكا تابعا له، خلعه عن عرشه ليأتى باخر باستطاعته أن يخرجه من البلاد!

واذا نظرنا إلى الرغبة فى الامتلاك، فإننا نجدها غريزة طبيعية، أى أن النفس البشرية جُبلت عليها. وعندما ينجح القادرون على الامتلاك،فإنهم دائما ما يلقون الثناء والمديح على ذلك، ونجد اللوم بعيدا



عن أن ينال منهم. اما إذا كانوا عاجزين عن ذلك، فإننا نراهم يعملون على امتلاك ما يريدون مهما كان الثمن، وفى سبيل ذلكفإنهم قد يقترفون خطيئة تستحق ما هو اعظم من اللوم!

ولهذافإنه لو كانت قوات فرنسا من القوة والبأس بحيث تستطيع الاستيلاء على نابولى، لكان من الواجب على الملك إلا يتوانى عن ذلك. اما إذا كانت عاجزة عن تحقيق هدفها، فإن من الخطأ أن تشترك مع اسبانيا فى ذلك، - واذا كان البعض يجد من المبررات للملك لاقتسام "لومبارديا" مع البنادقة - حيث كان ذلك الاقتسام الذريعة التى لجأ اليها ملك فرنسا لوضع اقدامه فى إيطاليا - فإننا لا نجد ما يبرر هذا الاقتسام الجديد الذى يستحق الكثير من اللوم، لأنه لم يكن هناك داع للقيام بذلك.

وهكذا نجد أن الملك لويس الثانى عشر قد ارتكب خمسة اخطاء؛ سحق الدول الصغرى، وضاعف من قوة حاكم واحد فى إيطاليا، وجاء إلى البلاد باجنبى قوى، ولم يعمل على الاقامة فى البلاد، كذلك لم يعمل على اقامة اية مستعمرات فيها أو جاليات. ونرى أنه كان باستطاعته - لو عاش - أن يتجنب اضرار تلك الاخطاء التى ارتكبها، ذلك لو لم يرتكب الخطيئة السادسة (احتلال دولة البنادقة)، إذ أنه لو لم يقم بتقوية الكنيسة والاتيان بالاسبان إلى إيطاليا، فإن القيام بمثل هذه الخطوة كان امرا ضروريا ومشروعا لاخضاع البنادقة واذلالهم والسيطرة عليهم. ولكنه بعد اتخاذ تلك الخطوات، توجب عليه ألا يوافق مطلقا على خراب البنادقة، إذ لو كان البنادقة اقوياء لحالوا بين الآخرين وبين القيام باية محاولات ضد "لومبارديا"، وذلك لانهم - أولاً - لن يوافقوا على أى اجراء من شأنه عدم ضمان المنطقة لانفسهم، وثانياً لأن الآخرين ما كانوا

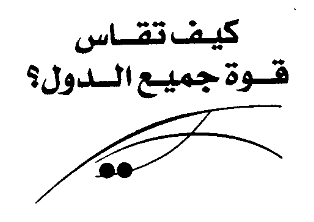
يعملون على تخليص المنطقة من النفوذ الفرنسى ليعطوها إلى البنادقة، بالاضافة إلى انهم ما كانوا ليجدوا الجرأة على مهاجمة الفريقين معا.

ولو قال قائل أن الملك لويس قد سلم "رومانا" لـ"أليكساندر" ومملكة نابولى لأسبانيا عملا منه على تجنب الحرب، فإننا نرى أن ذلك غير صحيح بالمرة، حيث أن على الإنسان ألا يسمح مطلقا بقيام الاضطرابات والمشاكل والفوضى رغبة منه فى تجنب الحرب، إذ أن سماحه بذلك لا يصل به إلى الهدف الذى يعمل على تحقيقه (تجنب الحرب)، وانما كل ما يصل إليه هو تأجيل تلك الحرب، وذلك التأجيل - بالطبع - يكون لمصلحة خصومه. واذا زعم آخرون أن الملك قد وعد البابا بمثل هذا المشروع مكافأة له على حله من رباطه الزوجى، وعلى منحه رتبة الكاردينالية لروهان، فإن الرد عليه يأتى فيما بعد عند الحديث عن موضوع عهود الأمراء، والطريقة التى يرعون بها هذه العهود. وهكذا نرى أن الملك لويس قد اضاع "لومبارديا"، وما حدث ذلك إلا لأنه لم يرع أياً من الشروط التى كان من الواجب عليه اتباعها.





كيف تقاس
قوة جميع الدول؟



عندما نبحث فى طبيعة هذه الإمارات، نرى من الضرورى الاهتمام بجزئية أخرى وهى: هل يتمتع الأمير بذلك المركز الذى يمكنه فى حالة الحاجة من المحافظة على نفسه؟ أو أنه فى حاجة دائمة إلى مساعدة الآخرين ومعاونتهم؟ وخير سبيل لتوضيح ذلك نقول اننا نعتبر من يستطيعون المحافظة على مراكزهم، أولئك الذين لديهم الكثير من الرجال والمال، وفى إمكانهم حشد جيش كاف، ولديهم القدرة على الصمود ضد كل من يهاجمهم. ونعتبر من يحتاجون إلى الآخرين، أولئك الذين لا يمكنهم خوض المعارك ضد اعدائهم، مما يضطرهم إلى اللجوء داخل اسوارهم وحصونهم، واتخاذ موقف الدفاع. وقد تكلمنا عن الحالة السابقة، وسوف نتحدث عنها كذلك فى المستقبل، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. اما عن الحالة الثانية، فإن ما يقال هو تشجيع ذلك الأمير على تزويد مدينته بالمؤمن، وتقوية وسائلها الدفاعية، والا ينزعج باحوال الريف المحيط بها. ولاشك فى أن الآخرين سينتابهم التردد لمهاجمة الأمير الذى يجيد تحصين مدينته وتقويتها، ويحسن ادارة امور إمارته، كما قلنا سابقا، وذلك لأن الناس يكرهون دائما المغامرات التى يتوقعون فيها لقاء المصاعب، ويكون من الصعوبة بمكان شن الهجوم على رجل احسن الدفاع عن مدينته وبادله رعاياه بالحب.



وتتمتع مدن ألمانيا بالحرية الكاملة، ولا يحيط بها من الريف إلا القليل، وهى لا تخشى الامبراطور وتطيعه عندما يروق لها ذلك، ولا تضطرب أو تخاف من وجود حاكم آخر يعيش قريبا منها، فهذه المدن قوية ومنيعة الحصون بالدرجة التى يتأكد من يحاول القضاء عليها واحتلالها من صعوبة مهمته، وما يكتنفها من مصاعب ومشاق، حيث تحيط بكل منها الخنادق والحصون، ولديها المدافع الكافية، وكذلك المؤن اللازمة من مأكل ومشرب ووقود، بحيث يكون اهلها لديهم ما يكفيهم سنة كاملة، وقد أُودعت كلها فى المخازن العامة. ويضاف إلى كل ذلك أن حكومات تلك المدن، رغبة منها فى ارضاء جميع طبقات الشعب، والحيلولة دون تحمل الخزانة العامة اية خسائر، احتفظت على الدوام بالوسائل الكافية لتشغيلهم مدة سنة كاملة فى تلك الاعمال التى تؤلف حياة المدينة وعصبها الحساس، وفى كل الصناعات التى يعيش عليها ابناء هذه الطبقات ومازالت التدريبات العسكرية نجرى فيها فى نظام رفيع ومستوى راقٍ.

وتبعا لذلك لا يستطيع أى إنسان أن يهاجم الأمير الذى يحكم مدينة منيعة، والذى لا يعرض نفسه لكراهية رعاياه، بل يعمل على كسبهم لصفه لضمان ولائهم. واذا ما توافرت للأمير هذه المزايا، فإن المهاجم لن يجد امامه إلا التراجع، وقد جلب لنفسه العار، إذ دوام أى شىء مستحيل، ويصعب على أى مهاجم أن يظل محاصرا أى مدينة سنة كاملة، دون أن تقوم قواته المحاصرة بعمل أى شىء. ونود أن نجيب من يقول أن الشعب المحاصر يفقد الصبر عندما يرى ممتلكاته خارج المدينة تحرق وتنهب، وان اطالة أحد الحصار بالاضافة إلى مصالحهم الذاتية تجعلهم يتخلون عن اميرهم، فإن الأمير الشجاع والقوى بإمكانه التغلب على هذه



المتاعب، وذلك برفع معنويات رعاياه، والتأكيد لهم أن هذه المصاعب لن تطول، والاطمئنان دائما على الذين يُظهرون منتهى الشجاعة. يضاف إلى ذلك أن المهاجم عادة ما يلجأ إلى احراق الريف المحيط بالمدينة، ونهب ما تقع عليه يده، وذلك لاضعاف الروح المعنوية عند الشعب المحاصر، وعندما تكون عقول الرعايا وقلوبهم يملؤها الحماس للدفاع عن مدينتهم، وهذه الناحية لا تثير الفزع عند الأمير، إذ أنه مع مضى الزمن، وفتور الحماس، يكون الضرر قد وقع ولم يعد هناك علاج، وهذا ما يجعلهم متحفزين أكثر على الاتحاد مع أميرهم، خاصة أنه بدأ يشعر بالتزاماته تجاههم، بعد أن أُحرقت بيوتهم، وهُدمت ممتلكاتهم دفاعا عنه.

ويجب التذكير بأن من طبائع البشر أن تربط بينهم المنافع والمصالح التى يقدمونها لغيرهم بقدر المنافع والمصالح التى يتلقونها. وهذا معناه أن الأمير الفطن لن يجد من الصعوبة بمكان - بعد دراسته لجميع الاحتمالات - المحافظة على شجاعة رعاياه وولائهم له، سواء عند بدء الحصار أو إبانه، وذلك إذا توافرت له الوسائل والمؤن اللازمة للدفاع.

■ ■ ■

حكم المدن أو الممالك
التى كانت تعيش
فى ظل قوانينها الخاصة

قبل احتلالها

عندما تكون الدولة التى تم احتلالها والسيطرة عليها، قد ألفت ـ فى قوانينها الخاصة ـ الحرية وتعودت عليها، فإننا نجد أن هناك ثلاثة سبل للاحتفاظ بهذه الدول، اما السبيل الاول فهو حرمانها من كل شىء. والثانى أن يقيم بها الأمير المحتل، حتى يكون قادرا على مواجهة المشاكل والاضطرابات التى قد تنشأ ويسيطر عليها. اما السبيل الثالث والاخير، فهو ألا يغير قوانينها ويسمح لاهلها بالعيش فى ظل تلك القوانين، ويكتفى باخذ الجزية منهم، ويعمل على إرساء القواعد لحكومة يكون اعتمادها الاول والاخير على الاقلية الموالية له. وتدرك مثل هذه الحكومات أنها لا بقاء لها إلا فى ظل صداقة ذلك الأمير وحمايته، ولذلك فهى لا تألو جهدا للحفاظ على تلك الصداقة والحماية. بالاضافة إلى أن المدينة التى ألفت الحرية لا تخضع بسهولة إلا إلى ابنائها ومواطنيها، وهذا هو السبيل الوحيد للحفاظ عليها.

وما يؤكد ذلك ويوضحه ما وقع الإسبرطيين والرومان؛ حيث نجد أن إسبرطة استطاعت الحفاظ على سيطرتها على أثينا وطيبة، وذلك عن طريق خلق حكومتين من الاقليات فيهما، وبالرغم من ذلك فإننا نجدها أنها فقدت تلك السيطرة. اما الرومان فقد قاموا بتخريب "كابوا"



و"قرطاجنة" "،نومانتيا" وتدميرها، وذلك رغبة منهم فى الاحتفاظ بتلك المدن، فلم يخسروها . ولكنهم ارادوا الاحتفاظ باليونان بنفس الطريقة التى اتبعها الإسبرطيون؛ أى انهم تركوا لتلك المدن الحرية لتعيش فى ظل قوانينها التى اعتادوا عليها فلم ينجحوا، مما اضطرهم إلى العمل على تخريب عدد من المدن فى تلك البلاد حتى يتسنى لهم الاحتفاظ بها، حيث لم يجدوا وسيلة مضمونة لتحقيق هدفهم إلا عن طريق تجريد تلك المدن من كل شىء، وان كل من يسيطر على مدينة ألفت الحرية وتعودت عليها ولا يقوم بتدميرها، سيكون جزاؤه دماره فيها؛ حيث أنها دائما ما ستجد الحافز والدافع على العصيان والتمرد باسم الحرية.. ومهما عمل الحاكم الجديد على إلحاق المنافع الجديدة بها،فإنه لن يستطيع أن يُنسى اهلها اسم مدينتهم أو اعرافها، ولن يحدث ذلك إلا إذا مزقهم شر ممزق، وفرقهم فى ارجائها شيعا، إذ انهم سيظلون ذاكرين ما ألفوه من الاعراف ينشدونها عند كل فرصة للتخلص من الحاكم الاجنبى. وهذا ما فعلته مدينة "بيزا" ضد الفلورنسيين بعد احتلالهم لها سنوات طويلة.

اما إذا كانت المدينة أو المقاطعة قد اعتادت على حياة الخنوع للامير، وقام المحتل بالقضاء على الأمير السابق واسرته، فإننا نجد أن اهلها الذين ألفوا الطاعة، أعجز واقل شأنا من أن يوحدوا صفوفهم ويتفقوا على اختيار أمير جديد من بين صفوفهم كى يستعيد ارضهم السليبة. يضاف إلى ذلك انهم لم يتعودوا على العيش فى ظل الحرية وتحت رايتها، وبالتالى نجدهم بطيئين فى العصيان والتمرد على الحاكم الجديد، الأمر الذى من السهل على الحاكم أن يكسبهم ويضمهم إلى صفه بسهولة ويسر، وان يوطد اقدامه فى ربوعهم. اما الجمهورياتفإنها تتميز بالحيوية الشديدة، والكراهية التى لا حدود لها لذلك الحاكم



المحتل، بالاضافة إلى الرغبة العنيفة التى تنتابهم للثأر منه. ولا يستطيع اهلها أن ينحوا ذكرى حريتهم المجيدة السابقة جانبا، ولذلك فإن على الحاكم المحتل - حتى يضمن السيطرة عليها وخضوع اهلها له - تدميرها تماما، أو الاقامة فيها حتى يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة ما ينشأ من قلاقل واضطرابات والقضاء عليها.

الممالك المحتلة حديثاً
بقوة السلاح وبالقدرة والكفاءة

اذا كنا فى الحديث عن الممتلكات الجديدة بالنسبة إلى الأمير أو إلى الدولة قد جئنا بامثلة وشواهد فى منتهى العظمة، فلا يجب أن تأخذ البعض منا الدهشة، وما ذلك إلا لأن الناس دائما ما يخطون فى الطريق التى سار عليها السابقون، ويعملون على تقليد اعمالهم. ولما كان الإنسان عاجزا عن اللحاق بمن سبقوه تماما، وكذلك لا يستطيع تقليدهم بطريقة مُثلى، فعلى العاجز أن يسير دائما فى الطريق التى خطا فيها من سبقه من العظماء، وان يسير على نهج الممتازين دون غيرهم، حتى إذا عجز عن الوصول إلى عظمتهم،فإنه قد يتمكن - على الاقل - من الحصول على بعض ما فيها من أثر أو لون وهو فى هذه الحال يشبه المتربصين من قاذفى السهام، عندما يدركون أن الهدف الذى يريدون اصابته ابعد من مدى مرماهم، إذ انهم يعرفون تماما هذا المدى، وبالتالى فهم يستهدفون نقطة أعلى بكثير من تلك التى يريدون اصابتها، لا لانهم يريدون الوصول بالسهم إلى ذلك الارتفاع، بل أملاً منهم فى أن يؤدى هذا الهدف إلى اصابة النقطة التى يريدون إصابتها.

ولهذا فإننا نقول أنه بالنسبة إلى تلك الممالك الجديدة، حيث يوجد أمير جديد، تتوقف سهولة السيطرة عليها أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة. ولما كان وصول أى شخص عادى إلى



مرتبة الإمارة يفترض فيه وجود الكفاءة العالية أو الحظ الحسن، فقد يبدو أن أيا من هذين الأمرين سيخفف جزئيا من المشاكل الكثيرة، ومع ذلك فقد برهن الذين لا يعتمدون كثيرا على الحظ الحسن على الحفاظ على ممتلكاتهم أكثر من غيرهم. وقد يخفف من هذه المشاكل اضطرار الحاكم الجديد إلى الإقامة شخصيا فى ممتلكاته الجديدة، وذلك نظرا إلى عدم وجود من يقوم مقامه.

واذا انتقلنا بالحديث إلى أولئك الذين أصبحوا أمراء بمواهبهم الشخصية وكفاءتهم - لا بحسن حظهم - فإننا نعتبر اعظمهم وأكفأهم "موسى عليه السلام" و"كورش" و"رومولوس" و"ثيزويوس" ومن هو على شاكلتهم وسار على نهجهم.

وبالرغم من وجوب تجنب الحديث عن "موسى عليه السلام"، بالنظر إلى أنه كان مجرد منفذ لاوامر الله،فإنه يستحق كل التقدير والاعجاب بالنسبة إلى قداسته التى جعلته أهلاً للحديث مع الله. اما بالنسبة لـ"كورش" وغيره، من الذين أنشأوا الممالك واقاموها وسيطروا عليها،فإنهم - بلا شك - يستحقون كل الاعجاب والتقدير، فنحن إذا ما حققنا فى اعمالهم واساليبهم فى سبيل تحقيق هدفهم، فإننا لا نجد هناك اختلافا كبيرا بينها وبين اعمال "موسى عليه السلام" واساليبه، بالرغم من اعتماد "موسى عليه السلام" على سيد عظيم يقف وراءه هو الله. ونحن إذا ما نظرنا بامعان إلى حياتهم ومآثرهم، يتبين لنا بوضوح انهم لا يدينون باى شىء سوى بالفرص التى أتاحت لهم مادة خصبة استطاعوا تصويرها بكل كفاءة على الشكل الذى رأوه مناسبا لهم، ولو لم تتح لهم هذه الفرص لضاعت مواهبهم هباء، ولو أن هذه المواهب ما كانت من صفاتهم وخصائصهم لضاعت هذه الفرص دون أن ينتهزها أو يغتنمها احد.

وهكذا من الضرورى أن يكون شعب إسرائيل مضطهدا من المصريين الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب حتى تكون لديهم الرغبة فى اتباعهم "موسى عليه السلام" للنجاة من العبودية والذل، أيضاً كان من الضرورى أن يعجز "زومولوس" عن البقاء فى "ألب" وان يتعرض للعراء عند ولادته، حتى يستطيع أن يصبح ملكا على روما، وان يؤسس لشعب فيها، وكان من الضرورى أن يجد "كورش" الفرس ثائرين على امبراطورية الماديين، وان يرى هؤلاء ضعفاء قد حولهم السلام الطويل إلى مخنثين. ولو لم يكن الأثينيون متفرقين متمزقين، ما كان باستطاعة "ثيزيوس" أن يظهر كفاءاته. وهكذا استغل هؤلاء الفرص إلى اتيحت لهم احسن استغلال، وتمكنوا بفضل مواهبهم العظيمة من الاستفادة منها لتمجيد بلادهم، ومضاعفة مآثرها ومفاخرها.

ومثل هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى تلك المرتبة عن طريق كفاءاتهم وقدراتهم العالية يحصلون على ممالكهم بعد جهد شاق، حيث تواجههم مشاكل وقلاقل كثيرة، ولكنهم يحتفظون بها بسهولة. وتعود أسباب تلك المشاكل والصعوبات التى يلقونها فى مرحلة التأسيس جزئيا إلى الشرائع والانظمة والقوانين التى من الواجب عليهم وضعها بدلا من التى كانت قائمة قبل ذلك، حتى يتمكنوا من ترسيخ اقدامهم وتوطيد دعائم حكمهم.

وتعتبر اقامة نظام جديد للحاكم اصعب خطوة فى سبيل تنفيذ اهدافهم وتحقيقها، فاعداء المصالح دائما هم أولئك الذين كانوا يستفيدون من النظام القديم، وعن طريقه استطاعوا تحقيق اهدافهم، كما يجد انصاره الخائرى الهمة من الذين ينتفعون من النظام الجديد، وهذا الشعف الذى يتميز به انصاره إنما يرجع إلى خوفهم من اعدائهم الذين يتمتعون بحماية القانون. بالاضافة إلى ما يتميز به بنو البشر من

شك فى كل ما هو جديد، إذ أن الإنسان ـ عموما ـ لا يؤمن بالجديد إلا بعد أن يتيقن من مدى استفادته منه، وبالتالى يكون الوضع كالآتى:

يأتى مصلح جديد فيواجه بخصومه الممتلئين بحماسة المواطنين، محاولين النيل منه، بينما يتوارى عنه انصاره، واذا دافعوا عنه يكون دفاعهم خائرا ضعيفا، وبالتالى يجد نفسه فى وسط دوامة هائلة من المشاكل والقلاقل، ويتعرض إلى خطر عظيم.

وينبغى علينا ـ إذا اردنا أن نحقق هذه المسألة تحقيقا دقيقا ـ أن نفحص ونتبين ما إذا كان هؤلاء المجددون مستقلين، أى انهم من الكفاءة والمهارة بحيث يصلون إلى اهدافهم دون مساعدة من احد، أو انهم يعتمدون على غيرهم، وهذا يعنى، هل يتحتم عليهم أن يرجوا غيرهم، أو انهم قادرون على فرض ارادتهم بالقوة؟ اما بالنسبة إلى الحالة الاوليفإنهم يفشلون ولا يستطيعون أن يصلوا إلى مرادهم الذى يبغونه واهدافهم التى يسعون إلى تحقيقها، واذا استطاعوا الاعتماد على انفسهم وتمكنوا من استخدام القوة،فإنه يندر أن يلحق بهم الفشل. وبذلك تثبت الايام أن الانبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الانبياء غير المسلحين. وبالاضافة إلى ما ذكرناه، فإن طبيعة الشعوب مختلفة من شعب إلى اخر، وقد يكون من السهل اقناعها بامر من الامور، ولكن من العسير والشاق ابقاءها على هذا الاقتناع، وعندما تصل الامور إلى هذا الحدفإنه يصبح من الضرورى فرض الامور عليها بكل قوة ممكنة. ولو أن "موسى عليه السلام" و"كورش" و"ثيزويوسط" و"رومولوس" كانوا غير مسلحين، لفشلوا فى ارغام الناس على احترام الشرائع التى سنوها.

وقد رأينا فى عصرنا الحاضر "فراجيرو لاموسافونا رولا" يجنى الفشل الذريع فى قوانينه الجديدة، وذلك عندما بدأت الجماهير تكفر به، حيث لم تتوافر لديه تلك الوسائل التى تمكنه من الاحتفاظ بأولئك



الذين آمنوا به بسرعة، كذلك لم يستطع ارغام الكافرين به إلى الايمان. فرجال مثل هؤلاء يواجهون بصعوبات بالغة ومشاكل كثيرة فى شق طريقهم، إذ انهم يواجهون الاخطار التى تهددهم وتعمل على سحقهم، واذا تيسر لهم القضاء عليها، وعمل الناس على تبجيلهم وتوقيرهم،فإنهم يظلون اقوياء، لا يستطيع أحد الحاق الاذى أو الضرر بهم.

وهناك مثال آخر يمكن اتخاذه كنموذج لجميع هذه الحالات، وهو موضوع "هيير السيراقوزى"، الذى ارتقى من بين صفوف الشعب حتى وصل إلى مرتبة الامارة فى "سيراقوزة"، دون أن يستعين باى عون آخر من الحظ سوى الفرصة السانحة بعد أن اختاره المضطهدون من السيراقوزيين زعيما وقائدا لهم. وبالاضافة إلى كفاءته، فقد تمكن من الوصول إلى مرتبة الامارة، بينما كانت شمائله فى حياته الخاصة سببا فى أن حمل البعض على القول بانه لا ينقصه شىء للحكم، إلا وجود المملكة التى يحكمها، وقام بالغاء الجيش القديم من المتطوعين واقام جيشا آخر، كذلك تخلى عن صداقاته القديمة وأقام بدلا منها صداقات جديدة.. وهكذا استطاع - بفضل افراد جيشه واصدقائه الذين اختارهم بنفسه - أن يقيم مملكته على اسس قوية، مما جعل من احتفاظه بها امرا سهلا يسيرا، ولم يلق فى سبيل توطيد دعائم مملكته أى صعوبات أو مشاكل تذكر.

الممالك التى يتم احتلالها
بمساعدة الآخرين أو بمساعدة الحظ

قد لا يجد هؤلاء الأمراء الذين يصلون إلى مرتبة الامارة - وهم من عامة الشعب - بفضل حسن حظوظهم، مشاكل وقلاقل كثيرة وهم فى طريقهم للامارة، لكنهم يلاقون مشاكل جمة وصعوبات كثيرة للحفاظ



على مـراكزهم، وفى طريق ارتقـائهم المناصب لا يواجهون اية مـصاعب، ومـا ذلك إلا لانهم يُحلقون فوقهـا، لكن متاعبهم سـرعان مـا تنبثق عندمـا تتوطد اقدامهم وتترسخ.

وتنطبق هذه الحـالة على أولئك الذين يبتـاعون الدول بالمال، أو أنهـا تأتيهم عن طريق كرم من يمنحهم اياهـا، كمـا وقع فـى اليونان وفى المدن الأيونيـة والـهليسبونت، وذلك عندمـا خلف "داريوس" امـراء فـى مثل هذه الامـاكن، ليحـافظوا عليهـا ويحكمـوهـا باسمـه، حمـاية لأمجاده وسـلامتـه. كـذلك تنطبق على الاباطرة الذين وصلوا لتلك المناصب ـ وهم من عـامـة الشعب ـ عن طريق رشوة الجيش.

ويعتمد مثل هؤلاء الاباطرة اعتمادا كليا على حسن نية من رفعوا من قدرهم، وكذلك على حسن حظهم، وكلا الامرين لا يضمن لهم الاسـتقرار والدوام، وهؤلاء ليسـوا بـالكفـاءة والمواهب حتى يحـافظوا على مـراكزهـم، وليسوا فى وضع يمكنهم من هذا الحفاظ.

ومـا لم يكن ذلك الإنسـان (الأمـيـر) الذى عـاش حيـاته كإنسـان عـادى، على قـدر كبيـر من الكفـاءة والمهارة،فإنه لن يتمكن معرفـة الطريقـة المثلى للحكم، وسـيـلاحقـه الفشـل فى ادارته للامور، ونظرا لأنه لا يملك قـوات صـديقة ومـوالية،فإنه سـيـعجز عن المحـافظة على وضعه. وعلى ذلك فإن الدول والممـالك التى تشـاد بسـرعـة، كـمـا هو شـأن جـمـيـع الامـور ذات البـدايات السـريعة، لا تتمكن من تكوين جذور عميـقة لهـا، ولذلكفإنهـا لن تستطيع مواجهة القـلاقل، وستتعرض للانهيار عند هبوب اول عـاصفـة. امـا إذا كـان الرجل الذى أصبح أميراً عبـقريا عظيمـا، عـاقـلا لبيبـا،فإنه سيحـافظ على ممتلكاته.



وسنذكر هنا مثالين على هاتين الطريقتين للوصول إلى مرتبة الامارة، ونعنى بهما الكفاءة وحسن الحظ. هذان المثلان هما "فرانسيسكو سيفوروزا" و"قيصر بورجيا"، فقد تمكن "فرانسيسكو" بالطرق السلمية ـ بالاضافة إلى كفاءاته وقدراته العظيمة ـ من الصعود من درجة مواطن عادى من عامة الشعب إلى مرتبة دوق ميلان، وتمكن من الاحتفاظ بما حصل عليه.

اما قيصر بورجيا ـ هو المعروف باسم الدوق فالنتين ـ فقد تمكن ـ عن طريق نفوذ والده ـ من الحصول على دولة. ولكن عندما انتهى النفوذ ـ وبالرغم من اتخاذه جميع التدابير اللازمة ـ ضاع ما قد حصل عليه. وكما ذكرنا سابقا أن الذى لا يضع اسسه مسبقا، قد يستطيع عن طريق مواهبه وقدراته أن يضعها لاحقا، على الرغم من المشاكل والصعوبات التى تواجهه. واذا امعنا النظر فى اعمال الدوق وسيره، فسوف نجد أن الاسس والقواعد التى وضعها لتوطيد اركان سلطته المقبلة كانت ثابتة راسخة. ونرى أنه بالاهمية بمكان بحثها، إذ لا نرى ما يفضلها من اعمال أى أمير جديد. اما إذا لم يكن النجاح حليفه، فإن هذا ليس ناجما عن خطأ منه، وانما هو سوء الحظ.

وكان البابا إليكساندر السادس قد واجه كثيرا من القلاقل والاضطرابات، وذلك عندما ظهرت رغبته واضحة فى تعظيم شأن ابنه الدوق، وهذه الصعوبات واجهته فى الماضى، وفى المستقبل كذلك، فمن الناحية الاولى رأى الباب أنه لرفع ابنه إلى مرتبة الحكام ـ فإن السبيل الوحيد إلى ذلك أن تكون الامارة من ممتلكات الكنيسة. وكان على يقين أن دوق ميلان والبنادقة، سيقفون حجر عثرة فى طريق محاولته اغتصاب بعض المدن البابوية، وذلك لأن كلا من "فايينزا" و"ديميينى"



تحت حماية البنادقة. كذلك رأى الباب أن القوات العسكرية فى إيطاليا، التى كان من الممكن أن تساعده حتى يحقق اهدافه التى يسعى اليها، هذه القوات كانت تحت سيطرة أولئك الذين كانوا يعملون على الحد من زيادة عظمة البابا، ولهذا السبب لم يستطع الاعتماد عليها، ذلك لأن اسرتى "أورسينى" و"كولونا" وأصدقاءهما كانوا يسيطرون على ذلك بالقوات العسكرية.

وقد تطلب هذا الوضع أن يعمل البابا على اثارة القلاقل والمشاكل، مما خلق حالة من الفوضى والاضطراب ببعض دول إيطاليا، وذلك حتى يمكنه بسط سيادته على بعضها. وكان ما اراده إليكساندر السادس سهلا يسيرا؛ إذ عثر على البنادقة، الذين شجعتهم بعض العوامل الأخرى على دعوة الفرنسيين إلى إيطاليا، هذه الدعوة التى لم يكتف بعدم معارضته اياها، بل تجد أنه قد ذلل لها الصعاب، بحل الملك لويس من رباطه الزوجى.

وهكذا جاء ملك فرنسا إلى إيطاليا بفضل البنادقة، بالاضافة إلى موافقة أليكساندر، ولم يكد لويس يطأ ميلان بقدمه، حتى كان البابا قد حصل منه على القوات العسكرية اللازمة حتى يحقق مشروعه الذى يسعى إليه فى رومانا. وهذا الأمر ما كان فى استطاعة أليكساندر أن يحققه لولا السمعة التى كان يتمتع بها ملك فرنسا.

وبعد أن حصل الدوق على رومانا وانتصر على كولونا، واجه عاملين اقعداه عن المضى فى طريقه، وعن الاحتفاظ بما حصل عليه، أولهما الشك الذى تسرب داخله فى قواته واخلاصها له، وثانيهما ريبته فى ارادة فرنسا، وهذا معناه أن الدوق قد خاف من أن تنقلب عليه قوات



"أورسينى" التى اعتمد عليها، والا تكتفى بالحيلولة بينه والحصول على اراض جديدة، بل تتعدى ذلك إلى اغتصاب ما احتله كما تملكه الخوف من أن ملك فرنسا يتخذ نفس الموقف.

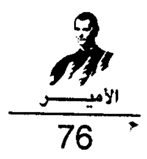
اما الأمر الذى اكد ذلك للدوق أنه بالنسبة لـ"أورسينى" عندما شرع فى مهاجمة بولونا - بعد أن اتم احتلال فايينزا - لاحظ أن قوات "أورسينى" تتردد فى الهجوم. اما بالنسبة إلى الملك، فقد تأكد من نواياه، وذلك عندما رأى أن الملك قد حال بينه وبين مشروعه الذى يرمى إلى مهاجمة تسكانيا بعد أن تمكن من اخضاعه دوقية أوربينو، وعند ذلك قرر الدوق إلا يعتمد على قوات الآخرين العسكرية.

وكانت اولى خطوات الدوق الجديدة هى العمل على اضعاف حزبى "أورسينى" و"كولونا" فى روما، وذلك باجتذاب أنصارهما إلى صفه - وكان معظمهم من السادة - وجعلهم من اتباعه، وذلك عن طريق اغداق العطايا عليهم، بالاضافة إلى تعيينهم فى المراكز التى تتفق مع رتبهم. وبذلك تمكن - خلال بضعة اشهر - من فصم ما يربطهم من ولاء إلى احزابهم القديمة، واصبح ولاؤهم له. وبعد أن تمكن الدوق من القضاء على اسرة كولونا، اخذ ينتظر سنوح الفرصة ليغتنمها للقضاء على زعماء الأورسينى.

وعندما واتته الفرصة احسن استغلالها، وذلك عندما تأكد الأورسينى اخيرا أن ارتفاع شأن الدوق وقوة الكنيسة إنما تعنى دمارهم، مما دعاهم إلى عقد مجلس للشورى فى أوربينو بمقاطعة بيروجينو. وهنا قامت الثورة فى أوربينو، وسادت الاضطرابات والقلاقل فى رومانا، مما جعل الاخطار تحيط بالدوق من كل جانب، لكنه - وبمساعدة الفرنسيين - تمكن من التغلب عليها جميعا.

وبعد أن استعاد الدوق مركزه لجأ إلى المكر والحيلة؛ فبعد أن تعلم من الماضى قرر إلا يعتمد على الفرنسيين أو غيرهم لفقدانه الثقة فيهم. واخفى الدوق هذه الحقيقة بمهارة فائقة، لدرجة أن الأورسينى سارعوا إلى مصالحته وخطب وده، حيث اوفدوا مندوبهم السنيور "باولو" الذى وقع فى الفخ الذى نصبه له الدوق، فقد تمكن الدوق من ازالة مخاوفه وشكوكه، وذلك بعد أن اغدق عليه من لطف ولين وهدايا شملت الملابس المزخرفة والنقود والخيول. وبسذاجة مفرطة من الأورسينى اقتنعوا بالعودة إلى سينيغاغليا، مما اوقعهم فريسة سهلة بين يديه، فتمكن من القضاء على هؤلاء الزعماء، وعمل على اجتذاب انصارهم إلى صفه وصداقته، الأمر الذى مكنه من وضع الاسس السليمة لتوطيد سلطانه، بعد أن تمكن من السيطرة على جميع انحاء رومانا ودوقية أوتينو، وبعد أن اكتسب محبة الاهالى وعطفهم، خاصة انهم قد بدأوا يحسون بالمنافع التى بدأت تعود عليهم فى حكمه.

والجدير بالذكر أن هذا الجزء يستحق الملاحظة والتقليد من الآخرين، فقد كانت رومانا قبل احتلاله لها خاضعة لحكام ضعفاء، جل همهم هو نهب رعاياهم، وخلق أسباب الفرقة بدلا من توحيدهم، وهكذا اصبحت تلك المقاطعة عرضة لاعمال السلب والنهب، وثارت الفوضى والقلاقل، ولكن بعد أن سيطر الدوق عليها قرر أن يقيم حكومة صالحة، تحمل الرعايا على الهدوء والطاعة والاذعان لحكمه. ولتحقيق هذا الهدف اختار السيد "ريميرو دى أوركو" ليكون ممثلا له، ومنحه السلطات الكاملة. وتمكن ذلك الرجل خلال وقت قصير - لقسوته وكفاءته - من تحقيق نجاح كبير فى احلال النظام فى المقاطعة وتوحيدها. ولكن الدوق رأى أن تلك السلطة المطلقة امر فى غير مصلحته، فعمل على اقامة



محكمة مدنية للعدل يرأسها قاض ممتاز، وتختار كل مدينة أحد محاميها. ولما كان على يقين من أن قسوة الماضى لابد أن تكون قد خلقت مشاعر الكراهية، عمل الدوق - برغبة منه - على ازالة ما لحق بعقول الشعب، كذلك عمل على اجتذابهم تماما اليه، وفى نفس الوقت ُظهر لهم أن اية قطاعات أو اعمال وحشية ارتكبت فى الماضى إنما كانت من ابتداع وزيره وليس بامر منه. وعندما واتته الفرصة امر بقطع جسده إلى شقين وتعليقهما فى ساحة مدينة سيزينا العامة، والى جانبه لوحة من الخشب وخنجر ملطخ بالدماء. مما اثار لدى الشعب خليطا من الرضى والدهشة. ولنعد الآن حيث كنا.

وعندما احس الدوق بقوته، وشعر بالطمأنينة بعد أن قضى على الاخطار التى واجهته، وذلك بعد أن اعد قواته العسكرية الخاصة، وتمكن - إلى حد كبير - من الاطاحة بالقوى المجاورة التى فى استطاعتها ايذاؤه، ورأى أنه إذا رغب فى مواصلة اعماله الاحتلالية، فلابد له من الحصول على احترام فرنسا؛ إذ ادرك أن ملك فرنسا - بعد أن اكتشف اخيرا خطيئته - لن يقدم له عونا أو مساعدة. وبدأ - تبعا لذلك - بالبحث عن تحالفات جديدة وبالتقرب إلى الفرنسيين، بمناسبة الحملة التى اعدها ملكهم لمهاجمة مملكة نابولى، لمساعدتهم ضد الاسبان الذين كانوا يحاصرون غايتيا، وكان هدفه من ذلك التأكد منهم، وكان بإمكانه أن يحقق تلك الامنية لو قدر لوالده أليكساندر أن يظل على قيد الحياة.

هذه هى الاجراءات التى قام بها الدوق ليواجه الحاضر بها. اما بالنسبة إلى المستقبل، فقد تملكه الخوف أن يبادله الرئيس الجديد



لدويلات الكنيسة العداء، وان يعمل على حرمانه من المقاطعات التى حصل عليها من أليكساندر.

ولمواجهة مثل هذا الاحتمال قرر اللجوء إلى اربع طرق: اولها، أنه عمل ـ بكل قوة ـ على القضاء على جميع الافراد الذين يمتون باى صلة إلى الاسر الحاكمة التى سلبها ممتلكاتها، وذلك ليحول بين البابا الجديد وفرصة الاعتماد على هؤلاء. وكانت الطريقة الثانية التى اتبعها أنه سعى بكل قوة للفوز بصداقة نبلاء روما حتى يتمكن ـ عن طريقهم ـ من كبح جماح البابا. اما الطريقة الثالثة فهى أنه قام بفرض اقصى ما يستطيع من قوة وسيطرة على المجمع. بينما تلخصت الطريقة الرابعة فى اكتساب اكبر قدر ممكن من القوة فى حياة والده البابا، حتى يتمكن من المقاومة وحيدا عند اول هجوم بعد وفاة والده.

وقد تمكن الدوق ـ عند وفاة أليكساندر ـ من تحقيق ثلاثة من هذه الاهداف، بينما كان الهدف الرابع فى طريقه للتحقيق، إذ نجد أنه تمكن من القضاء على اكبر عدد من الأمراء المخلوعين، ولم ينج منهم إلا عدد قليل. واستطاع اجتذاب نبلاء روما إلى صفه، وسيطر سيطرة عظيمة على المجمع. اما بالنسبة إلى الممتلكات فقد خطط ليصبح سيد تسكانيا، واستطاع امتلاك بيروجيا وبيومبيتو، وكذلك فرض حمايته على بيزا. وعندما تأكد أنه لم يعد يخشى شيئا من الفرنسيين، الذين استطاع الاسبان طردهم من نابولى، بطريقة جعلتهم ـ كما حملت اعداءهم ـ على محاولة اكتساب وده وصداقته، تمكن من السيطرة على بيزا بصورة كاملة، وسرعان ما خضعت له لوكا وسينيا يدفعهما فى ذلك كرههما للبنادقة من ناحية، وخوفهما من ناحية اخرى، ولم تكن لدى البنادقة موارد كافية.



ولو أن الدوق قدر له النجاح فى ممتلكاته الجديدة، كما نجح فى ممتلكاته السابقة فى نفس السنة التى توفى فيها أليكساندر، لتمكن من تحقيق القوة والشهرة الكافيتين للحفاظ على سلطانه، دون الاعتماد على قوة الآخرين. ولكن أليكساندر مات بعد خمس سنوات فقط من امتشاق قيصر بورجيا لحسامه لاول مرة.

ووجد الدوق بقية خططه واهدافه ـ بعد أن دانت له رومانا تماما ـ متأرجحة ومعلقة فى الهواء تقبع بين جيشين قويين ومعاديين، بالاضافة إلى اعتلال صحته واصابته بامراض قاتلة. ولكنه كان لديه الشجاعة والمقدرة، وكان يحسن اختيار الاصدقاء وضمهم إلى صفه، بالاضافة إلى مقدرته الفائقة فى القضاء على الاعداء، كما أنه كان يتقن وضع القواعد والاسس التى تمكن من ارسائها فى فترة وجيزة. ولو لم يطبق عليه هذان الجيشان، ولو كانت حالته الصحية على ما يرام، لتمكن من التغلب على هذه الصعوبات.

ونستطيع أن نؤكد اعلى سلامة هذه الاسس التى وضعها من خلال الحقيقة الواقعة، وهى أن رومانا ظلت أكثر من شهر واحد خلال وجوده فى روما يعانى سكرات الموت هادئة، مما جعله يشعر بالطمأنينة، وان "باغليونى" و"فيتيلى" و"أورسينى" رغم دخولهم روما بقواتهم، لم يجدوا فيها اتباعا يثورون عليه. وكان بإمكانه أن يحول دون اختيار بابا لا يريده، أن لم نقل أن فى استطاعته تعيين البابا الذى يأتى على هواه. ولو كانت حالته الصحية على ما يرام عند موت أليكساندر، لحقق كل ما كان يسعى اليه.

وقد ابلغنى فى اليوم الذى اختير فيه البابا يوليوس الثانى، أنه ـ أى الدوق ـ كان قد اعد العدة لكل شىء قد يحدث عند وفاة والده، واعد

العلاج لكل شيء، إلا لشيء واحد لم يدر في خلده قط، ذلك الشيء هو أن يكون قريبا من الموت في نفس اليوم الذي مات فيه والده.

واذا استعرضنا جميع اعمال الدوق، فإننا لا نجد له شيئا يمكن أن يلام عليه، بل نعتبره نموذجا ومثالا يجب أن يحذو حذوه كل أولئك الذين يرتفعون إلى قمة السلطة عن طريق قوات الآخرين العسكرية وحسن حظهم. ولم يكن في إمكانه بما عرف منه من شجاعة وطموح كبيرين، أن يعمل أكثر مما عمل، ولم تحبط خططه إلا بسبب موت ابيه المفاجئ، بالاضافة إلى مرضه هو.

وعلى كل من يرى ضرورة للاحتفاظ بامارته الجديدة عن طريق تأمين نفسه وحمايتها من الاعداء، وكسب الاصدقاء، والاحتلال بالمكر والخديعة، وبسط الاحترام والتبعية على جنوده، وفرض الحب والخوف على رعاياه، والقضاء على كل ما يمكن أن يلحق به الضرر والاذى، واحلال البدع محل العادات القديمة، والاتصاف بالشدة والرأفة معا، والشهامة والتحرر، والقضاء على القوة القديمة وخلق قوة جديدة، والحفاظ على صداقة الملوك والأمراء بالشكل الذى يحملهم على طلب وده وصداقته، والعمل على تقديم المنافع والخوف من ايذائه، وعلى من يرى ضرورة للاحتفاظ بامارته الجديدة - أن يجد في اعمال هذا الرجل خير مثال يحتذى. ولعل كل ما يتهم فيه هو سوء الاختيار عند تأييده للباب يوليوس الثاني عند انتخابه، إذ كما ذكرنا سابقا، لما كان عاجزا عن اختيار البابا الذى يريد، كان في وسعه إلا يسمح مطلقا باختيار شخص للبابوية، خاصة إذا كان ذلك الشخص من الكاردينالات الذين نالتهم اساءته قبل ذلك، أو من الذين يتوجب عليه أن يخشاهم عندما يرتقون سدة البابوية، فالرجال يقدمون على اقتراف الاساءات اما بسبب الكراهية واما بسبب الخوف. وكان الكارادلة الذين



اساء إليهم كثيرين، اهمهم: "سان بييترو آد فينكولا" و"كولونا" و"سان جيورجيو" و"اسكانيو"، وانه إذا ما اختير أى من الكارادلة الآخرين إلى سدة البابوية، فإن البابا الجديد سيخشاه باستثناء الكاردينال "روهان" الفرنسى والكارادلة الاسبان، لأن الكاردينال الفرنسى يتمتع بسلطان ونفوذ كبيرين بسبب القرابة التى تربطه بملك فرنسا، اما الاسبان، فلأنهم يتمسكون بما يربطهم بالدوق من التزامات، وكان على الدوق ـ لهذه الاسباب ـ أن يختار أحد الكارادلة الاسبان، واذا عجز عن ذلك، كان عليه أن يوافق على اختيار الكاردينال "روهان" لا "سان بييترو آد فينكولا". ولاشك أنه سيكون مخطئا ابلغ الخطأ من يخيل إليه أن الشخصيات الكبيرة تنسى ـ عندما تحصل على منافع جديدة ـ الاساءة القديمة. وقد أخطأ الدوق فى هذا الاختيار. وكان ذلك الخطأ سببا فى دماره النهائى.

الذين يصلون إلى الإمارة
عن طريق النذالة

لما كان هناك سبيلان آخران للوصول إلى الامارة، لا علاقة لهما بالحظ أو الكفاءة، كان من الواجب ألا نمر بهما مرور الكرام ـ على الرغم من أن هذين السبيلين يمكننا التحدث عنهما باستفاضة لو كنا نعالج موضوع الجمهوريات. واحد هذين السبيلين يتلخص فى كيفية وصول المرء إلى مرتبة الامارة باتخاذه كل وسائل النذالة والوقاحة. اما السبيل الثانى فعن وصول أحد ابناء الشعب إلى سدة الامارة فى بلاده عن طريق تأييد مواطنيه. وسوف نسرد عن السبيل الاول مثالين، احدهما قديم والاخر معاصر، وذلك دون أن نتحدث عن مزايا هذا الاسلوب، وما ذلك إلا لاننا نعتقد بكفايتهما لاقناع كل من يرى نفسه مضطرا لتقليدهما:



رتقى "أغاتوكليس" الصقلى العرش ليصبح ملكا على سراقوسة، بالرغم من نشأته فى احط الطبقات وادناها فى البلاد؛ فقد كان ابوه يعمل فى صناعة الخزف، وتربى على حياة امتازت ببالغ الشر والفظاعة خلال جميع مراحلها. ومع ذلك فإننا نجد أن فظاعته تلك قد صاحبت حيوية فى العقل والجسم، فقد تمكن بعد انضمامه إلى المتطوعة من أن يرتقى فى مراتبها، حتى وصل إلى درجة قاضى القضاة "بريتور" فى سراقوسة. وعندما عين فى هذا المنصب، لاح امام ناظريه مرتبة الامارة، فقرر أن يصبح اميرا، وان يحافظ بالعنف والقسوة - ودون اللجوء إلى عون الآخرين - على ما اعطاه اياه الدستور، وقرر أن يصل إلى مبتغاه بالمكر والخديعة، فكان أن قرب إليه "هاميلكار" القرطاجى - الذى كان يحارب على رأس قواته فى صقلية - واسر إليه بالامر. ورسما الخطة التى عن طريقها يحقق ما يريد؛ فارسل إلى اهل سراقوسة ومجلس شيوخها يدعوهم لمقابلته للتشاور فى قضايا بالغة الاهمية بالنسبة للجمهورية. وعند اجتماعهم فى الوقت المحدد اعطى لجنوده الاشارة المتفق عليها، فقاموا بذبح جميع الشيوخ واثرياء المدينة، وبذلك تمكن من احتلال المدينة وحكمها دون أن يخشى المنازعات الداخلية. وعلى الرغم من انتصار القرطاجيين عليه مرتين ومحاصرتهم له فى مدينته،فإنه تمكن من الدفاع عنها، ثم ترك فيها جزءا من قواته للدفاع عنها، وغزا بالبقية ساحل افريقيا. واستطاع فى وقت قصير تحرير سراقوسة وانقاذها من الحصار، بل أنه ارغم القرطاجيين - بعد أن الحق بهم ضربات شديدة - على مصالحته وطلب وده، والاكتفاء بسيطرتهم على إفريقيا، متخلين بذلك عن جزيرة صقلية لـ"أغاتوكليس". وهكذا لا نجد - عند دراسة صفات هذا الرجل واعماله - ما يمكن أن يُعزى إلى الحظ،

لأنه كما ذكرنا، لم يصل إلى مرتبة الإمارة لكفاءة أو بطولات، وانما بارتقائه سلم المتطوعة، معرضا نفسه للمخاطرة وعندما وصل اليها حافظ عليها باعمال تنطوى على المشقة والاخطار والشجاعة ايضا. ونحن لا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة أو الاخلاق على من يقتل رعاياه، ويخون اصدقاءه، ويتنكر لعهوده ومواثيقه، ويتخلى عن الرحمة والدين.

وقد يصل المرء - عن طريق هذه الوسائل - إلى السلطان، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد ولو اننا نظرنا إلى فضائل "أغاتوكليس"، التى تتمثل فى مواجهة الاخطار والصعاب والتغلب عليها، وقوة معنوياته التى تمكنه من تذليل العقبات، لما وجدنا سببا يدعونا إلى وضعه فى مكانة اقل من تلك التى يحتلها الزعماء المشهورون. ومن جهة أخرى فإن فظاعته البربرية، وتجرده من المشاعر الإنسانية، بالاضافة إلى مظالمه، لا تسمح لنا كلها باعتباره واحدا من الرجال المشهورين.

وفى ايامنا هذه، وفى عهد البابا أليكساندر السادس، نشأ "أوليفيروتو دافيرمو" يتيم الاب، وكان تحت رعاية خاله "جيوفانى فوغليانى"، الذى أنشأه حتى يكون جنديا منذ حداثته تحت قيادة "باولو فيتلى"، لأنه إذا ما تدرب فى تلك المدرسة الصارمة، حصل على مركز عسكرى ممتاز. وبعد أن مات "باولو"، حارب الشاب تحت قيادة اخيه "فيتيلوزو". وتمكن بعد وقت قصير - بفضل ذكائه وحيويته وشجاعته - من أن يحتل مكانا بارزا بين قادة القوات المحاربة. ولكنه رأى أنه من المهانة لنفسه ولقدراته أن يظل تحت قيادة الآخرين، فقرر احتلال مدينة فيرمو، وذلك بمساعدة بعض ابناء المدينة الذين كانوا يفضلون العبودية والذل على الحرية، وبتأييد "فيتلى". وكان أن كتب إلى خاله "جيوفانى" ليعبر له عن محبته واشواقه لرؤياه ورؤية مدينته، وعن الرغبة التى تملكته لتفقد ممتلكاته، بعد أن غاب عنها فترة طويلة. واضاف

فى نهاية رسالته أنه بالنظر لما واجهه من متاعب ومصاعب للوصول إلى مراتب الشرف، ورغبة منه فى أن يرى مواطنوه أنه لم يضع وقته عبثا وهباء،فإنه يأمل أن يأتى إلى المدينة بصورة تنطق بالمجد والعظمة، ويرافقه نحو مائة فارس من اصدقائه واتباعه. ورجا خاله أن يصدر اوامره بان يكون استقبال اهل فيرمو له استقبالا ينطوى على التكريم والتبجيل، وذلك لأن مثل هذا الاستقبال لا يعبر فقط عن حفاوتهم به - أى بـ"أوليفيروتو" - بل عن تكريمهم له، أى "جيوفانى" الذى نشأ فى كنفه ورعايته.

وعندما وصلت تلك الرسالة لم يتقاعس "جيوفانى" عن الاحتفاء بابن اخته، وحمل اهل مدينته على استقباله وتكريمه، ثم استضافه فى منزله .وكان أن انتظر "أوليفيروتو" بضعة ايام حتى اعد خطته الماكرة الشريرة، حيث دعا خاله "جيوفانى" وجميع البارزين من رجال فيرمو إلى وليمة كبرى، وبعد أن انتهى العشاء وما يعقبه من احتفاء فى مثل هذه الولائم، افتتح "أوليفيروتو" - بكياسة - بعض المناقشات المهمة، وتحدث عن عظمة البابا أليكساندر وولده وعن مشاريعهما. وعندما بدأ "جيوفانى" بالرد عليه، نهض من فوره على قدميه قائلاً: "يجب أن نبحث هذه المواضيع فى خلوة ,وبعد أن انتهت المجزرة امتطى "أوليفيروتو" صهوة جواده، ومر بشوارع البلدة وحاصر دار قاضى القضاة، الأمر الذى يجعل الجميع يعملون على طاعته خوفا منه، وتم تأليف حكومة جديدة نصب أميراً عليها وبعد أن تم له القضاء على جميع من يخشى شرهم وبأسهم إذ لم يكونوا راضين عنه، احاط نفسه بمجموعة جديدة من المدنيين والعسكريين، لدرجة أنه فى السنة التى تمكن فيها من حكم المقاطعة، لم يكتف بتوطيد اقدامه فى فيرمو فحسب، بل استطاع فرض مهابته على جميع جيرانه ولم يكن من السهل أو اليسير أن ينهار حكم "أغاتوكليس" لو



لم يسمح لنفسه بان تنطلى عليه خدعة قيصر بورجيا عندما اعتقل "الأورسينى" و"الفيتلى" فى سينيغاغليا، كما ذكرنا سابقا، إذ اعتقل هو أيضاً بعد سنة واحدة من المجزرة التى ارتكبها، ولقى حتفه مع "فيتيلوزو"، استاذه فى القسوة والبطش.

وقد يندهش البعض متسائلاً: كيف تمكن "أغاتوكليس"، ومن هم على شاكلته بعد تلك الحلقات الطويلة من الغش والخيانة، من أن يعيشوا فى امن واطمئنان سنوات طوالا فى بلادهم، وان يواجهوا الاعداء الخارجين دون أن يتعرضوا لمؤامرات رعاياهم، فى الوقت الذى نجد فيه اخرين كانت قسوتهم سببا من أسباب ذهاب مراكزهم؟

وللرد على ذلك فإننا نرى أن السبب فى ذلك إنما يكون ناجما عن الطريقة التى تم بها ارتكاب تلك الفظائع والجرائم، وهل إذا كانت طريقة حسنة التنفيذ أو رديئة. ونحن نطلق اسم "الطريقة الحسنة" إذا سمح لنا أن نستعمل الحسن للشر على تلك الاعمال التى دعت اليها الحاجة إلى الاستقرار وضمان الامن، والتى لم تستمر، بل استبدلت فيما بعد تدابير واعمال نافعة للرعايا. اما "الطريقة السيئة" فهى التى تشمل تلك الاعمال شديدة القسوة، التى برغم قلتها فى البداية،فإنها ما تلبث أن تزداد مع مرور الوقت. وفى إمكان الذين يتبعون الطريقة الاولى أن يصلحوا من اوضاعهم مع الله ومع من حولهم من البشر، كما فعل "أغاتوكليس"، وليس فى وسع الآخرين ولا فى إمكانهم أن يحافظوا على انفسهم واوضاعهم.

ومن هذا يتضح أن على المحتل ـ عند احتلاله لبلد ما ـ أن يتخذ ما يراه مناسبا من التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه فورا ومرة واحدة، والا يعود إلى ذلك من يوم لاخر. وبذلك يتمكن ـ عن طريق عدم تكرار

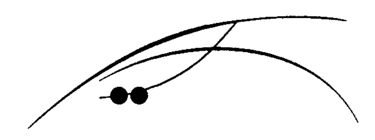


الفظائع والمجازر - من خلق الطمأنينة عند شعبه، وعن طريق المشاريع النافعة والمفيدة للرعايا يستطيع اكتسابهم إلى صفه. اما الذى يتخذ طريقا اخر، وينهج نهجا مغايرا، اما بسبب الجبن والخوف، واما بسبب المشورة الفاسدة،فإنه يضطر إلى الوقوف دائما وسيفه فى يده، إذ أنه لا يستطيع على الاطلاق الاعتماد على رعاياه، لانهم بسبب تكرار الإساءات عاجزون عن الاعتماد عليه. اذن فمن الواجب ارتكاب الإساءات مرة واحدة وبصورة جماعية، لأن ذلك يفقدها ميزة انتشار التأثير، الأمر الذى لا يجعلها تترك اثرا سيئا كبيرا. اما بالنسبة للمنافع، فيجب أن تعطى على فترات، أى قطرة قطرة، حتى يشعر الرعايا بمذاقها ويتلذذون بها.

وفوق كل هذا، فإن على الأمير أن يعيش مع رعاياه بطريقة لا يمنع فيها الحظ الحسن أو السيئ عن متابعته لسيره، فإن الحاجة التى تنشأ فى الاوقات الصعبة، تحتم على الإنسان أن يكون متأهبا لمواجهتها، والخير الذى يقوم به قد لا يفيد فى مثل تلك الحالات، لأن الرأى يسود بان الحاجة قد فرضته عليه، وفى هذه الحالة لن يكون فى وسعه أن يستخلص منه أى فائدة مهما كانت.

■ ■ ■

الإمـارات ذات
الطبيعة المختلفة



نتحدث الآن عن الحالات التى يصل فيها المواطن إلى مرتبة الامارة عن طريق تأييد رفاقه من عامة الشعب، وهذه الحالة هى التى نطلق عليها "الإمارات المدنية". وحتى يصل الإنسان إلى ذلك المنصبفإنه لا يعتمد بالكلية على الكفاءة أو الحظ، بل على المكر، يدعمه الحظ. وقد يصل المرء إليه إما عن طريق تأييد الجماهير، وإما عن طريق دعم النبلاء، إذ اننا نجد هذين الفريقين المتعاكسين فى كل مدينة ويكون نتيجة تعاكسهما رغبة الجماهير فى تجنب طغيان العظماء وجورهم، وكذلك رغبة العظماء والنبلاء فى التحكم والطغيان على الجماهير. وعن هذا التضارب تكون احدى نتائج ثلاث: اما أن تقوم حكومة مستبدة، واما حكومة حرة، واما حكومة تعمل على فرض القيود والإجازات. وتتألف الحكومة الاولى إما من الشعب وإما من النبلاء، ويتوقف قيامها على الفرص النسبية التى تتاح للفريقين المتنازعين، إذ عندما يشعر النبلاء بعجزهم وفشلهم عن مقاومة الجماهير، فإن ما يفعلونه هو أن يتحدوا فى تمجيد احدهم، ورفعه إلى مرتبة الإمارة والحكم، حتى يتمكنوا من فرض ارادتهم وتحقيق خططهم. اما الجماهيرفإنهم عندما يعجزون عن مقاومة النبلاء نجدهم يحاولون أن يخلقوا اميرا من بينهم وان يمجدوه، حتى يشعروا بالحماية فى ظل سلطانه.



ويواجه الأمير الذى يصل إلى مرتبة الامارة بمساعدة النبلاء مصاعب ومشاكل فى سبيل الحفاظ على منصبه، اكبر من تلك التى يواجهها من ساعده الشعب فى الوصول إلى ذلك المنصب، إذ أن الاول يكون محاطا بزمرة من النبلاء الذين يعتبرون انفسهم اندادا له، وبذلك يعجز عن تسيير دفة الامور والحكم وفقا لما يشتهى ويهوى. بالاضافة إلى أنه ليس فى إمكانه ارضاء كل النبلاء باتباع العدالة وعدم ايقاع الاذى والضرر بالآخرين. اما الذى يصل إلى سدة الحكم بمساعدة الجماهيرفإنه يجد نفسه دون منافس على منصبه، ولا يرى معارضة كبيرة، وفى نفس الوقت يسهل عليه ارضاء جماهير الشعب باتباع العدالة، لأن هدف الشعب دائما انبل من اهداف النبلاء، فهؤلاء يريدون أن يظلموا، واولئك كل ما يريدونه مجرد وقاية انفسهم من ظلم الآخرين. ونرى أنه يجب أن نقول أن الأمير لا يستطيع حماية نفسه من شعب ناقم وثائر عليه، وذلك بالنظر إلى كثرة عدد افراد الشعب، ولكنه يتمكن من حماية نفسه من اعداء النبلاء والعظماء، وذلك نظرا لكونهم قلة، وان أسوأ ما ينتظره الأمير من شعب ساخط عليه، أن يتخلى عنه ذلك الشعب. اما ما يخشاه ويخافه من النبلاء الساخطين فليس مجرد التخلى، وانما المعارضة الجدية الفعالة. ولما كان هؤلاء النبلاء بعيدى النظر،فإنهم دائما ما يكونون على أهبة الاستعداد لانقاذ انفسهم، ويعملون على الانضمام إلى جانب الخصم الذى يتوقعون له الغلبة والنصر. وكذلك ليس فى وسع الأمير إلا أن يعيش مع نفس الشعب. اما بالنسبة إلى النبلاء،فإنه يستطيع أن يحيا دون أن يحاط بنفس الناس منهم، إذ بإمكانه أن يضفى عليهم النبالة، أو يخلعها عنهم فى أى وقت، كما فى إمكانه أن يرفع من رتبهم أو يخفضها كما يحلو له.

وسنتحدث بشىء من التفصيل عن هذا الجزء، إذ نقول أن الواجب يُلزم الأمير ويحتم عليه معاملة النبلاء بطريقة من اثنتين، أولاهما أن يكون حكمهم بشكل يضمن اعتمادهم الكلى على عطف الأمير، وثانيتهما إلا يحكموا بهذ الطريقة. وعليك أن تكرم وتحب هؤلاء الذين يرتبطون بك، دون أن تكون لهم مطامع يسعون إلى تحقيقها. وعلى الجانب الآخر يجب أن ينظر إلى الذين يظنون انهم بمنأى عنه بصورتين مختلفتين، فمنهم من قد يدفعه افتقاره إلى الشجاعة أن يتخذ هذا الموقف، وعليك فى مثل الوضع أن تستفيد من هذا الصنف من الناس، وان تستعين بمشورتهم وآرائهم، فسوف يكرمونك فى حالة الرخاء، اما فى حالة الشدة والضيق فلا تخش منهم شيئا. اما إذا كانوا ينأون عنك بدافع اطماعهم ومطامحهم، فهذا دليل على انهم لا يفكرون إلا بانفسهم. ويجب على الأمير فى مثل تلك الحال أن يحذرهم ولا يأمن غدرهم، وان ينظر إليهم على انهم اعداء خفيون سيسعون - بكل تأكيد - على تحطيمه عند مواجهته شدة أو ضائقة.

ويجب على الأمير الذى يصل إلى سدة الحكم باختيار الشعب أن يحافظ على صداقته ولا يفرط فيها، وهذا الأمر جد يسير لأنه فى متناول يديه، إذ أن كل ما يريده الشعب هو أن يتخلص من الظلم والطغيان. اما الأمير الذى يصل إلى منصبه بمساعدة النبلاء ومعاونتهم رغم ارادة الشعب، فإن اول شىء يجب أن يفعله هو أن يحاول كسب عطف الشعب، وهذا امر سهل إذا فرض عليه حمايته. ولما كان من طبيعة الناس أن يشعروا بالدين الكبير لمن يلقاهم بالمعروف والاحسان، فى الوقت الذى لا ينتظرون منه إلا المكروه، فإن الشعب سيميل إلى هذا الأمير أكثر من الذى يختاره برضاه. وفى إمكان الأمير أن يكسب عطف



الشعب بطرق متعددة تختلف باختلاف الظروف، ولا تخضع لأى قوانين أو قواعد، ولذلك فمن الواجب أن نتجاوزها. وفى الختام فإننا نقول أن من المهم والضرورى لكل أمير أن يكسب صداقة شعبه، اما إذا حدث عكس ذلك، فلن يجد الأمير أى ملجأ أو معين له فى اوقات الشدة والازمات.

وقد استطاع نابيس - أمير إسبرطة - أن يصمد امام الحصار الذى اشتركت فيه بلاد اليونان جميعا، وان يحافظ على مركزه. وعند زوال الخطر اكتفى بالاطمئنان إلى بعض الاشخاص. ولو كان الشعب معاديا وكارها له، لقلنا أن ما قام به ليس كافيا. ونحن لا نؤيد أى إنسان يعارض رأينا هذا والعمل بالمثل القائل "ان من يبنى على الشعب إنما يبنى على اساس واهٍ من الطين" إنما هذا القول قد يصدق على المواطن العادى فى حالة اعتماده على الشعب لتحريره من طغيان الاعداء وظلمهم، إذ يجد هذا المواطن نفسه وقد ضاعت احلامه، كما حدث لـ"فراشى" فى روما، وللسيد "جيورجيو سكالى" فى فلورنسا. اما إذا كان المواطن الذى أن يضع اعتماده على هذا الاساس أميراً يستطيع أن يقوم باعباء الحكم وتكون الشجاعة احدى صفاته، ولديه القدرة على بعث الحيوية عند جماهير الشعب، فإن هذا الأمير لا يعيش مخدوعا بشعبه، وسوف يتأكد أنه قد اقام قواعده على اسس سليمة وقوية.

وقد تصبح هذه الإمارات فى خطر، وذلك عندما يتحول الحاكم من مركز الحاكم المدنى إلى وضع الحاكم المستبد الطاغية، إما مباشرة وإما عن طريق القضاة. وفى الحالة الثانية فإن وضع الأمراء ومراكزهم يصبح تحت رحمة هؤلاء المواطنين الذين اختارهم بنفسه ليصبحوا قضاة، حيث يستطيع هؤلاء - فى اوقات الشدة - وبسهولة شديدة أن يخلعوا الأمراء

من مناصبهم، وذلك إما بالعمل ضدهم، وإما عن طريق عصيان اوامرهم. وعند وصول الأمر إلى هذا الحد فإن الأمراء لا يمكنهم الامساك بزمام السلطة المطلقة بايديهم، وبذلك يكون الأمير - فى الاوقات الصعبة - مفتقرا إلى من يستطيع الاعتماد عليهم، ولا يستطيع أن يقيم خططه ومشاريعه على ما يراه فى اوقات السلم، عندما يكون الرعايا فى حاجة إلى الدولة، إذ أن الإنسان - أى إنسان - فى مثل هذه الحالات يغدق الوعود ويعلن أنه على استعداد للدفاع عن الأمير حتى الموت، عندما يكون الموت بعيدا. اما عند الشدة والضيق، وعندما تكون الدولة فى حاجة إلى مواطنيها، فإن الأمير لن يجد إلا القليلين.

ولا جدال فى أن هذه التجربة بالغة الخطورة، حيث أنها لا تقع إلا مرة واحدة. ولذلك فإن الأمير العاقل سيبحث عن الطرق والسبل التى تجعل المواطنين يشعرون فى كل وقت وفى جميع الاوضاع الممكنة بحاجتهم إلى حكومته، وبالتالى يدينون له دائما بالاخلاص والولاء.

●●

لم يعد امامنا إلا أن نتحدث عن الإمارات الكنسية، بالنظر إلى أن المتاعب والاضطرابات فيها تنشأ قبل احتلالها. واحتلال هذه الإمارات يتم إما عن طريق الكفاءة الشخصية للأمير، وإما عن طريق الحظ. اما المحافظة عليها فلا تعتمد على هذين العاملين، وذلك لانها تخضع لتقاليد واعراف دينية عريقة راسخة، هى من القوة بحيث تبقى على سلطان أمرائها، وذلك مهما كانت الطريقة التى يتبعونها فى ادارة شئون إماراتهم، فهؤلاء الأمراء - دون غيرهم - هم الذين يملكون دولاً لا يحتاجون إلى الدفاع عنها، ويكون لهم رعايا لا يحكمونهم. ونجد أن



ممالكهم - رغم عدم وجود وسائل للدفاع عنها - فإنها لا تضيع منهم، وكذلك نجد رعاياهم رغم شعورهم بانهم لا يحكمون،فإنهم لا يكرهون ذلك. وهم لا يفكرون فى الابتعاد عنهم، وحتى أن فكروا فى ذلكفإنهم لا يستطيعون. ولما كانت أسباب قوة هذه الإمارات رفيعة، ولا يستطيع العقل البشرى أن يتمكن من الوصول اليها، فسوف لا نخوض فى الحديث عنها، إذ أن كون الله هو الذى يحافظ عليها، يكون من الحماقة البحث فيها. ومع ذلك، فقد طرح أحد سؤالا يقول: كيف استطاعت الكنيسة أن تصل إلى مثل هذه القوة الزمنية العظيمة، فى حين كان الزعماء الايطاليون قبل عهد البابا أليكساندر السادس، يستوى فى ذلك الاقوياء والضعفاء، الذين يشتملون على كل سيد أو نبيل، مهما كان شأنه ضئيلا، لا يضعون فى اعتبارهم ذلك السلطان الزمنى، واضحت الان قادرة على ارهاب ملك فرنسا وارغامه على الخروج من إيطاليا، وكذلك على تحطيم البنادقة وتدميرهم؟ وبالرغم من أن اجابة هذا السؤال معروفة للجميع،فإننى اعتقد أنه ليس من نافلة القول تكراره والتذكير به.

كانت إيطاليا - قبل مجىء شارل ملك فرنسا - تخضع لحكم البابا وملك نابولى والبنادقة ودوق ميلان والفلورنسيين. وكان هناك امران يجب على هؤلاء الزعماء أن يهتموا بهما، أولهما عدم تمكين أى اجنبى من دخول إيطاليا بقوة السلاح. وثانيهما الحيلولة دون قدرة أى من الحكومات القائمة وتوسيع حدودها. وكان من اللازم أن تكون الرقابة موجهة بصفة خاصة إلى البابا والبنادقة. وقد تطلب الوقوف فى وجه البنادقة وكبح جماحهم تحالف جميع الزعماء الآخرين بالشكل الذى حدث عند الدفاع عن فيرارا. وللوقوف فى وجه البابا كان عليهم أن يستخدموا نبلاء روما. وكان هؤلاء النبلاء منقسمين إلى حزبين، حزب



الأورسينى وحزب كولونا، ولما كانت المشاحنات والخصومات تقع بينهم باستمرار، بالاضافة إلى انهم كانوا دائما فى حالة تأهب واستعداد للقتال تحت سمع البابا وبصره، فقد عملوا على ابقاء البابوية ضعيفة عن فعل اى شىء، ومشلولة عن القيام باى عمل. وفى حال ظهور باباوات ـ فى بعض الاحيان ـ يتمتعون بالقوة والصلابة كالبابا سيكستوس، إلا أن قوته وطابعه لم يمكناه ابدا من التخلص من هذه الشرور. ولعل السبب فى ذلك هو قصر عمر الباباوات، إذ أنه خلال عمر البابا ـ الذى كان عشر سنوات بصورة عامة ـ لم يجد الواحد منهم أى سهولة فى القضاء على أحد الفريقين واذلاله، بل يواجه فى سبيل ذلك مشقة كبيرة يعجز عن التغلب عليها، واذا كان أحد الباباوات قد تمكن فعلا ـ فى حياته ـ من السيطرة على حزب كولونا واخضاعه، فإن البابا الجديد سيخلفه، وقد يكون خصما لحزب أورسينى، الأمر الذى يؤدى إلى عودة كولونا إلى الظهور مرة اخرى، دون أن يسمح له الوقت باخضاع الحزب المعادى له.

وهذا الأمر هو ما حمل إيطاليا على عدم احترام السلطة الزمنية التى يتمتع بها البابا. وعندما جاء أليكساندر السادس تمكن ـ خلافا لجميع الباباوات الذين ارتقوا سدة البابوية ـ من اظهار الطريقة التى يستطيع البابا أن ينتفع بها بواسطة القوة والمال، وعمل على استخدام ولده الدوق فالنتين اداة له، منتهزا فى ذلك فرصة الغزو الفرنسى، فقام بجميع الاعمال التى شرحناها سابقا عن الحديث عن اعمال الدوق. وبالرغم من أن هدف أليكساندر السادس من ذلك لم يكن تعظيم الكنيسة ورفع شأنها بل الدوق، فإن الاعمال التى قام بها ادت إلى تعظيم شأن الكنيسة التى اصبحت بعد موت الدوق وارثة جهوده. ثم جاء البابا يوليوس الذى وجد أن الكنيسة قوية وتحتل جميع رومانا، ويخضع جميع نبلاء روما



لسيطرتها بعد أن قُضى على الحزبين المتنافسين، بفضل شدة أليكساندر وقوته، وبذلك وجد يوليوس الطريق ممهداً ومعبداً امامه لجمع الثروة، واتخذ فى سبيل ذلك اساليب لم تكن تستخدم قبل عهد أليكساندر. ولم يكتف باتباع هذه الطرق، بل عمل على مضاعفتها وصمم على السيطرة على بولونا واخضاعها، وكذلك اخضاع البنادقة وطرد الفرنسيين من إيطاليا. وقد حالفه التوفيق فى تحقيق كل اهدافه. ولا جدال فى أنه يستحق جزيل الشكر والتقدير، لأنه قام بعمل كل ما فى وسعه لزيادة قوة الكنيسة، لا زيادة قوة أى إنسان فرد. وعمل على ابقاء حزبى كولونا وأورسينى على الوضع الذى كانا عليه عند مجيئه. وبالرغم من ظهور بعض زعماء الحزبين الذين كانوا يطمحون إلى تبديل ذلك الوضع، إلا أنه كان هناك عاملان اشتركا فى ابقائهم على حالهم ومحافظتهم على هدوئهم، أولهما عظمة الكنيسة وارتفاع شأنها، وثانيهما عدم وجود كرادلة فيهم، هؤلاء الكرادلة الذين كانوا ـ دائماً ـ سببا للمنازعات التى قامت بين الحزبين وهكذا تؤدى مطامح الاحبار ومطامعهم إلى الخلافات والمنازعات بين النبلاء. وعندما جاء البابا ليو العاشر وجد أن الكنيسة فى وضع قوى للغاية. ومن المأمول أنه سيكمل الطريق الذى بدأه اسلافه.

●●

بعد أن بحثنا باستفاضة فى الصفات التى يجب أن تكون متوافرة فى الامارات التى جعلناها موضوعا للدراسة التى بين ايدينا، وبعد أن اوضحنا ـ جزئياً ـ عوامل تقدمها أو فشلها، وكذلك بينا الاساليب التى لجأ اليها الكثيرون للحصول على مثل تلك الدول والإمارات، نرى أنه من الواجب أن نبحث بحثا عاما فى الاساليب ـ سواء دفاعية أو هجومية ـ التى يمكن أن تستعمل فى أى منها. وقد اكدنا قبل ذلك أنه من الضرورى



واللازم أن يقوم الأمير بإرساء قواعد إمارته بصورة طيبة، والا فإن امره ومصيره إلى الدمار والخراب. ولعله من خير هذه القواعد بالنسبة لجميع الدول - القديمة والحديثة على السواء - أن يكون لها قوانين جيدة واسلحة قوية، والقوانين توجد حيث تتوافر الاسلحة القوية، ولذلك فلن نتحدث هنا عن القوانين، وبالتالى سيقتصر حديثنا على الاسلحة.

وما نود أن نقوله أن القوات العسكرية التى يعتمد عليها الأمير فى الدفاع عن إمارته، اما أن تكون خاصة به واما مرتزقة، وإما رديفا وإما مزيجا. اما المرتزقة والرديففإنها قوات غير مجدية، بل إن وجودها ينطوى على الخطورة الشديدة، وبالتالى فإن الأمير الذى يعتمد عليها فى دعم دولته لن يشعر قط بالاستقرار أو الطمأنينة، حيث أن هذه القوات كثيرا ما تكون مجزأة، وطموحة، لا تعرف النظام، ولا عهد لها أو امان، فهى لا تحفظ العهود والمواثيق، تتظاهر بالشجاعة امام الاصدقاء، وتتصف بالجبن امام الاعداء، وهى قوات لا تخاف الله، ولا تحفظ الذمم مع الناس ولا ترعاها، ولذلك فإن الأمير الذى يعتمد على مثل هذه القوات قد يؤجل دماره المحتوم، إذا تأجل الهجوم الذى يتعرض له ويكون خاسرا فى حالتى السلم والحرب على السواء، ففى ايام الحرب يكون النهب من جانب العدو، ويتعرض فى ايام السلم إلى النهب من هذه القوات. ونرى أن السبب فى هذا هو افتقار هؤلاء المرتزقة إلى الولاء، أو إلى أى حافز آخر من الحب يحثهم على الصمود والوقوف فى وجه الاعداء فى ميدان القتال، باستثناء الراتب الذى يتقاضونه، وهو اقل شأنا وقيمة من أن يحملهم على التضحية بارواحهم فى سبيل الأمير. والحالة الوحيدة التى يكونون فيها على استعداد تام ليصبحوا جنوداً للأمير، ألا يثير حربا أو يشترك فى حرب، اما إذا جاء القتال،فإنهم إما



أن يعمدوا إلى الهرب، وإما أن يرفضوا الحرب كلية. ولا نرى اننا فى حاجة إلى سرد الامثال، إذ أن هذا الدمار الذى لحق بإيطاليا، والذى نشهده الآن، إنما يرجع سببه إلى شىء واحد، ألا وهو اعتمادها ـ على مدى سنوات طويلة ـ على جيوش المرتزقة. ولا جدال فى أن هذه الجيوش قد ساعدت بعض الافراد حتى يصلوا إلى الحكم، وابدت من الشجاعة ما يحسب لها، ولكن هذا فى اطار مقارنتها ببعضها البعض. ولكن عندما جاء الغزاة الاجانب لم يعد لهذه القوات من جدوى أو فائدة. وهكذا تمكن الملك شارل الفرنسى من احتلال إيطاليا دون مقاومة تذكر.

وسوف نتحدث هنا بشىء من التفصيل عن عيوب ومثالب تلك الجيوش، فمن حيث قادتها فإنهم يكونون فى حال من حالين لا ثالث لهما؛ فإما أن يكونوا رجالا فى منتهى الكفاءة، وإما فى منتهى العجز، فإذا كانوا من الأكفاء فعلا، فليس فى وسع الأمير أن يعتمد عليهم، لانهم سيعملون دائما على تحقيق امجادهم ومآربهم، وذلك إما عن طريق اضطهاد الأمير نفسه، وإما عن طريق اضطهاد الآخرين، عاصين اوامر اميرهم. اما إذا كان هؤلاء القواد عاجزين، فسوف يكونون سببا مباشرا فى دمار الأمير.

واذا ما قيل فى معرض الرد على رأينا هذا أن هذا هو مآل ومصير كل من يملك قوات مسلحة، سواء كانت من المرتزقة ام لم تكن، أجبنا عن ذلك بان الجيوش يستخدمها عادة إما الأمير أو الحكومة الجمهورية. وعلى الأمير أن يتولى القيادة بنفسه، كما أن على الجمهورية أن تختار أحد مواطنيها لتولى هذه القيادة. فإذا ما عجز عن اثبات كفاءته، فيجب استبداله على الفور. اما إذا اظهر جدارته ومهارته فى القيادة، فعلى الجمهورية أن تحدد سلطاته فى اطار القانون ونطاقه. وقد تعلمنا من

التجارب أن الأمراء، وكذلك الجمهوريات المسلحة، هم الذين يحققون التقدم، بينما لا ينتج عن المرتزقة إلا الأذى والضرر. كذلك علمتنا التجارب أن الجمهوريات المسلحة تكون اقل اذعانا لحكم أحد ابنائها من الجمهورية التى تعتمد على الجيوش الاجنبية.

وبالنظر إلى روما وإسبرطة نجد أنهما تمتعتا بالحرية قرونا عديدة، وكانت لهما جيوشهما القوية. كذلك تتمتع المدن السويسرية - المسلحة تسليحا جيدا - بالحرية ايضا. ولعل خير مثال نضربه على من اعتمد على قوات المرتزقة ولحق بهم من ضرر، ما حدث لاهل قرطاجة، حيث اضطهدهم الجنود المرتزقة الذين كانوا يعتمدون عليهم، وذلك بعد أن انتهت الحرب الاولى مع الرومان، بالرغم من وجود قرطاجى فى قيادتها. وفى اليونان اختار اهل طيبة - بعد وفاة إيبا مينونداس - فيليب المقدونى قائدا لقواتهم العسكرية، الذى ما كان منه بعد أن حقق انتصاره الاول إلا أن حرمهم من حريتهم. وكذلك استأجر اهل ميلان - بعد موت الدوق فيليب - فرانسيسكو سفورزا لمحاربة البنادقة، ولكنه بعد أن انتصر عليهم فى معركة سرافاجيو تحالف مع البنادقة على اهل ميلان. وكان والد سفورزا - وهو جندى أيضاً - يعمل فى خدمة جيوفانا ملكة نابولى، نجده وقد تخلى عنها فجأة، تاركا إياها دون اية قوة عسكرية تعتمد عليها، مما اجبرها إلى الارتماء فى احضان ملك الأراغوان. واذا كان البنادقة والفلورنسيون قد استطاعوا - بواسطة قوات كهذه فى الماضى - أن يوسعوا ممتلكاتهم، واذا كان قادة هذه القوات دافعوا عن الأمراء القائمين على الحكم، ولم يغتصبوا الإمارة، فإننا نقول أن الحظ - فى هذه الناحية - قد خدم الفلورنسيين، لأن القادة الذين كان يتحتم عليهم - أى الأمراء - أن يخشوهم، لم يحاولوا السيطرة والبعض منهم الذين عملوا على ذلك،



نجد انهم قوبلوا بمقاومة شديدة، بينما وجه البعض الآخر مطامحه ومطامعه فى اتجاه اخر. وكان السيرجون هوكوود هو القائد الذى لم يحاول السيطرة، مع الوضع فى الاعتبار أن اخلاصه لم يظهر، لأنه لم ينتصر. فى حين أن الجميع يعترفون بانه لو حاول فرض سيطرته، لوقع الفلورنسيون تحت رحمته. اما سفورزا فقد واجهته ـ دائما ـ معارضة قوية من "البراكيشى". ونجد أن هذه المعارضة هى التى استطاعت كبح جماحه، بينما وجه فرانسيسكو مطامحه إلى لومبارديا، وبراشيو إلى الكنيسة ومملكة نابولى.

واذا ما استعرضنا ما وقع قبل فترة وجيزة، نجد أن الفلورنسيين قد اختاروا باولو فيتيلى قائدا لقواتهم العسكرية، وهو رجل يتمتع بالفراسة وحسن تقدير الامور، فارتفع عن طريقهما من مركز متواضع، إلى اعلى الدرجات، واذا كان باولو قد سيطر على بيزا، فما كان فى وسع أى إنسان أن ينكر حاجة الفلورنسيين إلى صداقته؛ إذ أنه لو اضحى فى خدمة اعدائهم، فلن تتوافر لهم السبل لمقاومته، ولو استأجروه لاصبحوا مجبرين على طاعته. اما إذا نظرنا إلى البنادقة وما احرزوه من تقدم، لتبين لنا انهم خطوا بثبات وطمأنينة ونجاح، وذلك لانهم كانوا يعتمدون على قواتهم فى الحروب التى خاضوها، أى قبل أن يبدءوا فى تحقيق مشاريعهم فى البر الإيطالى، ونجد انهم حاربوا بشجاعة، معتمدين على نبلائهم وشعبهم المسلح. ولكنهم تخلوا عن هذه الفضيلة عندما شرعوا يقاتلون فى البر، واخذوا يحذون حذو الاسلوب الإيطالى المتبع، ولم يكن لديهم ما يخافونه فى بداية فتوحاتهم من قادة جيوشهم، إذ أن ممتلكاتهم لم تكن واسعة، بالاضافة إلى أن سمعتهم كانت فى منتهى العلو. ولكن بعد اتساع رقعة هذه الممتلكات ـ وخاصة بقيادة كرما غنولا ـ تبين لهم



الخطأ الذى وقعوا فيه، وادركوا أنه قد أصبح فى منتهى القوة بعد أن انتصر على دوق ميلان، ولما كانوا يعرفون أنه كان فاتر الهمة، خائر القوى، فى الحرب من اجلهم، اعتقدوا بوجوب عدم القيام بأية فتوحات جديدة تحت قيادته، على الرغم من عدم رغبتهم - أو من عجزهم - عن فصله من خدمتهم، مخافة أن يفقدوا ما حصلوا عليه، ووجدوا أن الطريقة المثلى للخلاص منه - دون أن يخسروا ما حصلوا عليه - هى اعدامه. وتولى قيادة قواتهم المسلحة بعده رجال امثال بارتولومبو دابيرغامو، وروبرتو داسان سيفيرينو، والكونت دى بيتيغاليانو. والخسارة والحاق الاذى والضرر من هؤلاء أكثر توقعا من المكسب ونجد أن هذا هو ما حدث بالفعل فى فاييلا، حيث خسروا فى يوم واحد ما كسبه البنادقة وحصلوا عليه على مدى ثمانية قرون، وذلك لأن هذه القوات غالبا ما تكون بطيئة فى الحصول على المكاسب، وسريعة ومفاجئة - إلى حد الاعجاز - فى تحقيق الخسائر. ولما كنا قد جئنا بهذه الامثلة من إيطاليا التى يتحكم فيها المرتزقة منذ سنوات طوال، فإننا سننتقل إلى الافاضة فى الحديث عنهم، حتى إذا عرفنا الاصول التى ينتمون اليها وطريقة تقدمهم، كان فى وسعنا ايجاد العلاج الناجع لمشكلاتهم.

وعلينا أن نفهم ونعى أنه فى العصور المتأخرة، عندما بدأت سلطة الامبراطورية تخبو فى إيطاليا، واخذت البابوية تتوسع فى سلطاتها الزمنية، كانت إيطاليا مجزأ إلى عدد كبير من الدول. وقامت كثير من المدن بالثورة على نبلائها الذين كانوا يستمدون سلطتهم وقوتهم من الامبراطور، وكانوا يتحكمون فى شئونها، ويخضعونها لاستعبادهم، واخذت الكنيسة - رغبة منها فى توسيع سلطاتها الزمنية - تعمل على تشجيع هذه المدن الثائرة. ووصل أحد المواطنين - فى أكثر من مدينة -



إلى منصب الإمارة. ولذلك نجد أنه عندما سقطت إيطاليا فى يد الكنيسة، وفى ايدى بعض الجمهوريات، أن رجال الدين وغيرهم من المواطنين غير متعودين على حمل السلاح، مما جعلهم يشرعون فى استئجار الاجانب كجنود يعملون فى خدمتهم.

وبالنظر إلى هذه البدعة ـ الاعتماد على قوات عسكرية اجنبية ـ نجد أن البريجو داكامو، المواطن فى رومانا، اول من ادخلها وعمل بها. وكان براشيو وسفورزا ـ اللذان اصبحا فيما بعد من حكام إيطاليا ـ من الكثيرين الذين تدربوا على يديه، وخلفهم جميع هؤلاء الذين مازالوا حتى اليوم يتولون قيادة جيوش إيطاليا، حيث اثمرت شجاعتهم غزو شارل الفرنسى إيطاليا، كذلك تعرضهما لطغيان فرناندو (الأسبانى) واذلال السويسريين. وكان النظام الذى تبناه قيادة المرتزقة وعملوا على ترسيخه وتثبيته يقوم على الرفع من شأنهم وقدرهم عن طريق الحط من قيمة المشاة. والسبب الذى جعلهم يقومون بذلك هو انهم لا بلاد لهم، ولانهم يعيشون على رواتبهم التى يتقاضونها وما يكسبونه، وهم اعجز من أن يدفعوا رواتب لعدد ضخم منهم. ولهذا فقد اقتصروا على استخدام الفرسان، الذين ـ رغم قلة عددهم ـ يلقون التكريم الزائد، ويتقاضون الرواتب الكبيرة. وقد نظموا قواتهم ـ كما ذكرنا منذ قليل ـ على التقليل من شأن جنود المشاة، والدليل على ذلك أن الجيش الذى يبلغ عدده نحوا من عشرين الف جندى لا يزيد ما فيه من المشاة على الألفين. وكذلك استخدموا كل وسيلة ممكنة لحماية انفسهم وجنودهم من المتاعب والمشقات، وعملوا على اجتناب مقاتلة بعضهم البعض فى المعارك، وان ينصب جل اهتمامهم على اخذ الاسرى طمعا فى الحصول على الفدية. وكانوا يمتنعون عن مهاجمة الحصون ليلاً، كما أن المقيمين فى الحصون

كانوا لا يهاجمون المقيمين فى الخيام فى جنح الليل، ولا يقيمون اية اسلاك شائكة أو خنادق حول معسكراتهم، ولا يخوضون غمار القتال اثناء الشتاء. وكل هذه الامور نصت عليها انظمتهم وتبنتها، كما ذكرنا، ليتجنبوا ـ عن طريقها ـ المتاعب والاخطار. وهكذا نجد انهم حطوا من شأن إيطاليا وقدرها، وألحقوا بها العبودية والانحطاط.

●●

القوات الإضافية

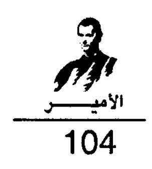
اذا وجدنا أميراً ما يتعرض للمشاكل والصعوبات التى يعجز عن مواجهتها، مما يجعله مضطرا للجوء إلى جاره القوى، ليطلب منه مساعدته والدفاع عنه بقواته العسكرية، فإن هذه القوات تسمى قوات اضافية، وهى تشبه قوات المرتزقة فى عدم جدواها. وعندما رأى البابا يوليوس ـ فى الآونة الاخيرة ـ الفشل الذريع الذى لحق بقواته المرتزقة فى مشروعه لاحتلال فيرارا، نجد أنه لجأ إلى فيرناندو ملك اسبانيا يطلب منه مساعدته بجيوشه ـ قوات ضافية وقد تكون هذه الجيوش ـ فى حد ذاتها ـ على درجة عالية من القوة والكفاءة، لكنها دائما ما تكون شديدة الخطورة على من يستعين بها. ولن نبتعد كثيرا عن النموذج الذى اوردناه، والمتعلق بالبابا يوليوس الثانى، إذ أنه مازال حديث العهد. ولا جدال أن الطريق الذى سلكه كان بعيدا جدا عن الفطنة والحنكة، حيث أن رغبته فى احتلال فيرارا قد دفعته بشدة إلى الاذعان كليا لسيطرة الاجنبى الدخيل. ولكن حسن حظه فقط خلق سببا ثالث، حال دون أن يحصد نتائج سياسته الخاطئة؛ إذ عندما هزمت قواته الاضافية فى رافينا ثار السويسريون وقاموا بطرد المنتصرين، وذلك عكس ما توقعه هو أو الاخرون. وهكذا نجا من الوقوع فى اسر الاعداء الذين عمدوا إلى



الفرار، وفى اسر قواته الاضافية التى انتصرت لا بفضل سلاحها بل بفضل سلاح غيرها. ولما كان الفلورنسيون يفتقرون إلى القوات العسكرية اللازمة لتحقيق مآربهم، نجد انهم قاموا باستئجار عشرة آلاف فرنسى لمهاجمة بيزا، وبذلك فقد عرضوا انفسهم لخطر ابلغ مما تعرضوا له فى اية فترة من فترات كفاحهم، ورغبة منه فى مقاومة جيرانه، فقد اضطر امبراطور القسطنطينية إلى ارسال عشرة آلاف جندى تركى إلى اليونان. وبعد انتهاء الحرب رفض هؤلاء العودة إلى بلادهم، فبدأت العبودية الطويلة، التى عاشها اليونان فى ظل الكفرة (كذا).

وقد يكون من سوء الفطنة والبصيرة - لمن لا يرغب فى الاحتلال - أن يستخدم هذه القوات ويعتمد عليها، إذ أنها تكون - كما اسلفنا - أكثر خطورة واقوى بأسا من المرتزقة، وذلك لأن الدمار معها غالبا ما يكون كاملا، إذ أن هذه القوات تكون متحدة، وولاؤها وطاعتها للاخرين. بينما المرتزقة - إذا تحقق لهم النصر - قد يمضى وقت طويل، قبل أن يتمكنوا - إذا حالفهم الحظ - من الحاق الاذى بالأمير، ذلك لأنهم لا يؤلفون كيانا واحدا، ولانهم يرتبطون بالأمير بوصفه المستأجر لهم، والذى يقوم بدفع رواتبهم، ولن يكون فى استطاعة شخص ثالث اختاره لقيادتهم، أن يحصل فورا على السلطة اللازمة والكافية لالحاق الاذى بالأمير. وبعبارة اخرى، فإن الخطر الاكبر والاعظم عند المرتزقة يكمن فى جبنهم وتراخيهم وترددهم فى خوض المعارك، بينما يقوم خطر القوات الاضافية فى شجاعتهم وجرأتهم.

والأمير الذى يعمل عقله، بالاضافة إلى حسن فطنته هو الذى يتجنب الاعتماد على مثل هذه القوات، بل يعتمد فقط على قواته الخاصة. وهو



يفضل أن يخسر المعارك بقواته، على أن ينتصر فيها بقوات غيره، واثقاً من أن النصر الذى يتحقق بفضل القوات الاجنبية لا يمكن أن يعتبر نصرا.

ونرى من الضرورى أن نروى هنا - على سبيل المثال - قصة قيصر بورجيا واعماله، فقد اقتحم هذا الدوق مقاطعة رومانا بقوات اضافية اجنبية تتكون فى كليتها من الفرنسيين، وتمكن - بواسطة تلك القوات - من احتلال ايمولا وفورلى. وعندما بدا له الخطر الذى يتمثل فى وجود هذه القوات لجأ إلى المرتزقة، للاعتماد عليهم، على اساس أن سياسة الاعتماد عليهم لا تنطوى على الكثير من الخطورة، واستأجر قوات الأورسينى والفيتلى. ولكنه بعد أن وجد هذه القوات صعبة المراس، ولا يؤمن جانبها، قام بالقضاء عليها واعتمد على القوات التى كونها بنفسه.

وبإلقاء نظرة على الفرق بين مكانة الدوق عندما يعتمد على القوات الفرنسية، ومن ثم على قوات الأورسينى الفيتلى، والمكانة التى وصل اليها عندما اعتمد على نفسه وعلى جنوده، تكفى - تلك النظرة - لالقاء الضوء على الفرق بين هذه القوات، حيث أن سمعته اخذت تتزايد باستمرار، ولم يضاهه أحد فى الاحترام والمكانة العالية، عندما رأى الجميع أنه قد أصبح السيد المطلق لقواته العسكرية.

وبالرغم من اننا لا نريد الابتعاد عن تلك الامثلة التى استقيناها من تاريخ إيطاليا الحديث فإننا لا ينبغى تجاهل هيرو السيراقوزى الذى سبق لنا الحديث عنه، فهذا الرجل - كما ذكرنا - اختير قائدا لجيش سراقوسة، وادرك - فور اختياره - عدم جدوى أو منفعة قواته المتطوعة التى كانت منظمة على غرار قوات المرتزقة الإيطالية، ولما كان قد فطن



أيضاً إلى الخطر فى الاحتفاظ بها أو تسريحها، لذلك اقدم على تمزيقها شر تمزيق، واخذ - بعد ذلك ذى يخوض الحروب معتمدا على قواته لا على قوات غيره. ونستعيد - أيضاً - إلى الذاكرة قصة نراها معبرة كل التعبير عما نراه من العهد القديم - التوراة - فعندما عرض داوود على شاؤول أن يمضى لمحاربة البطل الفلسطينى جوليات، قدم له شاؤول - رغبة منه فى تشجيعه - سلاحه ودروعه فقام داوود بتجربتها، ثم ما لبث أن رفض استخدامها، معتذرا بعجزه عن استعمالها فى القتال، مفضلا مواجهة اعدائه بمقلاعه وخنجره. وباختصار، فإن اسلحة الآخرين اما أن تخيب ظن من يلجأ اليها، وإما أن تحمله ما لا طاقة له به، وإما أن تشل حركته اثناء القتال. وبعد أن تمكن الملك شارل السابع - والد الملك لويس الحادى عشر - بفضل حُسن حظه وشجاعته من تخليص فرنسا من يد الانجليز، ادرك مدى الحاجة إلى التسلح بقواته العسكرية الخاصة، واقام فى مملكته نظاما للتجنيد ولقوات المشاة. وما لبث ولده الملك لويس أن قام بالغاء فرق المشاة وبدأ فى استئجار المحاربين السويسريين، وما فعله الملك لويس - فى رأينا - خطيئة وقع فيها، وما لبث أن تبعه الاخرون فى السير على نهجه، مما سبب الخطر الكبير على المملكة كما نرى الآن، حيث أن اضفاء مثل هذه الاهمية والمكانة على السويسريين فقد اضعفت من همة الجنود الفرنسيين ومعنوياتهم، خاصة أنه قام بالغاء فرق مشاتهم، واخضع محاربيهم الآخرين لمساعدة الاجانب الذين بدءوا فى الاعتقاد بعجزهم عن خوض اية معركة ما لم يكن السويسريون إلى جانبهم، وبالتالى اضحى الفرنسيون اضعف من أن يقاوموا السويسريين، واصبح الاقدام على اية مغامرة عسكرية - ما لم يكن السويسريون بجانبهم - ضربا من ضروب

المستحيل! وهكذا اصبحت جيوش فرنسا خليطا من المرتزقة ومن رجالها، وهى احسن من القوات المؤلفة كليا من المرتزقة أو من الاجانب، ولكنها ـ على الجانب الآخر ـ اضعف من القوات الوطنية الاصلية واقل ولاء.

ونرى فى هذا المثال الذى اوردناه ما يكفى، إذ لو طور النظام العسكرى الذى وضعه شارل، أو لو أنه احتفظ به على الاقل، لأصبحت فرنسا قوة عسكرية لا تقهر. ولكننا نرى أن الناس الذين يفتقرون إلى الحكمة والفطنة وحسن البصيرة كثيرا ما يقبلون على ابتكار الامور الجديدة، ونجدهم يستسيغون مذاقها من البداية، ولا يفطنون إلى ما فيها من سم زعاف فى النهاية، كما سبق أن اوضحنا.

ولا جدال فى أن الأمير الذى يعجز ـ تبعا لذلك ـ عن ادراك ما يقع فى إمارته من مشاكل ومصاعب عند وقوعها، إنسان يفتقر إلى الفطنة، وتعوزه الحكمة الصادقة. ولعل القليلين من هم على هذه الشاكلة. ونحن إذا امعنا النظر فى السبب الاول وقمنا بدراسته، من زوال الامبراطورية الرومانية، تبين لنا أنه ناتج عن استئجار روما لمتطوعة القوط؛ إذ بدأ الضعف يدب ـ منذ ذلك التاريخ ـ فى اوصال قوة روما وعظمتها، وذلك لأن القوط اخذوا يستأثرون بجميع المنافع التى تغدقها الامبراطورية على العاصمة.

واخيرا، فإن النتيجة التى نود أن نصل اليها، هى أن الأمير الذى لا يعتمد على قواته الخاصة يرتكب خطيئة لا تغتفر، إذ أنه يشعر بالطمأنينة والسلامة، وهو فى هذه الحال يعتمد ـ فقط ـ على حسن حظه، حيث إنه يفتقر إلى الاساليب الصحيحة للدفاع عن نفسه وعن



إمارته فى اوقات الازمات. وقد اقر الحكماء دائما أن ليس هناك من هو اضعف ممن يعتمد فى قوته على قوة الآخرين. وقوات الإنسان الخاصة هى تلك المكونة من مواطنيه، أو من الذين يعتمدون عليه ولا يستطيعون الاستغناء عنه. وما عدا ذلك من قوات، فهى إما أن تكون مأجورة، أو قوة اجنبية اضافية. ومن اليسير تعلم الطريقة فى تنظيم مثل هذه القوات الخاصة إذا دُرست تلك الاساليب التى اتبعها الأمراء الاربعة الذين ذكرناهم فى هذا الفصل، أو درست الطرق التى اتبعها فيليب والد الإسكندر الأكبر، أو غيره من السلاطين والجمهوريات فى تنظيم قواتها. ولا نرى اننا فى حاجة إلى التوسع فى هذه النقطة بالذات بعد أن اوردنا الامثلة المذكورة.





ما يستحقه الأمير من
المديح أو الذم



جميع الرجال ـ وخاصة الأمراء ـ الذين يصلون إلى المناصب الرفيعة يشتهرون بخصائص ومميزات معينة قد تكون سببا فى اضفاء الثناء والمديح أو اللوم عليهم، فنجد الناس ينظرون إلى أميرنا على أنه كريم متحرر، بينما يعتبره الآخر بخيلا شحيحا (وقد آثرنا أن نستخدم هذا الاصطلاح التوسكانى) وقد يعتبر احدهم ذا أريحية والاخر ذا شح وطمع، أو قاسيا متحجر القلب، والثانى رحيما وقد يعتبر الاول لا عهد له ولا امان، والثانى وافيا بوعده حافظا له، أو خائر العزيمة ضعيفا، والاخر صلبا قوى الشكيمة، أو متدينا ورعا والاخر كافرا ملحدا، وهكذا ... وكل إنسان يقر ويعترف بان من الصفات المحمودة فى الأمير أن يتصف بجميع الصفات التى ذكرناها التى ترمز إلى الخير. ولكن لما كان من الصعب ـ بل من المستحيل ـ أن يملك إنسان واحد كل هذه الصفات النبيلة نظرا للطبيعة الإنسانية التى لا تسمح بذلك، كان من الضرورى على الأمير أن يتمتع بالحصافة والفطنة، بحيث يتجنب الانزلاق فى مهاوى الفضائح المترتبة على تلك المثالب التى قد تؤدى به إلى ضياع دولته ودمارها، وان يعمل بكل الطرق والوسائل على وقاية نفسه من تلك الامور التى قد تؤدى به إلى مثل هذا الضياع. اما إذا لم يتمكن الأمير من التخلى عنها، فعليه أن يمارسها دون تشهير واذا وقع التشهير فعليه إلا يكترث بذلك بالنسبة لبعض المثالب التى يرى أنه لا سبيل له إلى



الاحتفاظ بدولته بدونها؛ إذ أن التعمق فى دراسة بعض الامور، قد يصل إلى العثور على أن بعض الاشياء التى تبدو من الفضائل، إنما تؤدى ـ إذا اتبعت ـ إلى دمار الإنسان. وعلى النقيض من ذلك، قد نجد اشياء أخرى تبدو كرذائل، لكنها تؤدى إلى زيادة شعور المرء بالطمأنينة والسعادة.

●●

السخاء.. والبخل

اذا ما استرجعنا الآن اولى الصفات التى عددناها فيما سبق، نجد أن من الواجب أن نقول أن من افضل الصفات واحسنها أن يعتبر الإنسان كريما سخيا. ومع ذلك فإننا نرى أن السخاء بالمعنى الذى يفهمه معظم الناس قد يؤدى إلى الإيذاء والضرر؛ إذ أن ممارسته، حتى يصبح من طبائع الإنسان، وبالطريقة الصحيحة لا تؤدى إلى أن يعرفه الناس بمعناه الصحيح، وبالتالى يكون الإنسان ـ الذى يكون السخاء من طبائعه وشيمه ـ عرضة للاتهام بعكس ذلك! ولذلك فعلى من يرغب فى اشتهار امره بالسخاء بين الناس إلا يتغافل عن أى نوع من العرض الذى ينطوى على التضخيم إلى اقصى الحدود، حتى أن الأمير الذى يكون هذا النوع من طبيعته يجد أن جميع إمكانياته تستنزف عن طريق هذه الوسائل، وبالتالى يجد نفسه فى نهاية الأمر مضطرا ـ إن اراد الاحتفاظ بشهرته بين الناس بالسخاء ـ إلى أن يفرض ضرائب باهظة على رعاياه، بالاضافة إلى أنه قد يلجأ ـ فى اغلب الاحوال ـ إلى الابتزاز وألا يتوانى عن كل عمل يؤدى به فى النهاية إلى كسب المال. واذا سار فى هذا الطريق يتبدل حب رعاياه له إلى كراهية شديدة، وينصرفون عن احترامه نظرا لفقره، ويصل فى نهاية الأمر إلى أنه ـ فى سبيل نفع الاقلية ـ قد ألحق الضرر والاذى بالكثيرين، مما يجعله يشعر باول اضطراب مهما قل



شأنه وصغر، بالاضافة إلى تعرضه للخطر بعد كل مجازفة أو مخاطرة. واذا ما ادرك الأمير ذلك الأمر ورغب فى تغيير نظام معاملته للاخرين، فإن ذلك يعرضه ـ بكل تأكيد ـ إلى اتهامه بالشح والبخل.

وتبعاً لذلك، فإن من الواجب والضرورى على الأمير، إذا كان غير قادر على ممارسة فضيلة الكرم والسخاء دون أن يجازف بذيوع امره واشتهاره بين الناس، ألا يعرض نفسه ـ إذا كان به شىء من الحكمة واعمال العقل ـ إلى الاتهام بمذمة البخل. وبالتالى سوف يرى الناس ـ مع مضى الزمن ـ أنه أكثر سخاء وكرما مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه ـ عن طريق تقتيره وعدم اسرافه ـ أصبح مكتفيا بما يحصل عليه من دخل، ويقوم بكثير من المشاريع التى يجنى رعاياه من ورائها العديد من المنافع دون أن يرهق كاهل شعبه بالضرائب، وانه يؤمن الوسائل الكفيلة ة بالدفاع عن امارته ضد كل من يفكر فى مهاجمته وبذلك يكون كريما حقا مع أولئك الذين لا يأخذ منهم اموالهم ـ وهم الاغلبية ـ وشحيحا مع من لا يهبهم المال ـ وهم قلة.

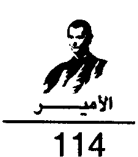
وقد رأينا فى عصرنا أن الاعمال العظيمة لا يقوم بها إلا أولئك الذين يتصفون بالبخل والشح. اما الاخرون فإن الهلاك والدمار مصيرهم فى نهاية الامر. وقد وجدنا أن البابا يوليوس قد استخدم شهرته بالكرم والسخاء حتى يصل إلى سدة البابوية، إلا أنه فى سبيل تأمين الوسائل اللازمة التى تمكنه من شن الحروب، قد تخلى عن صفة الكرم ولم يحاول الاحتفاظ بها. بينما نجد أن ملك فرنسا الحالى قام بشن عدد من الحروب دون أن يرهق كاهل شعبه بالضرائب الاستثنائية، وما ذلك إلا لأنه قد استطاع أن يغطى جميع النفقات اللازمة والطارئة بتقتيره الماضى. وكذلك ننجد أن ملك اسبانيا الحالى لم يكن ليتمكن من تنفيذ عدد كبير من المشروعات الناجحة لو كان كريما سخيا.



ولذلك فإن على الأمير ـ لهذه الاسباب جميعها ـ ألا يكترث إذا اشتهر بين رعاياه بالبخل، هذا إذا اراد تجنب سرقة شعبه، وفى أن يكون قادرا على الدفاع عن نفسه، وتجنب الفقر ومذمته، وما يرافقه من مهانة، وألا يجد نفسه مضطرا إلى أن يسلب رعاياه اموالهم. وبذلك يكون الشح هو احدى الرذائل والمثالب التى تمكنه من أن يحكم.

واذا قال قائل أن قيصر قد حصل على الامبراطورية عن طريق سخائه، أو أن الكثيرين غيره قد تمكنوا من تحقيق طموحاتهم ووصلوا إلى اعلى المراتب بالسخاء، أو على الاقل بالتظاهر بذلك، فإننا نرد على ذلك ونقول: انك اما أن تكون أميراً، أو فى طريقك إلى منصب الإمارة، ففى الحالة الاولى يكون السخاء مضرا، اما فى الحالة الثانية، فنرى أنه من الضرورى أن يراك الناس كريما جوادا. ولقد كان قيصر أحد أولئك الذين تاقوا لحكم روما، ولكنه بعد أن تمكن من تحقيق هدفه ومبتغاه، لو عاش وسار على نفس النهج الذى انتهجه لنفسه من الكرم والسخاء لكان مصير الامبراطوية هو الهلاك والدمار.

واذا كان هناك من يرد علينا قائلا أن هناك الكثير من الأمراء قد تمكنوا من تحقيق اشياء عظيمة عن طريق جيوشهم، ومع ذلك استمروا فى سخائهم وجودهم وكرمهم، فإننا نرد عليهم: أن انفاق الأمير اما أن يكون من خلال ثروته الشخصية، واما من خلال ثروة رعاياه أو ثروات الآخرين وعليه ـ فى رأينا ـ أن يحافظ على ثروته. اما بالنسبة إلى ثروات غيره فعليه أن لا يهمل أن يكون كريما جوادا. ولا جدال فى أن السخاء يكون ضروريا للامير الذى يزحف على رأس جيوشه، ويعيش على ما يقوم بنهبه وسلبه خلال معاركه، بالاضافة إلى ما يحصل عليه



من الفديات ويتصرف باموال الآخرين. إذ أنه لو لم يكن جوادا سخيا لما تبعه جنوده واطاعوه. وقد يكون الأمير كريما جدا فيما لا يخصه أو يخص رعاياه، كما فعل سيروس وقيصر والإسكندر، إذ أن انفاقه اموال الآخرين لا يحط من سمعته وشهرته، بل على العكس، حيث يرفع من قدره ومكانته، بينما انفاقه امواله يلحق به الضرر والاذى فى نهاية الامر. ولا يوجد ما هو اشد ضررا على الإنسان من الجود والسخاء، إذ أنه باستعماله واستخدامه له يكون من نتيجته فقدان القدرة على انتهاج ذلك الأمر على الدوام، وتكون النهاية اما أن يصبح فقيرا معدما، وإما حقيرا لا شأن له. واذا ما اراد الأمير النجاة من ذلك المصير يضحى سلابا نهابا، وبالتالى يتعرض لكراهية رعاياه ومقتهم. وعلى الأمير أن يضع نصب عينيه - قبل أى شىء - إلا يوصم بالحقارة، أو أن يجلب على نفسه الكراهية. ولاشك فى أن الجود والكرم سيقودانه فى نهاية الأمر إلى احدى هاتين النتيجتين. ولذلك فمن الضرورى أن يكون الأمير بخيلا شحيحا، فهذا يجلب له التحقير دون الكراهية، على أن يكون مرغما مجبرا - بدافع الحاجة - إلى أن يصبح لصا نهابا، مما يعرضه للكراهية والتحقير فى أن واحد.

●●

الرأفة والقسوة

اذا ما استطردنا فى حديثنا إلى الصفات الأخرى التى ذكرناها فيما سبق، فإننا نرى أن على كل أمير أن يكون فى نظر شعبه ورعاياه رحيما لا فظيعا قاسى القلب. ولكن عليه - على الجانب الآخر - إلا يسرف فى استعمال هذه الرحمة. وقد اعتبر قيصر بورجيا من أولئك القساة



المتحجرى القلوب. ولكن قسوته تلك هى التى وضعت الاسس والقواعد لنظام ووحدة رومانا، وفرضت عليها الاستقرار والولاء. واذا ما امعنا النظر فى هذا الموضوع، اتضح لنا أنه كان أكثر رأفة ورحمة من الشعب الفلورنسى، الذى سمح - رغبة منه فى تجنب صفة القسوة والغلظة - بتدمير بيستويا. ولذلك وجب على الأمير - إذا اراد وحدة رعاياه وولاءهم - ألا يكترث فى قليل أو كثير - بوصمه بالقسوة والغلظة. ولو جئنا ببعض الامثلة لاتضح لنا أنه أكثر رأفة من أولئك الذين يفرطون فى الرقة، مما يجعلهم يسمحون بنشوب القلاقل والاضطرابات التى تؤدى فى نهاية الأمر إلى سفك الدماء والقيام باعمال السلب والنهب، مما يوقع الضرر والاذى - فى مثل هذه الاحوال - بالرعية، بينما لا تصيب الاحكام التى يصدرها الأمير إلى بعض الافراد. ويستحيل على الأمير الجديد - دون الأمراء جميعا - أن يفلت من وصمة القسوة والصرامة، وذلك بسبب المخاطر الكثيرة التى تتعرض لها الدولة الناشئة حديثا. ولقد قال فرجيل على لسان ديدو: "على كل أمير أن يواجه الحالات الحرجة ومقتضيات الملك الجديدة باتخاذ التدابير المناسبة وحماية الملك باقامة حراس على مسافات بعيدة".

ومع ذلك، فعلى الأمير أن يكون حذرا فطنا، فلا يصدق ما يقال له. وكذلك فى العمل، وألا يخشى من ظله الخاص به. وان يسيطر على مجريات الامور بطريقة أكثر اعتدالا، يكون اطارها حسن التبصر والإنسانية، حتى لا تؤدى به ثقته المفرطة إلى الاهمال وعدم الاهتمام، ويطوح به حياؤه إلى التعصب وعدم التسامح.

وهنا يطرح سؤال نفسه: هل من الافضل أن يكون الأمير محبوبا أكثر من أن يكون مهابا؟ وبطريقة اخرى: هل يسعى الأمير إلى أن يخافه



الناس أكثر من أن يحبوه؟ واجابة هذا السؤال تتلخص فى أنه من الضرورى أن يخاف الناس الأمير وان يحبوه فى أن واحد. ولكن لما كان من العسير الجمع بين الامرين، فإن من الافضل أن يهاب الناس الأمير على أن يحبوه، هذا إذا فرض عليه الاختيار بين هذا وذاك، وهناك من يقول أن الناس ـ بصفة عامة ـ ناكروا الجميل، متقلبون فى مشاعرهم وعواطفهم، مراءون، شديدوا الطمع والجشع، يعمدون إلى تجنب المخاطر؛ فهم إلى جانب الأمير ماداموا مستفيدين من ذلك، فيبذلون دماءهم فى سبيله، ويضحون بحياتهم وبكل ما يملكون من اجله، ما دامت الحاجة التى يسعون إلى نيلها بعيدة نائية، ولكنها عندما تدنو منهم وتصبح فى متناول ايديهم يثورون. ويكون مصير الأمير الذى يركن إلى وعودهم وعهودهم دون أن يتخذ من الاحتياطات التى يحمى بها نفسه منهم ـ إذا اخلفوا وعدهم ـ يكون مصيره الهلاك والدمار. إذ أن الصداقة والصحبة التى تقوم على اساس المصلحة والمنفعة، لا على اساس نبل الروح وعظمتها تكون قواعدها التى تقوم عليها من الرمال، سريعا ما تنهار، فهى صداقة وصحبة زائفة، تُشترى بالمال، ولا تكون امينة موثوقة، ومن ينتظر منها الوقوف بجانبه عند الشدائد كمن يحرث فى الماء. والناس لا يترددون فى الاساءة إلى من يجعل نفسه محبوبا بقدر ترددهم فى الاساءة إلى من يخافونه، إذ أن الحب يكون مرتبطا بسلسة من الالتزام التى قد تتحطم ـ بالنظر إلى انانية الناس ـ عندما يكون ذلك فى مصلحتهم، فى حين أن الخوف يرتكز على الخشية من العقاب، وهى خشية قلما يلحقها الفشل.

ومع ذلك، فعلى الأمير أن يحتاط بالوسائل والتدابير التى تفرض على الرعية الخوف منه، بطريقة يتجنب بواسطتها أن يثير ـ إذا لم يضمن



الحب ـ الكراهية والبغض فى قلوب رعيته، إذ أن مهابة الأمير وعدم وجود الكراهية قد يسيران معا جنبا إلى جنب. وفى استطاعة الأمير الذى يمتنع عن التدخل فى ممتلكات مواطنيه وفى نسائهم أن يحصل عليهما. واذا ما وجد الأمير نفسه مضطرا إلى سلب إنسان حياته، فعليه أن يتوخى المبرر الصالح والسبب الواضح لذلك. ولكن عليه ـ قبل أى شىء ـ ألا يسلب الآخرين ممتلكاتهم، لأن ذلك لا يجلب عليه سوى مقتهم وغضبهم، إذ أن من السهل على الإنسان أن ينسى ـ على سبيل المثال ـ وفاة اقرب الناس اليه، من أن ينسى ضياع إرثه وممتلكاته ويضاف إلى ذلك أن الحجج والمبررات لمصادرة الممتلكات دائما ما تكون متوافرة. وان كل من يبدأ حياته على نهب ممتلكات الناس وسلب ما فى ايديهم، يجد مبررا لما يفعل، بينما القضاء على حياتهم أكثر ندرة واسرع زوالاً.

ومن اللازم والضرورى على الأمير ـ عندما يكون مع جيشه، وتحت تصرفه عدد كبير من الجنود ـ عليه إلا يكترث كثيرا إذا ما اطلق عليه الرعية لقب الصارم، إذ أنه بدون مثل هذه الصفة يكون من الصعب عليه أن يُبقى على جيشه موحدا منظما، خاضعا للنظام والواجب. ونجد أن هذه الصفة من الصفات البارزة والواضحة فى هانيبال؛ حيث نجد أن الجيش الذى كان يقوده يتكون من جنسيات مختلفة، بالاضافة إلى خوضه الحروب فى بلاد اجنبية، وبالرغم من ذلك لم يقع أى نزاع أو خلاف بين هؤلاء الجنود أو أن يظهر منهم أو من بعضهم أى عصيان للامير، سواء فى اوقات سعده، أو فى فترات نحسه. ومثل هذا الأمر لا يمكن أن يعزى إلا لصرامته وشدته وقسوته وهذه الصفات إذا ما أضفناها إلى فضائله الأخرى ـ التى لا حصر لها ـ لوجدنا أنها جعلت منه إنسانا مهابا ومخيفا فى عيون جنوده، ولو لم تكن فيه، لما كانت



فضائله الأخرى كافية لاحداث مثل ذلك التأثير ,ونجد أن الكتاب الذين يفتقرون إلى اعمال العقل يْميلون إلى تمجيد اعماله والثناء عليها، فى الوقت الذى يوجهون فيه اللوم إلى العامل الاساسى والرئيسى الذى كان سببا فى انجاز هذه الاعمال وتحقيقها.

ولا جدال فى أن ما ذكرناه هو الحقيقة المؤكدة بعينها، من أن المميزات والفضائل الأخرى التى قد يتمتع بها الأمير قد لا تكون كافية لتحقيق ما يصبو اليه، وقد يبدو ذلك واضحا فى قضية سيبيو (المشهور لا بالنسبة إلى عصره، بل إلى جميع العصور التى تعيش فيها ذكراه)، فقد حدث أن ثارت عليه جيوشه فى اسبانيا ثورة عارمة، وما ذلك إلا بسبب اغراقه فى اللين واللطف، مما دعا جنوده إلى القيام باعمال لا تتفق والنظام العسكرى. وفى ندوة لمجلس الشيوخ تعرض للوم والتقريع من فابيوس مكسيموس الذى اتهمه بالقيام باعمال ادت إلى افساد المتطوعة الرومان. وكان أحد ضباط شيبيو قد ألحق الدمار بلوكرى، فلم يثأر منه هذا. كما أنه - شيبيو - لم يحاول معاقبة ضابطه على حماقته لافراطه فى اللين. وبالرغم من ذلك، فقد حاول الكثير من اعضاء مجلس الشيوخ تبرير اعماله، وقالوا أن الكثيرين لا يعرفون كيف يخطئون، أكثر من معرفتهم كيف يصلحون اخطاء الآخرين. ومثل هذا الموقف - لو عاش شيبيو فى ظل الامبراطورية - كان كافيا لتشويه اعماله وتدمير سمعته، ولكنه لما كان يعيش فى ظل مجلس الشيوخ، فإن هذه الصفة المؤذية، لم يقدر لها الاختفاء فحسب، بل قُدر لها أن تكون مصدرا لمجده وفخره.

وتبعا لذلك، فإننا ننهى القول عن موضوع الحب والخوف قائلين أن الناس - فى عمومهم - يحبون تبعا لاهوائهم وإراداتهم الخاصة، ولكنهم عندما يخافون فإن ذلك يكون وفقا لاهواء الأمير وإرادته. وان الأمير

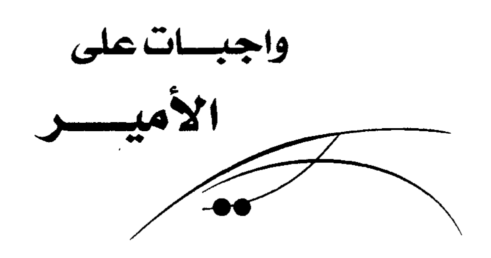


العاقل اللبيب هو الذى يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين وسطوتهم، وكل ما يملكه أن يتحاشى ويتجنب كراهية رعاياه له وبغضهم لشخصه، كما سبق أن اوضحنا.

■■■



واجبات على الأمير



على الأمير ألا يستهدف أو يبغى شيئا غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وألا يفكر أو يدرس شيئا سواها، حيث أن الحرب هى الفن الوحيد الذى يجب أن يتقنه كل من يصل إلى مرتبة القيادة،. ولا تقتصر هذه الفضيلة القائمة فيها على المحافظة على أولئك الذين يولدون أمراء، بل يتعدى الأمر إلى مساعدة الآخرين من ابناء الشعب على الوصول إلى تلك المرتبة. وكثيرا ما يرى الإنسان أن الأمير الذى لا يلقى بالا بالحرب وفنونها، والسلاح وانواعه والتدريب على استخدامه، ويكون همه الاول والاخير هو تحقيق ملذاته ورغباته، يكون من السهل على ذلك الأمير أن يفقد إمارته. ولا جدال - فى رأينا - - أن ازدراء فن الحرب يكون سببا رئيسيا فى ضياع الإمارات والممالك، وان اتقانه والتمرس فيه، هو السبيل إلى الحصول إلى الدول والإمارات وامتلاكها.

ونجد أن فرانسيسكو سفورزا قد استطاع أن يصل - بفضل سلاحه - من إنسان عادى إلى منصب دوق ميلان. وعلى العكس من ذلك نجد أن ابناءه - رغبة منهم فى تجنب الحرب واهوالها - قد انحدروا من مرتبة الإمارة إلى مرتبة المواطنين العاديين. ولعل من الشرور التى يؤدى اليها الافتقار إلى السلاح وعدم الاهتمام به أو التدريب على استخدامه،

التعرض للمهانة والاذلال والاحتقار، وهو امر - بلا شك - يحط من قيمة الإنسان وكرامته. ولذلك فإن من الواجب على كل أمير أن يتجنب ذلك الأمر بكل ما أوتى من قوة، كما سنوضح ذلك فيما بعد. ولما كانت المقارنة بين الإنسان المسلح وغير المسلح معدومة ولا وجود لها، إذ أنه ليس من العقل أن نفترض أن المسلح يخضع - بمحض ارادته - لغير المسلح، أو أن الاعزل يشعر بالأمان والهدوء بين اتباعه الذين يملكون السلاح. وتكون نتيجة ذلك أن التابع يحتقرن سيده، وذاك يشك فى ولاء تابعه، وبالتالى ينعدم الانسجام والتفاهم بينهما، ولهذا فإن الأمير الجاهل بالمسائل العسكرية وامور القتال يكون عرضة - بالاضافة إلى ما اوردناه من مصائب - إلى احتقار جنوده وازدرائهم - بينما يشك هو - بدوره - فى ولائهم واخلاصهم ووفائهم له.

وبناء على ذلك، فإن من الواجب على الأمير، إلا يسمح لافكاره ونزواته بان تذهب بعيدا عن مراس الحرب وفنون القتال، وعليه أن يكون أكثر اهتماما بها فى ايام السلم عنها فى ايام الحرب والقتال، حتى يكون على اهبة الاستعداد لمواجهة ما يعترض طريقه من مشاكل وصعاب. وهذا الأمر يستطيع أن يصل إليه بواسطة طريق من اثنين، هما العمل والدراسة، فمن ناحية العمل - يجب عليه - بالاضافة إلى الابقاء على جنوده فى حالة من التدريب المستمر، أن يقضى جل وقته باستمرار فى عمليات الصيد، حتى يعود جسمه على المشاق، وان يدرس - خلال ذلك - طبيعة البلاد الجغرافية، كارتفاع الجبال، وعمق الوديان، وامتداد السهول، وطبيعة الانهار والمستنقعات. نعم، ينبغى عليه أن يهتم بكل هذه الامور كل الاهتمام، وان يعنى بها بالغ العناية، حيث أن معرفته هذه مجدية بطريقتين: أولاهما أن يعرف الأمير كل شىء عن بلاده، وبالتالى

يقرر احسن السبل للدفاع عنها وحمايتها، وثانيهما أن معرفته وتجاربه في منطقة واحدة تحمله على تفهم طبيعة المناطق الأخرى التي يضطر إلى مراقبتها بكل سهولة ويسر. ذلك لأن الجبال والسهول الانهار في تسكانيا مثلاً تشبه إلى حد ما نظائرها في الإمارات الأخرى وهكذا يستطيع المرء عن طريق معرفته باحدى هذه المناطق، أن يتفهم احوال المناطق الاخرى. اما الأمير الذي يفتقر إلى هذه الموهبة، لا نجد فيه اولى الجوهريات التي يجب أن تتوافر في القائد الكفء، إذ أنها هي التي تعلمه كيف يجد عدوه، واين يقيم معسكره، والطريقة التي يقود بها جيوشه، وكيفية تخطيطه للمعارك التي يخوضها، ويفرض الحصار على المدن، آخذاً الفوائد إلى جانبه.

وعلى ذلك نجد أن الكتاب والمؤرخين كالوا المديح على فيلو بومين، أمير الآخيين، وما ذلك إلا لأنه كان - في اوقات السلم ـ لا يفكر بشيء سوى الحرب واساليبها. والدليل على صحة كلامنا أنه عندما كان يذهب إلى الريف مع اصدقائه، كثيرا ما يقف ليسألهم بعض الاسئلة، مثل: إذا كان العدو يعسكر على ذلك التل، ونحن هنا ـ في المكان الواقف فيه ـ مع جيشنا، فأي من الجيشين تكون له ميزة الموقع؟ وما السبيل الذي نتخذه كي نستطيع التقدم إليه بسلام، دون أن نخسر قواتنا؟ واذا ما رغبنا في الانسحاب فماذا يتحتم علينا أن نفعل؟ واذا ما انسحب العدو، فما الذي يتوجب علينا فعله كي نلحق به؟ وكان يضع امامهم في الطريق جميع الاحتمالات التي قد يتعرض لها أي جيش ويستمع إلى آرائهم، ثم يدلي برأيه مستندا بالحجج والبراهين وكان يجد نفسه دائما ـ بفضل هذه الافكار التي يُعمل بها عقله ـ مستعدا لمواجهة أي حادث يتعرض له، وهو على رأس جيوشه.



اما بالنسبة إلى العقل،فإنه من الواجب على الأمير أن يقرأ التاريخ قراءة متأنية، وان يدرس اعمال الرجال البارزين، فيرى اسلوبهم فى الحروب، ويتفحص بتأن الاسباب التى ادت إلى انتصاراتهم، أو التى اوقعتهم فى حبائل الهزيمة، حتى يسير على نهجهم فى اتخاذ الاسباب التى قادتهم إلى النصر، وعلى الجانب الآخر يتجنب الوقوع فى الاخطاء التى ادت إلى الهزيمة، وان يقلد - كما فعل غيره من القواد فى الماضى - الشخص الذى انهال عليه المديح والثناء والتمجيد، وترك اعماله ومآثره واضحة للجميع، وهو ما يقال أن الإسكندر الكبير قد فعله فى تقليد اخيه، وقيصر فى تقليد الإسكندر، وشيبيو فى تقليد كورش. ولاشك فى أن كل من يقرأ حياة كورش - كما كتبها اكزونوفون - سيرى فى سيرة شيبيو نجاحه فى تقليد سلفه. وكيف تقيد تماما بصفات كورش التى عددها اكزونوفون، والتى تنطوى على الرأفة والعطف والإنسانية والتحرر الفكرى.

وينبغى على الأمير العاقل اللبيب أن يتبع اساليب مماثلة، وألا يظل عاطلا عن العمل فى اوقات السلم، بل يستخدمها، وبكل ما أوتى من قوة، حتى إذا واجهته المشاكل والصعاب وجد نفسه قادرا على مواجهتها، قادرا على التغلب عليها.

●●

تجنب الاحتقار والكراهية

الأمير يتجنب الأشياء التى تجلب إليه الاحتقار والكراهية. وعندما يحقق النجاح فى ذلك يكون قد قام بدوره خير قيام، ولا يرى خطرا فى ارتكاب الرذائل الاخرى. وذكرنا أنه إذ اضحى سلابا نهابا، يغتصب

ممتلكات رعاياه ونساءهم فسوف يتعرض للكراهية والبغض من جانب شعبه. وعندما يتجنب الأمير الاعتداء على املاك عامة الناس واعراضهم،فإنهم يعيشون راضين قانعين، ولا يواجه إلا مطامع القلة الذين فى استطاعته وإمكانه أن يكبح جماحهم. ويعتبر الأمير دنيئا حقيرا فى نظر شعبه إذا رأوا فيه تقلبه وتفاهته وجبنه. وهذه الامور يجب أن يقى الأمير نفسه منها، على اعتبار أنها العقبة الكئود التى تمثل خطرا شديدا عليه، وان يدبر اموره بحيث تبدو اعماله فى غاية العظمة والحيوية. اما بالنسبة إلى حكم رعاياه فعليه أن يعمل على أن تكون احكامه غير قابلة للنقض، وان يتمسك بالقرارات التى يتخذها، ولا يُمكن أى إنسان منه.

والأمير الذى يستطيع أن يخلق لنفسه مثل هذه السمعة عند رعاياه يتمتع بشهرة عظيمة تبلغ الآفاق، ومن العسير أن يتآمر الناس على من يتمتع بالشهرة والصيت العظيمين، كما أنه من الصعب أن يهاجمه احد، خاصة أن الناس يعرفون عنه القدرة واحترام شعبه له. والأمير الذى يريد أن يوطد اركان دولته بقوة عليه أن يخاف من ناحيتين، أولاهما داخلية، أى تتعلق برعيته، والطريقة الثانية خارجية، أى تتعلق بالدول الاجنبية وفى إمكانه أن يدفع عن نفسه خطر العدوان الاجنبى، وذلك بحيازة الاسلحة القوية والاصدقاء المخلصين، اما الجبهة الداخلية فتظل هادئة دائما إذا لم تخلق المؤامرات الفوضى والاضطراب فيها، ولم تتعرض لأى عدوان خارجى. ويستطيع الأمير ـ إذا سار حكمه وحياته على غرار ما ذكرنا ـ أن يصمد ضد محاولات اعدائه لاحتلال إمارته. اما بالنسبة إلى الرعايا ـ وحتى لو لم يتعرضوا لأى تأثير خارجى ـ فإن الخطر يظل ماثلا فى تآمرهم على الأمير بصورة سرية، وبهذه الحال



يستطيع الأمير حماية نفسه ووقايتها منها جيدا، وذلك بتجنب التعرض لكراهيتهم وبغضهم، وان يحافظ على رضاهم من معاملته، وهو ما يتحتم عليه فعله، كما سبق أن اوضحنا بإسهاب.

ولعل العلاج الناجع للوقاية من المؤامرات هو أن يكون الأمير محبوبا من شعبه مقربا اليه، لا مكروها بغيضا، وتُظهر لنا حوادث التاريخ وتجاربه أن ثمة مؤامرات كثيرة جرت فى الماضى، ولم ينجح منها سوى القليل، ذلك أن المتآمر لا يمكنه أن يعثر على معاونين له إلا بين الناقمين الساخطين على الأمير. الأمر الذى يوضح لنا بجلاء أنه من الصعب، بل من المستحيل، لأى إنسان أن يجد فى نفسه القدرة على أن يُقدم على مثل تلك المغامرة غير المأمونة، إذ أن على المتآمر ذبصفة عامة ـ أن يخشى قبل تنفيذ مؤامرته، فى مثل هذا الوضع، عداء الرعية. ولو قُدر لمؤامرته النجاح، فهو لا يضمن العثور على ملجأ يحميه من غضب الرعية وثورتها عليه.

واذا نظرنا إلى حوادث التاريخ لوجدنا الامثلة على ما ذكرناه كثيرة، ولكننا نكتفى بسرد واقعة حدثت فيما مضى من الايام، فقد استطاع المتآمرون من اسرة الكانيشى أن يقتلوا السيد هانيبال بنتفوغلى أمير بولونا (جد الأمير الحالى السيد هانيبال). ولم يكن للامير المقتول أى اقارب سوى السيد جيوفانى الذى كان فى مرحلة الطفولة. ولكن شعب بولونا انتفض عن بكرة ابيه وقام بثورة عارمة، وتمكن من قتل اسرة كانيشى جميعها، وبالتأكيد كان موقف الشعب هذا ناجما عما تتمتع به اسرة بنتفوغلى من حب الشعب وتأييده، وليس هذا ما حدث وحسب، بل أن الشعب ـ بعد مقتل هانيبال وعدم العثور على شخص من اسرته يتولى الحكم ـ بحث ونقب حتى استطاع أن يجد شخصا يعيش فى فلورنسا،



كان والده حدادا، يمت إلى الاسرة بصلة قرابة، فأتى به الشعب إلى المدينة وولاه حكمها، وذلك حتى يبلغ الطفل جيوفانى سن الرشد، ويتولى حكم مدينته.

وتبعا لذلك، فإننا نستطيع أن نستنتج أن على الأمير أن يطمئن قلبه ولا يخشى المؤامرات التى قد تحاك ضده فى الظلام مادام الشعب محبا له راضيا عنه. اما إذا كان الأمر على العكس من ذلك، أى إذا كرهه الشعب وابغضه، فإن من الضرورى عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شىء. وقد جرت عادة الدول المنظمة القائمة على اسس وقواعد قوية ويقوم على رعاية شئونها امراء حكماء وعقلاء، إلا يدفعوا بالنبلاء إلى درجة البأس والبطش، وان يعملوا بكل وسعهم على ارضاء الشعب، حيث أن هذا الأمر من اهم الامور التى من الواجب والضرورى أن يعتنى بها الأمير كل العناية.

ولاشك فى أن فرنسا تعتبر من افضل الدول واحسنها تنظيما وحكما فى عصرنا، واننا لنجد فيها الكثير من المؤسسات التى تعتمد عليها حرية الملك وسلامته. ويأتى فى مقدمة تلك المؤسسات بالطبع البرلمان وسلطته، إذ أن من اقام تلك المملكة وارادها قوية راسخة، كان يدرك مطامع النبلاء العظام وحماقاتهم، فرأى من الضرورى أن يلهيهم بشىء يضعونه فى فمهم لكبح جماحهم. وكذلك ادرك ـ من الناحية الأخرى ـ أن الكراهية التى يكنها الشعب لهؤلاء النبلاء قائمة على الخوف. وحتى يمنحهم الطمأنينة والثقة جعل هذا الموضوع محل عنايته القصوى، حتى يتجنب سخط النبلاء، إذا ارضى الشعب، وسخط الشعب إذا ارضى النبلاء. ولذلك فقد اقام قاضيا ثالثا لا يخضع لاوامر الملك مباشرة، ويكبح جماح العظماء، ويعطف على جماهير الشعب ولذلك فإننا نرى أنه

ليس هناك وسيلة أكثر حكمة من هذه الوسيلة، ولا احتياطا اجدى وانفع من هذا الاحتياط لتأمين سلامة الملك والمملكة. وفى استطاعنا أن نستخلص من هذا قاعدة بارزة، إلا وهى أن من الواجب على الأمير أن يعهد بالمهام التى يحبها إلى الآخرين، بينما يعمل هو على اغداق الرعية بالمنح والعطف. ونود أن نختم قولنا بالتأكيد ثانية على أن من واجب الأمير أن يعمل على احترام النبلاء وتقديرهم، بشرط إلا يؤدى ذلك إلى كره رعاياه له.

ومع ذلك قد يبدو للبعض أن هناك امثلة مستمدة من تاريخ بعض اباطرة الرومان وسير حياتهم وموتهم تخالف رأينا كل الاختلاف، خاصة أن العديد من هؤلاء الاباطرة ـ رغم معيشتهم النبيلة وما ظهر منهم من قوة الشخصية ـ قد ادارت لهم الايام ظهرها وفقدوا سلطانهم، أو تمكن الذين تآمروا عليهم من قتلهم، وحتى نرد على تلك الاعتراضات سوف نتحدث عن صفات بعض الاباطرة، لكى نبرهن على أن سبب انهيار سلطانهم لم يكن مختلفا عما قررناه من قواعد. وفى غضون ذلك سندرس الامور التى يجب أن يلاحظها كل من يقرأ سجلات تلك الايام ويطلع عليها. وسنكتفى بالحديث عن جميع الاباطرة الذين تولوا الحكم من عهد ماركوس الفيلسوف حتى عهد مكسيمنيوس، وهم ماركوس وولده كومورروس وبرتينكس، وجوليانوس، وسيفيروس، وأنطونيوس وولده كراكالا، وماكرينوس، وهليوغابالوس، وأليكساندر ومكسيمينوس. واول شىء ينبغى علينا ملاحظته فى حديثنا هذا أنه فى الوقت الذى يتحتم على الأمراء الآخرين فقط، الاهتمام بمصالح العظام ومنافعهم، بالاضافة إلى غطرسة الرعية، فقد كان على الاباطرة الرومانيين أن يواجهوا صعوبة ثالثة، وهى دعم الاعمال التى تتسم بالقسوة والطمع،

على ما هى عليه من الشدة، مما ادى فى نهاية الأمر إلى الاطاحة بكثير من الاباطرة، إذ كان من الصعب عليهم أن يُرضوا جنودهم وشعبهم فى أن واحد، فالشعب عادة يميل إلى الهدوء، وبالتالى يميل إلى الأمراء المسالمين الذين لا يسعون إلى شن الحروب، وفى المقابل نجد أن الجنود يفضلون الأمير الذى يملك روحا عكسرية، والذى من صفاته وخصائصه الغطرسة والقسوة والميل إلى اعمال السلب والنهب، وبالاضافة إلى ذلك يريدون منه أن يطبق هذه الصفات فى تعامله مع شعبه حتى يحصلوا على مرتبات مرتفعة، وحتى يستطيعوا أن يجدوا متنفسا لمطامعهم وقسوتهم الكامنة بين ثنايا احشائهم.

وهكذا نجد أن أولئك الاباطرة الذين لم يكن لديهم - بسبب طبيعتهم أو كفاءتهم - السمعة الكافية، والتى تمكنهم من كبح جماح الطرفين، نجد أن مصيرهم كان خرابا. وكان الكثيرون منهم ممن وصلوا إلى مرتبة الامبراطور قد اقتصرت ردود افعالهم على محاولة ارضاء جنودهم، ولم يفكروا إلا قليلا بإيذاء شعبهم، وقد فعلوا ذلك لكونهم حديثى العهد بهذا المنصب، وإدراكاً منهم لما قد ينجم من صعوبات وقلاقل عن هذين الميلين المتضاربين وكان مقدرا لهم أن يختاروا إذا كان من الصعوبة بمكان تجنب إغضاب أحد الفريقين والتعرض لكراهيته وبغضه، وكان من الواجب عليهم أن يلجئوا إلى كل وسيلة ممكنة حتى لا يتعرضوا لكراهية الشعب، واذا ما عجزوا عن تحقيق ذلك، فإن عليهم إلا يُغضبوا اقوى الفريقين واهمهم شأناً، وان يتجنبوا تعرضهم لكراهيته.ولذا فإن هؤلاء الاباطرة، ونظرا لحداثة عهدهم فى منصبهم، كما ذكرنا من قبل، فقد كانوا يشعرون انهم فى حاجة شديدة إلى الكثير من العطف الاستثنائى، وبالتالى نجد انهم قد تعلقوا بجنودهم بدلا من شعبهم.



وبالنظر إلى جدوى هذه السياسة أو فشلها نجد أن ذلك يعتمد على ما إذا كان الأمير يعرف كيف يحتفظ بسمعته امام جنوده. ولهذه الاسباب فإننا نجد أن ماركوس وبيرتينكس وأليكساندر بالنظر إلى حياتهم ونشأتهم المتواضعة، وحبهم للعدالة، وكراهيتهم للقسوة والغلظة والعنف، بالاضافة إلى إنسانيتهم، وميلهم إلى افعال الخير، نجدهم وقد انتهوا نهاية مأساوية، وذلك باستثناء ماركوس الذى عاش ومات دون أن ينقص من شرفه شىء، حيث أنه وصل إلى سدة الامبراطورية عن طريق حقه الوراثى، ولم يوجد ذلك الشىء الذى يجعله مدينا إلى جنوده أو إلى شعبه. يضاف إلى ذلك الفضائل التى كان يتمتع بها وجعلت منه امبراطورا محترما،. وبذلك استطاع أن يوقف كلا الفريقين عند حده، ولم تنل منه اية كراهية من جنوده أو شعبه. وبالنظر إلى بيرتينكس نجد أنه انتخب امبراطورا رغم ارادة الجنود الذين انغمسوا حتى آذانهم فى حياة الفجور فى عهد سلفه كومودوس. ولذا فقد كان من الصعوبة بمكان أن يعيشوا حياة الشرف التى اراد بيرتينكس أن يفرضها عليهم، وبالتالى تعرض لكراهيتهم ومقتهم، بالاضافة إلى شعور الزراية الذى تمكن منهم تجاهه لكبر سنه، وبالتالى كان فى صراع عنيف معهم انتهى إلى مقتله.

ومن هنا نرى أن الكراهية التى تنجم عن الاعمال الشريرة المليئة بالقسوة والعنف، قد تنجم أيضاً نتيجة الاعمال الطيبة. ولذا فمن الضرورى - كما ذكرنا سابقا - على الأمير الذى يرغب فى الحفاظ على قواعد دولته واسسها قوية ضد العواصف والانواء أن يرتكب الاعمال الشريرة احيانا، وذلك إذا كان الفريق الذى يعتقد باهميته وضرورته للحفاظ على مركزه، سواء أكان فريق الشعب، ام الجنود، ام النبلاء، فاسدا. فالواجب على الأمير فى هذه الحالة أن يسير مع التيار، وان

يكون حريصا على ارضائه واشباع رغباته. وفى مثل تلك الحالة تصبح الاعمال الطيبة مؤذية ومضرة. وعند حديثنا عن أليكساندر نقول أنه كان فى منتهى الطيبة. ومن فضائله العديدة التى كانت موضوع الثناء والمديح ما قيل من أنه فى فترة الاربع عشرة سنة من حكمه لم يصدر أى حكم على أى إنسان إلا بعد تقديمه لمحاكمة عادلة، ومع ذلك فالبعض يعتبره مخنثا، حيث أنه سمح لامه بالتحكم فيه. وهكذا نراه وقد هبط إلى مرتبة الاحتقار، مما عجل بنهايته على يد الجيش.

اما إذا قمنا بدراسة الصفات التى تمتع بها كل من كومودوس وأنطونيوس ومكسيمنيوس وسيفيروس وكراكلا، نجد أن ابرز تلك الصفات هى الغلظة والقسوة والجشع بكل ما تحمل من معانٍ، ولذلك فهم لم يتوانوا - فى سبيل ارضاء جنودهم ذعن إلحاق أذىً أو ضرر بافراد شعبهم. ومع ذلك فقد كانت نهايتهم جميعا - باستثناء سيفيروس - مأساوية. اما هذا - سيفيروس - فقد توافرت له عدة صفات ومميزات استطاع عن طريقها الابقاء على صداقة جنوده، والحكم فى منتهى السعادة، على الرغم من اضطهاده لشعبه، ومعاملته بكل قسوة وغلظة، ويرجع السبب فى ذلك إلى فضائله وخصائصه التى جعلته موضع الاعجاب والتقدير عند جنوده وشعبه على حد السواء، فقابله الاولون بالاجلال والرضى، والاخرون بالدهشة والبلادة.

ونظرا لما اتصفت به اعمال هذا السلطان بالكثير من العظمة - بالنسبة إلى أمير محدث - فسوف نعرض بايجاز كيف استطاع الجمع بين صفات الثعلب والاسد، وهى الصفات التى ذكرنا من قبل أنه يجب على كل أمير أن يقلدها؛ حيث أنه - سيفيروس - قد نمى إلى علمه - وكان يقود الجيش الرومانى فى سلافونيا - ما لحق بالامبراطور



جوليانوس من صفات ذميمة كالكسل والتراخى، فاستطاع اقناع جنوده بان من الخير والواجب أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل الامبراطور بيرتنكس، الذى ذُبح على يد رجال الحرس البريتورى. وبهذه الذريعة - ودون أن يكشف عن مطامعه فى العرش - تمكن من الزحف على رأس جيشه إلى روما، واستطاع الوصول إلى إيطاليا، قبل أن ينتشر خبر مغادرته سلافونيا. وحدث أن انتخبه مجلس الشيوخ امبراطورا عند وصوله إلى روما، خوفا منه وفزعا، ثم تمكن من قتل جوليانوس.

وبعد هذه البداية المكللة بالنجاح، نجد أن سيفيروس قد واجهه صعوبتين كبيرتين، وذلك قبل أن يتمكن من احكام سيطرته كليا على الامبراطورية، اما الاولى فكانت على الارض الآسيوية، حيث اعلن نيفرينوس - قائد الجيوش الآسيوية ذنفسه امبراطورا. واما الصعوبة الثانية فكانت فى الغرب، حيث أن ألبينوس كان يطمح فى الوصول إلى عرش الامبراطورية ايضا. ولكن سيفيروس - لما كان عاقلا لبيبا - رأى أنه من الخطر عليه أن يبدو معاديا للقائدين فى آن واحد، ولذلك قرر مهاجمة نيفرينوس، وفى نفس الوقت قام بخداع ألبينوس، فكان أن كتب إليه يعرب عن رغبته فى اشراكه فى هذا الشرف الذى اضفاه عليه مجلس الشيوخ باختياره امبراطورا، فقام بمنحه لقب قيصر، ثم أقنع مجلس الشيوخ باعلانه شريكا له، وهى نعم ومنح انطلت على أبينوس وخُدع بها. وبعد أن تمكن سيفيروس من هزيمة نيفرينوس وقام بقتله هدأت الامور فى الشرق وعاد إلى روما. ثم اتهم ألبينوس فى مجلس الشيوخ بالشكر للنعم التى منحها اياه، وبالتآمر عليه لقتله، وانه لذلك يجد نفسه مضطرا لمعاقبته على نكرانه للجميل، فقام بالزحف اليه، حيث دارت بينهما رحى الحرب التى كان من نتيجتها حرمان ألبينوس من مركزه وحياته.



وبذلك يتضح لكل من يدرس اعمال سيفيروس بالتفصيل أنه كان لينا كاسرا وثعلبا ماكرا، الأمر الذى جعل الجميع يخشونه ويحترمونه، بالاضافة إلى ولاء الجيش له. وبذلك لن تعترينا الدهشة عندما نرى هذا الامبراطور المحدث قد تمكن من الامساك بزمام الامور بمثل هذه القوة البالغة، بالنظر إلى سمعته الطيبة التى استطاعت حمايته من الكراهية التى كان من المفروض أن يستثيرها جشعه ونهمه عند شعبه. وكذلك كان ولده انطونيوس ذا كفاءات بالغة، وكان موضع اعجاب الشعب وحب الجنود، بالنظر إلى الصفات التى كان يتمتع بها، فقد كان رجلا عسكريا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وكان يحتقر الرخاء والعيشة المرفهة، وغيرها من صور البذخ، الأمر الذى جعل جنوده شديدى التعلق به. وبالرغم من ذلك نجد أنه امتاز بالشراسة والغلظة والقسوة التى لم يُعرف لها مثيل من قبل، حيث نجد أنه بعد أن قتل الكثيرين من الافراد العاديين، اصدر اوامره بقتل عدد كبير من سكان روما، بالاضافة إلى جميع سكان الاسكندرية، مما جعل العالم باسره يكرهه ويبغضه، وبدأ المقربون منه يخشونه كل الخشية، الأمر الذى انتهى اخيرا بقتله على يد أحد قواده وسط الجيش.

ونرى أنه من الجدير بنا، أن نلاحظ أن مثل هذه الميتة التى يقوم بها رجل عازم كل العزم على اتمامها، وعن سابق قصد وتصميم، لا يجب على الأمراء تجنبها، إذ أن كل من لا يخاف الموت أو يخشاه فى إمكانه أن يقتل اكبر عدد من الآخرين. ولكن من الواجب على الأمير إلا يخشى هذا النوع من الاغتيال؛ إذ اننا نرى أن هذا الصنف من الرجال - الذين يقومون باعمال تنطوى على الكثير من الخطورة - شديد الندرة. ولذلك فإن على الأمير ألا يسىء لأى إنسان يعمل فى خدمته اساءة بالغة، أو



يكون قريبا منه كما وقع لأنطونيوس الذى كان قد اصدر امرا بقتل شقيق ذلك الضابط قتلا مهينا، بالاضافة إلى تهديده له كل يوم، بالرغم من احتفاظه به بين رجال حرسه، وهى حماقة شديدة، كما اثبتت الايام والحوادث.

وننتقل الان إلى الحديث عن كومودوس، الذى كان بإمكانه أن يحتفظ بمنصبه، حيث أنه ارتقى سدة الحكم بالوراثة، فقد كان ابن ماركوس، وكان بإمكانه أن يحذو حذو ابيه ويسير على نهجه فى ارضاء الشعب والجيش، ولكنه سار على النقيض تماما، فقد كان فظا ووحشا وقاسيا فى طباعه واخلاقه حيث أنه حتى يرضى جنوده ويعطف عليهم وجدناه يمارس جشعه وطمعه على رعاياه، ودفع بجنوده إلى حياة العهر والفجور، بالاضافة إلى عدم احتفاظه بوقار مركزه واحترامه، فكان يهبط دائما إلى حلبات الصراع فى المسارح ويقترف اعمالا شائنة لا تليق بالجالس على كرسى العرش، الأمر الذى حدا بجنوده إلى احتقاره. وهكذا نجد أن العاملين اجتمعا عليه، الكراهية من ناحية شعبه، والازدراء والاحتقار من ناحية جنوده، مما ادى فى نهاية الأمر إلى أن يتآمر البعض عليه حتى تمكنوا من قتله.

ونأتى الآن إلى الحديث عن مكسيمينوس، حيث نجد أنه كان رجلا محاربا. وبالنظر إلى أن الجيش قد ساوره القلق مما كان عليه أليكساندر من خنوثه وضعفه ـ وهو ما ذكرناه قبل ذلك ـ فقد انتخب امبراطورا بعد موته، ولكن كان قدره إلا يتمتع بالعرش طويلا، حيث وُجد عاملان عرضاه للكراهية والزراية، أولهما اصله الوضيع. وثانيهما تأخره فى بداية حكمه فى الذهاب إلى روما لارتقاء العرش الامبراطورى، كما أنه اشتهر بالقسوة والغلظة، إذ ارتكب عن طريق وكلائه فى روما الكثير من



الاعمال الوحشية. وهكذا نجد أن العالم باسره قد امتلأ سخطا وحنقا على ضعة اصله وكراهيته له، ولذلك نجد أن إيطاليا قد تآمرت عليه فى البداية، وسرعان ما لحق بها مجلس الشيوخ وجميع سكان روما وإيطاليا، بالاضافة إلى اشتراك الجيش فى التآمر، إذ أنه بعد أن حاصر اكويليا فشل فى اقتحامها - ثار عليه الجنود لصرامته وغلظته. وعندما وجدوا أنه عادى جميع من حوله زال خوفهم منه، ثم اقدموا على قتله.

اما هليوغابولوس وماكرينوس وجوليانوس، فنظرا لكونهم من المحتقرين، نجد أن الأمر لم يستقر لهم، حيث أنه سرعان ما قضى عليهم. لذا فإننا لن نتحدث عنهم ولكننا سنصل إلى نتيجة نقاشنا هذا فنقول أن الأمراء الذين فى عصرنا يواجهون متاعب وصعوبات اقل من اولئك، حيث انهم كانوا مضطرين إلى ارضاء جنودهم فى دولهم إلى حد استثنائى. حيث انه لم يكن لدى أى من هؤلاء الأمراء جيوش ترتبط ارتباطا وثيقا بالحكومة، أو بجهاز ادارة المقاطعات، كما كان الوضع بالنسبة إلى جيوش الامبراطورية الرومانية، ولذلك كان من اللازم والضرورى - آنذاك - أن يعمل الأمراء بكل قوة على ارضاء الجنود بدلا من ارضاء الشعب.. اما الآن فقد تغير الوضع بالنسبة إلى جميع الأمراء - باستثناء خاقان الترك والسلطان - حيث أن ارضاء الشعب أصبح امرا أكثر ضرورة من ارضاء الجنود، إذ أن فى إمكان الشعب أن يعمل أكثر من الجنود. وقد استثنينا سلطان الترك لأنه دائما يحيط نفسه بما يزيد على اثنى عشر الف جندى من المشاة، بالاضافة إلى خمسة عشر الفا من الفرسان. وعلى هؤلاء ترتكز دعائم دولته وامنها وقوتها. ولذلك فإن من واجبه أن يرجئ - فى سبيل ارضائهم - أى اعتبار اخر. وهذا ما نراه منطبقا تماما على مملكة السلطان، إذ أن اعتمادها كلية على الجنود،



يحتم عليه ويجبره على الاحتفاظ بصداقتهم وودهم، دون أن يكترث فى قليل أو كثير بالشعب واحواله.

ونرى أنه من الجدير بنا ملاحظة أن دولة السلطان تختلف ـ كليا وجزئيا ـ عن دول الأمراء الآخرين، إذ أنها تشبه البابوية المسيحية من حيث استحالة تسميتها بالملكة الوراثية، أو الملكة المستحدثة، ذلك لأن ابناء الأمير المتوفى لا يخلفونه على العرش، وانما يخلفه من ينتخبهم اصحاب الشأن والسلطة لهذا المنصب. ولما كان هذا النظام قديما، فإننا لا نستطيع أن نصف الملكة بالجديدة، إذ اننا لا نجد فيها المصاعب والمشاكل التى تواجه الدولة الحديثة، على الرغم من جدة الأمير، وذلك لقدم القوانين والانظمة فى بلاده وكأنها قد اعدت لاستقباله وكأنه سلطان وراثى.

ولنعد إلى موضوعنا الآن، حيث أن من يدرس آراءنا التى سبق أن ذكرناها يرى أن الكراهية أو الرزاية كانتا دائما العامل الابرز والاقوى فى سقوط الاباطرة وانتهاء حياتهم نهاية مأساوية، وسيلاحظ كذلك كيف أن بعضهم قد انتهج فى اعماله هذا السبيل، بينما سلك البعض الآخر نهجا مغايرا، وقد انتهى بعضهم فى كلتا الحالتين نهاية سعيدة، فى حين انتهى البعض الآخر نهاية كان فيها دماره. ولما كان بيرتينكس وأليكساندر حاكمين جديدين، فقد كان من المؤذى والضار لهما أن يعملا على تقليد ماركوس الذى كان وراثيا. وهذا الحال نجده منطبقا كذلك على كراكلا وكومودوس ومكسيمينوس، حيث كان من الشقاء والويل لهم أن يقلدوا سيفيروس، برغم افتقارهم إلى الكفاءات اللازمة للاحتذاء بحذوه. وهكذا نجد أنه من الصعوبة بمكان على الأمير الجديد أن يعمل على تقليد اعمال ماركوس فى إمارته، كما يجب إلا يقلد اعمال سيفيروس، وكل ما يجب عليه فعله أن ياخذ عن سيفيروس تلك الامور اللازمة



لتأسيس دولته، وعن ماركوس الاعمال التى تجلب له المصالح والمنافع، وتمجده فى الحفاظ على دولة قوية الاسس والاركان.

●●

المحافظة على العهود

لا شك فى أن الصفات المحمودة للامير - ويدركها كل إنسان - أن يكون صادقا فى وعوده وعهوده التى يقطعها على نفسه، وان تكون حياته قائمة على الشرف والنبل والاخلاق الحميدة، لا المكر والدهاء والخديعة. واذا نظرنا بامعان فى تجارب العصر الذى نعيشه، فإننا نجد أن الأمراء الذين استطاعوا القيام باعمال جليلة وعظيمة لم يهتموا كثيرا بعهودهم والوفاء بها، وتمكنوا - عن طريق المكر والدهاء - من الضحك على عقول الرعايا وإرباكها. واستطاعوا - أخيراً - التغلب على اقرانهم من الذين جعلوا الاخلاص والوفاء رائدهم الذى يقودهم فى حياتهم.

وعلينا أن ندرك أن ثمة سبيلين للقيام باعمال القتال، أحدهما بواسطة القانون، والاخر عن طريق اللجوء إلى القوة والبطش، واذا ما نظرنا إلى البشر نجد انهم يلجئون إلى الطريق الاول، اما الحيوانات فتلجأ إلى الطريق الثانى ولكن لما كانت الطريقة الاولى غير كافية لتحقيق الاهداف التى يصبو الأمير إلى تحقيقها، فإن عليه أن يلجأ - تبعا لذلك - إلى الطريقة الثانية. ونجد أنه من اللازم والضرورى للامير أن يعمل على استخدام كلتا الطريقتين معا، أى طريقتى الإنسان والحيوان، ولذلك نجد أن قدماء الكتاب قد نصحوا الحكام فى الماضى باستخدام الطريقتين، مستشهدين بأخيل وغيره من الأمراء القدامى الذين عهد بهم شيرون القنطور الخرافى (حيوان) لتربيتهم وتعليمهم على نظامه. وهذا الرمز



الخرافى نصف الإنسان ونصف الحيوان، قُصد منه أن يشير إلى أن الأمير يجب عليه أن يتعلم الطبيعتين الإنسانية والحيوانية، وان إحداهما لا يمكن أن تعيش بدون الاخرى، بل يجب أن تسيرا جنبا إلى جنب.

وفى رأينا أن الأمير الذى يجد نفسه مجبرا على تعلم طريقة عمل الحيوان، عليه أن يقلد الثعلب والاسد معا، إذ اننا إذا نظرنا إلى الاسد نجد أنه لا يستطيع حماية نفسه من الشرك الذى ينصب له،والثعلب يفشل فى الدفاع عن نفسه اثناء مواجهة الذئاب، ولذلك يتحتم عليه - الأمير - أن يتصرف كالثعلب حتى يتمكن من تجنب الفخاخ، وكالأسد حتى يستطيع إرهاب الذئاب. ولذلك نجد أن الذى يرغب فى أن يكون مجرد اسد ليس الا، لا يفهم هذا وعلى الحاكم العاقل اللبيب المتبصر إلا يعمل على المحافظة على عهوده ووعوده عندما يجد أن هذه المحافظة تؤدى إلى الحاق الضرر بمصالحه، وان الاسباب التى حملته على اعطاء هذه الوعود لم تعد قائمة. ولو كان جميع الناس طيبين، فإن هذا الرأى لا يكون طيبا، ولكن بالنظر إلى انهم على درجة عالية من السوء، وبالتالى لن يحافظوا على عهودهم تلك، فإن الأمير لا يكون ملزما بالمحافظة على عهوده لهم. والأمير الذى يتنكر لوعوده لا يعدم الحجج والمبررات لذلك، متخذا من ذلك ذريعة مشروعة لتحقيق هذه الغاية. وفى وسعنا أن نورد العديد من الامثلة العصرية على هذه الحقيقة، وان نوضح كم من المرات التى تنكر فيها الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات اضحت عهودهم التى قطعوها على انفسهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها. وبإمكاننا أن نؤكد ونبرهن أن الذين نجحوا أكثر من غيرهم هم أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليدا جيدا. ولكن الأمير الذى يتصف بهذه الصفة يكون من الضرورى عليه إلا يعمل على اظهارها، بل

يجب أن يجيد اخفاءها عن الناس، وان يكون مداهنا كبيرا ومرائيا عظيما. ولما كان من طبيعة الناس أن يكونوا من السهولة والبساطة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، فإن من يتقن فن الخداع يجد دائما من هم على استعداد لأن تنطلى عليهم خديعته.

وسنكتفى بذكر مثال واحد فى عصرنا؛ فالبابا أليكساندر السادس لم يقم بأى عمل سوى خداع الآخرين، ولم يكن يشغل تذكيره إلا ذلك الامر، وكان الحظ بجانبه دائما، حيث كان يجد دائما الفرصة للنجاح فى خداعه الآخرين. ولم يوجد من يفوقه مهارة فى تقديم الوعود، واغداق التأكيدات، وكان يدعم ذلك بالأيمان المغلظة، فى الوقت الذى لم يكن هناك من هو اقل منه تمسكا بها. ومع ذلك فقد تمكن من تحقيق النجاح دائما فى خداعه، حيث أنه كان يتقن هذه الطريقة فى معالجته للامور.

وليس من الضرورى - تبعا لذلك - أن يتصف الأمير بكل الصفات التى ذكرناها، ولكن من الاهمية بمكان أن يتظاهر - على الاقل - بوجودها فيه. وقد تجرؤ على القول بان حيازة هذه الصفات وتطبيقها على الدوام قد يؤديان إلى تعرض الأمير للاخطار، اما التظاهر بحيازتها فكثيرا ما يكون امرا مجديا ونافعا. وهكذا من الحكمة والفطنة أن يتظاهر بالرحمة واللين وحفظ العهود والشعور الإنسانى النبيل والاخلاق الحميدة والتدين، وان يكون فعلاً متصفا بها. ولكن عليه أن يُعد نفسه - عندما تدعو الحاجة والضرورة - ليكون متصفا بعكسها تماما. ولابد أن نعى جيدا أن الأمير - لاسيما الأمير الجديد - لا يستطيع أن يتمسك بكل هذه الامور التى تبدو خيرة بنظر الناس، إذ أنه سيجد نفسه مجبرا - حتى يحافظ على إمارته - على أن يعمل خلافا للاخلاص للعهود التى قطعها على نفسه، وللرأفة واللين والإنسانية والدين. ولذلك فمن الضرورى أن يكون متيقظا دائما،



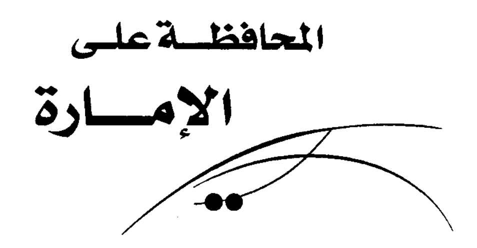
ويجعل عقله مستعدا للتكيف مع الرياح، ووفقا لما تمليه عليه اختلافات الحظوظ، والا يتنكر لما هو خير ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إذا امكنه ذلك، شريطة إلا يُنزل الاساءة والشر إذا ما اضطر إلى ذلك.

ويجب على الأمير أن يكون حريصا فى اقواله، بحيث لا يفضح نفسه بما يتناقض مع هذه الصفات التى اشرنا اليها، وان يعمل على أن يظهر ذلك للناس، وان يروا الرحمة مجسدة فيه، بالاضافة إلى الوفاء بالعهود والنبل والإنسانية والتدين. ولعل هذه الصفة الاخيرة هى اكثرها لزوما وضرورة، لأن الناس ذعموما ـ يحكون بعيونهم أكثر من ايديهم، ولان فى إمكان أى إنسان أن يرى، بينما لا يشعر إلا القليلون، فكل الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو صورته لهم، اما القلة منهم فهم من يحسون حقيقتك، وسوف تتردد هذه القلة فى معارضة رأى الاغلبية الذين يعتمدون على جلال الدولة فى الدفاع عنهم، وفى اعمال جميع الناس، وخاصة الأمراء، وهذه حقيقة لا جدال فيها تبرر الغاية الواسطة. واذا ما اراد الأمير أن يحتل دولة ما، فعليه أن يحافظ على تلك الدولة، فجميع الناس سيعتبرونه مثالا للشرف، وما ذلك إلا لأن الدهماء تغرهم المظاهر والاحداث ونتائجها، والعالم يتكون فى معظمه من الدهماء، اما القلة الذين يرون ما لا يراه الدهماء فنجدهم معزولين عن الناس عندما يقرر المجموع شيئا لمصلحة اميرهم. وهناك أمير معين يعيش فى عصرنا ـ يجدر بنا إلا نذكر اسمه ـ جعل همه وغايته الدعوة إلى السلام والوفاء للعهود والمواثيق، بينما حقيقته غير ذلك؛ إذ هو عدو لهما، ولو قدر له أن يرعى احدهما لاضاع دولته وسمعته فى كثير من المناسبات التى تعرض لها.

■■■



المحافظـة علـى الإمـــارة





تختلف الاساليب التى يتخذها بعض الأمراء والملوك للحفاظ على ممتلكاتهم باطمئنان وامان، حيث يتجه بعضهم إلى نزع السلاح من رعاياهم، فى حين يلجأ اخرون إلى الابقاء على الاراضى التى يحتلونها مجزأة، وهناك من يحاولون تهدئة الحزازات التى تكمن ضدهم، بينما ثمة اخرون يعملون على كسب من كانوا يشكون فى صدق ولائهم عند بداية حكمهم إلى جانبهم. وبالنظر إلى بعضهم فى هذا الأمر نجد انهم اقاموا القلاع والحصون فى حين عمد اخرون إلى هدمها وازالتها. وبالرغم من صعوبة اصدار حكم جازم على هذه الامور دون الدخول فى تفاصيل الدولة التى تطبق فيها مثل هذه النصائح، فإننا سنتحدث بالقدر الذى يسمح لنا الموضوع بصورة عامة عنه.

ولا يعرف عن أمير جديد قط أنه لجأ إلى نزع السلاح من رعاياه، بل العكس هو الصواب، فهو يعمل على تسليحهم، حيث أن ذلك يضمن وجود هذه الاسلحة بجانبه، فمن كان منهم موضع شك وريبة أصبح مواليا مخلصا، ومن كان قائما على الولاء ظل على حاله، وبذلك تتحول الرعية عن تلك الطريق إلى مجموعة من المواطنين. ولما كان من الصعب تسليح جميع المواطنين، فإن اخفاء هذا الامتياز على البعض يمكن الأمير من

التعامل مع الآخرين بصورة أكثر امانا واطمئنانا. وعندما يدرك رجال الأمير هذا التمييز فى المعاملة، فإن ذلك يجعلهم أكثر التزاما تجاهه وتعلقا به. وبالنظر إلى الآخرينفإنهم يجدون له المبرر لفعل ذلك، جازمين بأن من تناولوا السلاح يتصفون بحكم الضرورة بمؤهلات اعظم من تلك التى يتصفون بها، بالاضافة إلى تعرضهم لاخطار اكبر ويواجهون بمسئوليات اضخم. اما إذا اقدم الأمير على نزع السلاح منهم،فإنه يشرع فى الاساءة اليهم، مبديا عدم ثقته فيهم، ويرجع ذلك إلى سببين اثنين؛ أولهما الجبن منه، وثانيهما افتقاره إلى ثقته بنفسه، وكلا السببين يولد الكراهية ضده. ولما كان من الصعب على الأمير أن يظل دون قوات مسلحة،فإنه سيجد نفسه مضطرا إلى اللجوء إلى المتطوعة المرتزقة وهى قوات حتى لو كانت منظمة،فإنها لن تكون كافية فى اعدادها للدفاع عنه إذا ما واجه اعداء اقوياء، بالاضافة إلى الرعايا الذين تشك فى صدق ولائهم اليه. ولهذا قلنا أن الأمير الجديد فى ولاية جديدة عليه أن يلجأ

ذ دائما - إلى تسليح رعاياه وتجنيدهم. ونحن أن نظرنا إلى التاريخ بعين فاحصة سنجد الكثير من الامثلة على ذلك.

ومن واجب الأمير - عندما يحتل دولة جديدة يضيفها إلى دولته السابقة - أن يعمل على نزع السلاح من رعايا تلك الدولة، وذلك باستثناء أولئك الذين وقفوا إلى جانبه عند احتلالها. وكذلك عليه - عندما تتاح له الفرصة ويحين الوقت المناسب - أن يُضعف من شأن هؤلاء الانصار ويجعلهم خانعين لا قيمة لهم، وان يعمل على ترتيب اموره، بحيث يضمن نقل السلاح إلى الدولة الجديدة والى جنوده الذين يعيشون فيها على مقربة منه. وقد سمعنا آباءنا والحكماء منا أن من الضرورى الابقاء على "بستويا" مجزأة خربة، وعلى "بيزا" دون قلاع أو حصون. ولهذا السبب

كانوا يثيرون الخلافات فى بعض المدن الخاضعة لهم، رغبة واملا منهم فى امتلاكها بصورة اسهل واهون.

وقد كانت هذه الطريقة مجدية ومفيدة فى تلك الايام، عندما كان توازن القوى قائما فى إيطاليا. اما بالنسبة لحاضرنا فإننا نرى أنها فكرة غير طيبة، إذ اننا نؤمن ايمانا قاطعا وجازما بان مثل هذه التجزءات التى تقوم على هذه الطريقة لا تجدى نفعا على الاطلاق، بل على العكس، حيث تجلب الاذى والضرر، إذ أنه عندما يزحف جيش الاعداءفإنهم يتمكنون من احتلال هذه المدن المجزأة والسيطرة عليها، وذلك لأن الاحزاب الضعيفة ستقف إلى جانبه، ولن يكون فى استطاعة الاحزاب الباقية أن تصمد.

ولا جدال فى أن البنادقة كانوا مدفوعين بهذه العوامل السابقة، وذلك عندما اثاروا حزبيات "الغويلف" و"الفيليبين" فى المدن الخاضعة لهم. وبالرغم من انهم لم يسمحوا لهذه الخلافات الحزبية بان تتفاقم حتى يصل الأمر حد سفك الدماء،فإنهم شجعوها، وذلك حتى ينشغل المواطنون والرعايا بخلافاتهم، وبالتالى لا يستطيعون أن يقوموا بأى عمل من شأنه أن يؤثر فى الاحتلال البندقى بالسلب.

لكن هذه الطريقة لم تُجدهم نفعا، حيث رأينا فريقا من هؤلاء الرعية يجدون ـ بعد هزيمة "فابيلا" ـ الشجاعة الكافية للاستيلاء على الدولة كلها. ومثل هذه الاساليب توحى بالضعف الذى يتملك الأمير، حيث اننا نرى أن الحكومة إذا كانت تتسم بالقوة فلن تسمح بظهور هذه الخلافات. وعلى الجانب الآخر نجد أنها قد تكون مجدية فى ايام السلم، إذ يكون من السهل على الأمير ادارة شئون مواطنيه، ولكن عندما تنشب الحروب فإن نفع هذه السياسة سرعان ما يتبدد.



وعندمـــا يتــغلـب الأمــراء على كل مـــا يقـــابلهم من مـــصـــاعب واضطرابات،فـإنهم ـ بلا شك ـ يصبـحـون عظامـا. ولذلك فـإن الحظ عندما يعلى من شأن أمير جديد فى حاجة إلى الحصول على الشهرة العالية أكثر من زميله الأمير الوراثى يخلق له الاعداء، ويجبره على شن الحروب ضدهم، ويمكنه بعد ذلك من كسر شأفتهم ليرتقى إثر ذلك عاليا السلم الذى وضعه اعداؤه ومناوئوه فى طريقه. وتبعا لذلك فإن الكثيرين يؤمنون بان على الأمير العاقل اللبيب إذا اتيحت له الفرصة أن يخلق عـداوات له، حـتى إذا مـا قـهـر اعـداءه ضـاعف من عظمـتـه وشأنه.ونجد أن كثيرا من الأمراء، خاصة الحديثين منهم، يجدون ولاء وجدوى ونفعا أكثر فى أولئك الرجال الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة كلها شك وريبة فى بداية عهدهم من أولئك الذين أولوهم صداقتهم وثقة. وقد رأينا أن أمير سينيا (باند لغوا بتروشى) قد حكم مقاطعة بمعاونة أولئك الذين كان يشك فى ولائهم له وبواسطتهم. ويكفى أن نقول أن هؤلاء الذين كانوا فى كفة العداء له للحكومة الجديدة يكون اجتذابهم إلى صفوف الأمير بكل سهولة ويسر، لاسيما إذا كانوا من النوع الذين يكونون فى حاجة إلى مثل ذلك الدعم للحفاظ على مراكزهم، وسوف يجد الأمـيـر منهم ـ دائما ـ عونا اكبر من الذى يقدمه أولئك الذين يقومون على خدمته وهم مطمئنون، فيهملون مصالحه.ولما رأينا أن ذلك الموضوع فى حاجة إلى الحديث باستفاضة، فلن نتوانى عن تذكير الأمير ـ أى أمـيـر ـ الذى قـام باحـتـلال دولة مـا حـديثـا عن طريق المساعدة والمعاونة الخفية التى قدمها له اهلها، بان من الضرورى عليه أن يقوم بدراسة الدوافع والاسباب التى جعلتهم يُقدمون على تقديم المساعدة له.. ونحن إذا مـا قـمنـا بدراسـة أسـبـاب ذلك ـ على ضـوء الامـثلة التى قـد



نستخلصها من الازمنة القديمة والحديثة - لوجدنا أن من الايسر والاسهل على الأمير أن يفوز بصداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الاوضاع القديمة، وكانوا - تبعا لذلك - من الاعداء فى البداية، من صداقة من كانوا ناقمين الذين أصبحوا من اصدقائه، وقاموا بتقديم المساعدة والعون له حتى أتم احتلال دولتهم.

وقد رأينا أن من عادة الأمراء - حتى يتمكنوا من الحفاظ على دولهم بأمان وسلام - أن يعملوا على اقامة القلاع والحصون حتى يستطيعوا صد اطماع الراغبين فى احتلال اراضيهم، وكملجأ يأوون إليه إذا ما تعرضوا لهجوم مباغت. ونحن نوافق على هذه الطريقة التى استعملت منذ اقدم العصور، ومع ذلك فقد رأينا السيد نيكولو فيتيلى - فى عصرنا هذا - يدمر قلعتين فى سيتا دى كاستيلو، وذلك لرغبته فى الحفاظ على تلك الدولة. وعندما عاد غيدو بالدو (دوق أوربينو) إلى مقاطعته التى كان قد طُرد منها على يد قيصر بورجيا، هدم جميع القلاع فى تلك المقاطعة، معتبرا أنه بذلك سيكون من الصعب عليه أن يخسر مقاطعته من جديد. وكذلك قام افراد اسرة بتيفوغلى - عند عودتهم إلى بولونا - باعمال مماثلة.

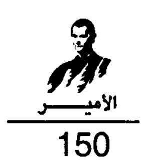
ولذلك فإن جدوى هذه القلاع والحصون أو عدم جدواها إنما يعود إلى الاوضاع والازمنة،فإنها قد تجدى وتنفع من ناحية، وقد تكون سببا فى جلب الضرر والاذى من ناحية اخرى. ولذلك فإننا نرى أن نتناول الموضوع على الشكل التالى: أن على الأمير الذى يكون فى وضع يجعل خشيته من شعبه ورعاياه أكثر من خشيته من الاجانب، فإن عليه أن يقيم القلاع والحصون التى يمكنه اللجوء اليها إذا ما ثار شعبه ضده وعمت الفوضى والاضطرابات ارجاء دولته. ومن ناحية أخرى فإن الأمير الذى



يخشى الاجانب أكثر من رعاياه، ففى إمكانه أن يستغنى عن اقامة تلك القلاع والحصون، حيث إننا نرى أن قلعة ميلان التى بناها فرانسيسكو سفورزا كانت مصدر ازعاج وقلق لعائلة سفورزا أكثر من أى اضطراب آخر فى الدولة.

وعلى ذلك فإننا نرى أن خير القلاع والحصون التى يقيمها الأمير، إنما تكون فى أفئدة شعبه وقلوبهم، ذلك أن الأمير إذا كان شعبه يكرهه ويبغضه فإن القلاع التى يقيمها لن تجدى له نفعا إذا ثار شعبه ضده، حيث أن الرعايا فى هذا الوضع لن يعدموا انصارا من الاجانب يسارعون إلى تقديم العون لهم. ولم نر لهذه القلاع اية فائدة تذكر فى عصرنا لأى أمير من الأمراء، وذلك إذا استثنينا ما حدث لكونتيسة فورلى بعد وفاة زوجها الكونت جيرولامو، حيث تمكنت - عندما ثار الشعب وعمت الفوضى والاضطرابات ارجاء البلاد - من اللجوء إلى قلعتها، حتى وصلها العون والمساعدة من ميلان، وبذلك استطاعت أن تستعيد إمارتها، خاصة أن الظروف والاوضاع آنذاك لم تمكن أى اجنبى من تقديم المساعدة للشعب. فى حين أن هذه القلاع لم تُجدها نفعا عندما قام قيصر بورجيا بمهاجمتها، مما دفع الشعب المعادى لها إلى التحالف مع الاجنبى ضدها. وهكذا نجد أنه كان من الخير والانفع لها أن تعمل على أن يحبها الشعب ويميل اليها، حتى يكون - الشعب - خير سند لها عندما يهاجمها أى جيش اجنبى، بدلا من أن يكون كارها مبغضا لها، مما جعلها تلجأ إلى الحصون والقلاع، حيث لم يُجد ذلك لها نفعا - كما اسلفنا القول. ولهذه الاسباب كلها، فإننا نطرى كل من يقيم القلاع، وكل من لا يقيمها، ونوجه سهام اللوم والعتاب إلى كل من يضع فيها ثقته الكاملة، ولا يهتم بكراهية شعبه أو حبه.

●●



اذا أراد الأمير أن يصل إلى منزلة التقدير والاجلال، وان يكون مهابا فى عيون شعبه، فلا شىء يحقق له ذلك إلا اقدامه على اقامة المشاريع العظيمة، وان يقوم بالاعمال التى من شأنه أن تكون دليلا على قوته وشجاعته. واذا اردنا أن نأخذ مثالا معاصرا على صحة كلامنا، نجد أن فرديناند - ملك الأرغوان والملك الحالى لأسبانيا - يصح أن يكون لقبه "الحاكم الجديد"، وذلك لأنه ارتقى من منزلة ملك صغير إلى قمة المجد والشهرة، ليصبح ملك المسيحية الاول. واذا ما قمنا بدراسة اعماله وجدنا فيها العظمة ظاهرة واضحة، حيث أنها كلها اعمال جليلة، فقد بدأ عهده بمهاجمة غرناطة، فاستطاع - بهذه المغامرة - أن يضع الحجر الاساسى فى مملكته. وكان يعمل فى البداية فى اوقات فراغه ووفقا لاهوائه، دون أن يخشى تدخلا من احد، الأمر الذى جعل الحيرة تتملك عقول نبلاء قشتالة، حتى انهم من جراء حصر تفكيرهم فى الحرب، لم يجدوا الوقت الكافى للتفكير باى ابتكار أو ابتداع. وهكذا نجد أنه استطاع تحقيق الشهرة التى ارادها لنفسه، أيضاً نجده حقق السلطان عليهم دون أن يشعروا بذلك فى بادئ الامر. وتمكن - عن طريق الاموال التى اخذها من الكنيسة، بالاضافة إلى التى جمعها من الشعب - من المحافظة على جيوشه وقواته، ومن خوض تلك الحرب الطويلة، التى استطاع - عن طريقها - أن يضع اسس قوته العسكرية، والتى أتاحت له الفرصة للشهرة وذيوع الصيت فيما بعد.

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك، أنه رغبة منه فى القيام بمشاريع اضخم واكبر، وتحت ستار الدفاع عن الدين، عمد إلى اللجوء إلى الاضطهاد الدينى، حيث قام بطرد العرب من مملكته، وسلبهم كل ما يمتلكون. وقام بمهاجمة إفريقيا متخذا نفس الذريعة، وقام بمغامرته



الايطالية، وشرع اخيرا فى الهجوم على فرنسا. وهكذا نرى أنه كان دائما يبتدع المشاريع العظيمة الضخمة، الأمر الذى حير عقول رعاياه وأذهلهم، وجعلهم فى انشغال دائم بالتطلع إلى النتائج وانتظارها. وكانت هذه الاعمال متعاقبة متتالية، مما لم يترك مجالا لأى إنسان كى يشعر بالاستقرار، ويبدأ فى اتخاذ عمل ضده.

وعلى الأمير الذى يعمل على علو شأنه بين رعاياه أن يقدم بعض الامثلة على عظمته فى الادارة الداخلية - كما سبق واوضحنا الاعمال التى قام بها السيد برنابو فى ميلان - وعندما يقوم أحد الناس بعمل خارق، سواء فى خيره أو فى شره فى الحياة المدنية، فعلى الأمير أن يجد الطريقة المناسبة لمكافأة هذا الإنسان أو معاقبته، بحيث يتحدث المواطنون عن ذلك زمنا طويلا. وعلى الأمير - بالاضافة إلى ذلك كله - أن يحاول الحصول على اشتهار امره بالعظمة والتفوق فى جميع الاعمال التى يقوم بها.

ويلقى الأمير كذلك بالغ الاحترام إذا اكد - بأفعاله - أن يكون صديقا مخلصا أو عدوا لدودا، وهذا يعنى أن يعلن - بلا تحفظ - حبه وعطفه على إنسان ما، وعداءه لإنسان اخر. ولا جدال فى أن هذه السياسة افضل على الدوام من البقاء على الحياد، بحيث أن حدث واشتبكت دولتان متجاورتان للامير، فمن الضرورى أن يقف منهما ذلك الموقف الذى يؤدى إما إلى الخوف من الدولة المنتصرة. وأما عدم الخوف منها. وفى كلتا الحالتين يخلق به أن يعلن عن موقفه بصراحة ووضوح، وان يخوض الحرب؛ إذ أن عدم خوضه اياها فى الحالة الاولى يجعله فريسة للمنتصر من السهل القضاء عليها، الأمر الذى يبعث فى نفس المهزوم الرضا والبهجة والسرور. وفى هذه الحالة لن يجد الأمير مبررا للدفاع



عن موقفه، كما أنه لن يجد احدا يرحب به، ذلك لأن المنتصر - ايا كان - لا يرغب فى اتخاذ اصدقاء كى يعتمد عليهم فى حين أنه لا يطمئن اليهم، ولا يسارعون إلى مساعدته إذا مرت به اوقات شدة. اما المهزوم فلن يرحب به، لأنه - الأمير - لم يخض المعركة إلى جانبه دفاعا عن قضيته.

وقد وجدنا الآيتوليين يطلبون من انطيوخوس المجيء إلى بلاد اليونان لطرد الرومان منها، فلبى طلبهم. وقام انطيوخيوس بارسال الرسل والخطباء إلى الآخيين - اصدقاء الرومان - يحثهم على البقاء على الحياد، بينما نجد أن الرومان قد اقنعوهم بخوض المعركة إلى جانبهم. وانتقل الموضوع إلى مجلس الآخيين لمناقشته. وعندما قام سفير انطيوخيوس يحاول اقناعهم بان يكونوا على الحياد رد عليه السفير الرومانى قائلاً: "ليس ابعد عن الحقيقة مما استمعتم إليه من قول. من الاجدى والافضل لدولتكم عدم التدخل فى الحرب، إذ أن عدم تدخلكم فيها سيجعلكم مفتقرين إلى كل عطف وسمعة، بالاضافة إلى انكم ستبصرون حتما الجائزة التى يحصل عليها المنتصر ايا كان".

ونجد أنه يحدث دائما أن من لا يكون صديقا لك ، يريد منك أن يكون موقفك على الحياد. اما صديقك فيريد منك أن تحمل السلاح وتقف إلى جانبه فى الحروب التى يخوضها. ويلجأ الأمراء الذين يتسمون بالتردد عادة - رغبة منهم فى تجنب الاخطار وابعادها عنهم - إلى اتباع طريق الحياد، الأمر الذى يؤدى - حتما - إلى دمارهم. ولكن عندما يقف الأمير إلى أحد الطرفين، ويعلن ذلك بصراحة، واذا قدر لهذا الطرف أن ينتصر، فإنه - وعلى الرغم من قوته ومن بقاء الأمير تحت رحمته - يشعر بنوع من الالتزام تجاهه، إذ انهم يرون أن صداقة



قوية ومتينة قد قامت بينهم، وليس من طبائع الناس - - عادة - أن يتنكروا للشرف، أو أن يضطهدوا من قام بالوقوف جانبهم وساعدهم. بالاضافة إلى أن الانتصارات لا تكون عادة من ذلك النوع من النجاح الذى يُنسى المنتصر ضميره، لاسيما بالنسبة إلى القضايا العادلة. اما إذا هُزم من تحالف معك، فسوف تجد المأوى لديه، وسيهب لنجدتك ما استطاع إلى ذلك سبيلا. اما إذا كان المتحابان من الضعف بحيث لا يشكل الطرف المنتصر خطرا عليك، وانما الخطر يكون عندما تتخذ موقفك بجانب أحد الفريقين، إذ انك بذلك تعمل على دمار أحدهما بمساعدة الآخر الذى تحتم عليه الضرورة - لو كان عاقلا - أن ينفذه. اما إذا كان النصر من نصيب حليفك، فسوف يكون تحت رحمتك، إذ أنه يكون من الصعب عليه أن يحتل بدون مساعدتك وعونك.

ويجب علينا أن نوضح ونبين هنا أن على الأمير إلا يُقدم على الارتباط فى قضية مشتركة مع من هو اقوى منه من الأمراء، رغبة فى الحاق الضرر والاذى بأمير ثالث، إلا فى حالة واحدة فقط، وهو أن تجبره الضرورة على فعل ذلك - كما سبق واسلفنا - إذ أن انتصار من اشتركت معه لابد أن يجعلك واقعا تحت رحمته. ولذلك فعلى الأمراء أن يتجنبوا بكل ما أوتوا من قوة الوقوع تحت رحمة غيرهم وارادتهم واهوائهم. وقد رأينا أن البنادقة قد تحالفوا مع الفرنسيين ضد دوق ميلان، مع أنه كان فى استطاعتهم أن يتجنبوا مثل هذا التحالف الذى ادى فى نهاية الأمر إلى دمارهم وهلاكهم، اما إذا لم يكن هناك من بد لفعل ذلك، كما حدث من الفلورنسيين مثلا، عندما اشترك البابا وملك أسبانيا فى الهجوم بجيشيهما على لومبارديا، فإن على الأمير أن يشترك فى القتال للاسباب التى ذكرناها آنفاً.

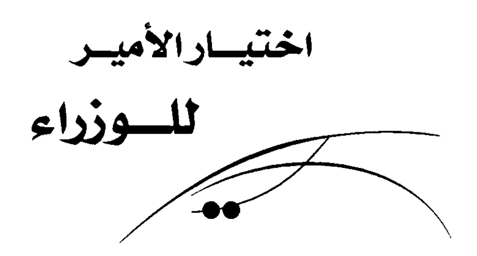


وعلى كل دولة إلا تبالغ فى الإطمئنان إلى سيادتها، بل من الواجب والضرورى أن تضع الشكوك دائما نصب اعينها؛ حيث اننا نجد أن من طبيعة الامور مثلاً إلا يحاول إنسان ما تجنب احدى المصاعب، إلا ويجد امامه صعوبات أخرى عليه مواجهتها. ولكن الفطنة والكياسة تحتمان عليه أن يميز طبيعة تلك الصعوبات، وان كان لابد من مواجهتها فيجب أن يواجه اقلها ضرراً وأذى.

ولا جدال فى أنه على الأمير أن يُظهر نفسه ميالا دائما إلى اصحاب الجدارة والكفاءة العالية، وان يُفضل المقتدرين ويقدرهم، ويقوم بتكريم النابغين فى كل فن. ويجب عليه أن يشجع مواطنيه ورعاياه على المضى فى اعمالهم، سواء كانت هذه الاعمال فى التجارة ام الزراعة... إلى آخر هذه المهن التى يمتهنها الناس. وبهذه الطريقة نجد أن الرعايا لا يتوانون عن تحسين ما يملكونه وتجويده مخافة أن يفقدوه. وعلى الأمير إلا يتقاعس عن تقديم المكافآت لكل من يعمل فى هذه المجالات، ولكل من يسعى - بمختلف السبل - لتحسين مدينته أو دولته. وبالاضافة إلى كل ما سبق عليه - فى الفضول المناسبة من السنة - أن يشغل الرعايا بالاعياد، بالاضافة إلى مختلف العروض المسرحية وغيرها. ولما كانت المدينة أو الدولة مكونة من طبقات مختلفة، فإن من الضرورى عليه أن يُظهر الاهتمام بهذه الطبقات جميعها، وان يختلط بأفرادها من وقت إلى اخر، وان يقدم لهم الامثلة على إنسانيته ووجوده، وذلك مع الاحتفاظ بجلال منصبه ووقار مكانته وسلطانه، وألا يسمح - على الاطلاق - بأى شىء من شأنه التأثير فى ذلك المنصب وتلك المكانة مهما كانت الاسباب.

■■■

اختيـار الأميـر للـــوزراء



وهناك طريقة تمكن الأمير من اختبار وزيره ومعرفة نواياه إذا كانت طيبة أو شريرة، وهى طريقة لا يعرف الخطأ سبيلا اليها؛ فإذا رأى الأمير أن وزيره يفكر بنفسه أكثر من تفكيره بأى شىء آخر من امور الدولة، وانه يعمل على انجاز مصالحه ومنافعه الخاصة، فإن مثل هذا الرجل لا يكون صالحا للاعتماد عليه، حيث أنه لا يكون وزيرا نافعا، إذ أن من تُعهد إليه مهام دولة الآخرين للقيام بها يجب إلا يفكر بنفسه قط، وانما بالأمير، وألا يكترث باى شىء إلا فيما يتعلق بالأمير. وعلى الأمير - بدوره - لكى يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه له أن يفكر به، وان يغدق عليه المنح والعطايا ومظاهر التكريم، مبديا له العطف، ومانحاً اياه الشرف والرفعة، وان يعهد إليه بالمناصب ذات المسئوليات الجسام التى تبين له - الوزير - مدى الثقة التى يوليها له الأمير، بحيث تكون هذه المنح والعطايا المغدقة عليه كافية، لا تحمله على الطمع فى ثروات الآخرين، أو العمل على اكتساب القاب جديدة، وبحيث تكون المناصب التى يشغلها والمهام التى توكل إليه مهمة إلى الحد الذى يخشى على ضياعها. وعلى ذلك فإنه عندما تسود مثل هذه العلاقة بين الأمراء ووزرائهم، يضحى كل فريق منهما معتمدا على الفريق الاخر. اما إذا كانت تلك العلاقة على



النقيض من ذلك، فإن النتيجة فى نهاية الأمر هى الضرر والاذى لكلا الفريقين.

●●

الأمير والمنافقين

نتحدث الآن عن موضوع غاية فى الاهمية لا يستطيع الأمراء - إذا لم يكونوا من الذين يتصفون بالعقل والحكمة، أو إذا أساءوا الاختيار - أن يتجنبوه إلا بصعوبة بالغة. وهذا الموضوع يتعلق بالمنافقين المداهنين الذين تمتلئ بهم قصور الملوك والأمراء. واذا نظرنا إلى طبائع الناس نجد انهم يسرون ويعتزون بما يملكون، وان يخدعوا انفسهم بذلك. وهذا يجعل من الصعوبة بمكان عليهم وقاية انفسهم من هذا الوباء، حتى انهم إذا ما حاولوا هذه الوقاية تعرضوا لخطر الزراية. واننا لا نجد طريقة افضل للامير - حتى يقى نفسه من خطر النفاق والمداهنة - من أن يجعل الجميع يدركون انهم لن يسيئوا إليه إذا ما واجهوه بالحقيقة مهما كانت مرارتها. ولكن هناك شئ غاية فى الاهمية يجب أن يدركه الأمير، ألا وهو أنه إذا تجرأ كل إنسان على مجابهته بالحقيقة، فإن نتيجة ذلك أن يفقد احترامهم. ولذلك نجد أن الأمير العاقل اللبيب هو من يتخذ سبيلا ثالثا يسير على نهجه، حيث يختار لمجلسه أكثر الرجال حكمة وروية ورجاحة للعقل، وان يكون لهؤلاء فقط - دون غيرهم - حرية الحديث إليه ومجابهته بكل الحقائق، مع الوضع فى الاعتبار أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التى يسألهم عنها، ولا تتعداها. ولكن يجب عليه أن يسألهم ويستفسر منهم عن كل شئ، ويستمع - بإنصات كامل - إلى آرائهم فى كل شئ، وان يفكر فى الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة.



وعليـه أن يكون حـريصـا ـ كل الحـرص ـ فى هذه المجـالس ، ومع جـمـيع مـسـتـشـاريه، على أن يتـصـرف بالشكل الذى يجـعل هؤلاء المسـتـشـارين واثقين تمام الثقة بانهم كلما عبروا عن آرائهم بصراحة واخلاص، كان الأمير راضيا عنهم تماما. وعليه بعد ذلك ألا يستمع إلى أى إنسان، بل يقوم بدراسة الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه، ثم يتخذ قراراته التى لا يتراجع عنها. اما الأمير الذى يسير على نهج مغاير، حيث يسمح لنفسـه بان يتـأثر بآراء المداهنين والمنافـقـين، أو يتـراجـع عن قـراراته ويبدلها وفقا للآراء المتعددة التى تطرح عليه،فإنه لن يجنى من وراء ذلك سوى فقدان الاحترام والتقدير.

وسوف نأتى بمثال حديث على الموضوع الذى نتحدث عنه؛ حيث اكد برى لوكا ـ أحد اتباع مكسيمليان الامبراطور الحالى ـ أن جلالته لم يستشر احدا قط فى أى امر من امور حياته، ومع ذلكفإنه لم يعمل شيئا قط وفق ارادته وهواه، وذلك لأنه يتبع دائما عكس الطريقة التى سبق أن شرحناها، إذ أنه لما كان رجلا خفيا، محاطا بالاسرار؛ حيث أنه لا يفصح عن مكنون نفسه للناس. ولا يقبل النصيحة من احد، ولكنه عندما يشرع فى تنفيذ ما نوى عليه، فإن هذه النوايا تأخذ فى الاتضاح وتتكشف للناس، وعندما يعترض عليها من حوله من الاتباع، يتحول عن تنفيذها ويبدل نواياه، وينجم عن ذلك أنه يناقض اليوم ما قام بعمله بالامس، وبالتالى لا يفهم أى إنسان ما يرغب فى عمله أو ينويه، وتنعدم الثقة فى مشورته وتفكيره.

وعلى ذلك فلا يجب على الأمير إلا يأنف من النصيحة التى يقدمها له وزراؤه ومستشاروه، أى أنه من الضرورى أن يقبل النصيحة دائما،



ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الاخرون، بل عليه إلا يشجع مطلقا محاولات من حوله لاسداء النصيحة إليه إلا إذا طلبها هو. ولكن عليه أن يكثر من سؤالها وطلبها، وان يصغى إلى الحقائق التى تسرد عليه عندما يسأل عنها وعليه أن يُظهر غضبه وامتعاضه إذا رأى أن أحد مستشاريه يتردد فى قول الحقيقة له.ولما كان من رأى بعض الناس أن الأمير الذى يشتهر امره بالتبصر والحكمة والروية لا تعزى شهرته إلى طبيعته، بل إلى خبرة المستشارين الذين يلتفون من حوله وينصحونه بآرائهم، فإننا نؤكد أن هذا الرأى خاطئ تماما؛ حيث أن القاعدة التى لا تقبل الاستثناء أن الأمير البعيد كل البعد عن الحكمة والتعقل لا يمكن أن يشار عليه بطريقة صالحة، إلا إذا ترك نفسه عرضا، وبصورة كلية، بين يدى شخص واحد يتحكم فيه تحكما كليا، وكان هذا الشخص عاقلا متبصرا. وبالنظر إلى هذه الحالة نجد أن الأمير قد يحكم حكما يتسم بالصلاح والعدل، ولكننا نرى أن هذا الأمر لن يدوم طويلا؛ حيث نجد أن الحاكم بأمره سرعان ما يعمل على انتزاع سلطانه ودولته منه. واذا لجأ هذا الأمير البعيد عن الحكمة والتعقل إلى استشارة الكثيرين،فإنه لن يجد المشورة الجماعية المتحدة متوافرة له، ولن يكون فى استطاعته أن يوحد بين الآراء التى تشار عليه، لتكتسب صفة الاجماع. وسنجد أن المستشارين لا يلجأون إلا إلى التفكير فى مصالحهم، ولن يألوا جهدا فى سبيل تحقيق منافعهم وطموحاتهم وغاياتهم، غير عابئين بمصالح الأمير، بينما نجده فى حالة عجز شديد عن ردهم إلى السبيل السوى، أو حتى عن فهمهم. ولم يكن هناك بد مما ذكرنا، إذ أن من طبائع الناس وشيمهم أن يخادعوك ويداهنوك، إذا أُجبروا وأُرغموا - بسبب الحاجة الماسة والملحة - على أن يكونوا صادقين. وعلى ذلك فإن النتيجة التى نصل اليها



هى أن المشورة الصادقة الحكيمة حيثما جاءت، يجب أن يكون مرجعها لحكمة الأمير وتبصره، والا يخضع تبصر الأمير للمشورات التى تقدم اليه، مهما كانت صادقة.

●●

أسباب فقد الأمراء لدولهم

اذا اتبع الأمير الحديث العهد الامور التى سبق أن ذكرناها، وعمل بها بحكمة وروية وتبصر،فإنه تبدو عليه العراقة فى إمارته، وتكون نتيجة ذلك أن يصبح آمناً مطمئناً فى إمارته أكثر مما لو كانت له جذور عميقة وممتدة فيها. وقد جرت العادة أن يراقب الأمراء المحدثون أكثر من الأمراء الوارثين. وعندما يقوم الأمراء حديثو العهد بالاعمال الضخمة العظيمة التى من شأنها أن تجلب المصالح والمنافع للرعية يعترف الناس بفضائلهم، وبالتاليفإنهم ـ الأمراء ـ يكسبون الناس من حولهم، أكثر بكثير مما لو كانوا منَ اصحاب الدم الملكى العريق. فالناس تستهويهم شئون الحاضر الذى يعيشونه أكثر من شئون الماضى الذى فات وولى، وبالتالى فهم عندما تحقق لهم المنافع والمصالح ويشعرون بالرفاهية فى حياتهم تطيب نفوسهم وتهدأ، فلا يهتمون بالبحث عن أى شىء اخر، بل على النقيض من ذلك، حيث نجدهم يبذلون غاية ما فى وسعهم، ويضحون بالغالى والنفيس للدفاع عن اميرهم. وهكذا فإن الأمير المحدث يجنى مجدا مزدوجا، من اقامة دولة جديدة وبعث الازدهار والرخاء فيها، والعمل على تحصينها بالقلاع والحصون والاسلحة القوية والقوانين الصالحة والاصدقاء الطيبين والمثل الخيرة، فى حين أن عار الأمير الوارث مزدوجا، لأنه وُلد أميراً، وتسبب ـ لافتقاره إلى الحكمة والتبصر ـ فى اضاعة عرشه.



ولو قمنا بدراسة اوضاع واحوال أولئك الحكام الذين فقدوا مراكزهم وعروشهم فى إيطاليا فى ايامنا هذه، كملك نابولى ودوق ميلان وغيرهما، لوجدنا أن لديهم جميعا عيبا مشتركا، يتعلق بقوتهم العسكرية، على ضوء العوامل التى افضنا فى شرحها، ثم لرأينا بعد ذلك أن بعضهم لم يجن جراء تصرفاته الحمقاء سوى كراهية شعبه وعدائه. فى حين أن البعض الآخر - رغم حب الشعب وولائه له - لم يتمكن من الاعتماد على ذلك الحب والولاء. وبدون هذه العيوب لا تضيع الدول، خاصة إذا كانت لديها القوة الكافية التى تمكنها من الابقاء على جيش فى الميدان؛ ففيليب المقدونى - ولا نقصد به والد الإسكندر الكبير، بل الأمير الذى اخضعه تيتس كونيتيوس - لم تكن دولته تلك الدولة التى تقارن بعظمة روما واليونان اللتين هاجمتاه، ولكنه لما كان رجلا عسكريا عاقلا لبيبا، وكان على وعى وادراك كاملين بالطريقة المثلى فى تحبيب نفسه إلى الشعب والاطمئنان إلى الكبراء والوجهاء فى دولته - لما كان كذلك - فقد تمكن من احتمال اعباء الحرب وصعوباتها ضد الدولتين الكبيرتين على مدى سنوات طويلة. واذا كان فى النهاية قد فقد سيطرته على بعض المدن،فإنه ظل قادرا على الاحتفاظ بمملكته.

ولذا فإننا نرى أن على أمرائنا، الذين احتفظوا بممتلكاتهم سنوات طويلة، ألا يُرجعوا سبب فشلهم فى الحفاظ عليها إلى سوء الحظ، بل عليهم أن يلوموا انفسهم لتواكلهم وتكاسلهم وخنوعهم، لانهم لم يُعملوا تفكيرهم فى ايام الرخاء والسلام بان الامور قد تتبدل، خاصة أن هناك خطأ شنيعا شائعا بين الناس - أو على الاقل معظمهم - وهو أنهم لا يحسبون حساب العواصف عندما تكون الرياح هادئة. ولذلك وجدناهم - عندما حلت الساعات العصيبة - لم يفكروا بالدفاع عن بلادهم



وإماراتهم، بل كان جل همهم الفرار من مواجهة اعدائهم، آملين فى دعوة الشعب لهم يوما ما، عندما تستفزه حماقات الغزاة.

وقد يكون هذا الاجراء عند انعدام غيره امرا طيبا. ولكننا نرى أن من الحماقة والغباء اهمال العلاجات الأخرى وعدم الاخذ بها، والركون إلى هذا العلاج وحده والاعتماد عليه، إذ لا يوجد من يود أن يسقط عرشه ومركزه لاعتقاده أن إنسانا آخر سينقذه من سقطته وينتشله. وقد يقع هذا الانقاذ وقد لا يقع. ولكنه أن وقعفإنه لن يجلب الطمأنينة والسلامة، وذلك لأن هذا الأمير فشل فى انقاذ نفسه، واعتمد - كالجبان - على الآخرين فى إنقاذه من عثرته. ولذلك فمن الضرورى أن يعلم الأمير أن وسائل دفاعه لن تكون مجدية وموثوقة ودائمة. وبحيث يستطيع الاعتماد عليها، إلا إذا كانت قائمة على إمكانياته وكفاءته ومقدرته الشخصية.

●●

الكثيرين كانوا - ومازالوا - يعتقدون بأن الاحداث التى تجرى فى دنيانا يسيطر عليها القضاء والقدر، وان المتحكم فيها هو الله، وان ليس فى وسع البشر - عن طريق الحكمة والتبصر - تغييرها أو تبديلها، ولا يوجد علاج لذلك مطلقا، ولذا فإن الإنسان إذا ما قام بعمل شىء لرد ما حكم به القضاء ودفعه، فإن ذلك يكون جهدا غير مجدٍ، وان عليه أن يدع نفسه للامور تجرى به حيث تشاء وفقا لمشيئة الحظ. وقد كثر القائلون بهذا الرأى فى ايامنا هذه بسبب ما نراه من التبدلات والتغيرات التى تحدث فى الإمارات والممالك، والتى تفوق كل تصور بشرى. وعندما نفكر نحن فيما يتمذ مع ذلك - نعتقد أنه لا يجب تجاهل إرادتنا تجاهلا تاما.

وفى رأينا، أن من الحق أن يعزو الإنسان إلى القدر التحكم فى نصف اعمالنا التى نقوم بها، وانه ترك النصف الآخر - أو ما يقرب منه - لنتحكم



فيـه بانفـسنا. ونود هنا أن نشـبـه القـدر بالنهـر العنيف المندفع والمضطرب الذى يُغرق ـ فى حالته تلك ـ السهول والوديان ويقتلع الاشجار والابنية، وكل ما يجده فى طريقه، ويجتث الارض من ناحية ليقذف بها إلى ناحية اخرى، ولا يجد الناس طريقا للنجاة من ثورته العارمة سوى الفرار من امامه بكل ما أوتوا من قوة، إذ أنه ليس فى مقدور أحد مقاومته أو اعتراضه. ولكنه على الرغم من هذه الطبيعة القاسية تكون له طبيعة أخرى يعود فيها إلى الهدوء والسكون، وفى وسع الناس وإمكانهم عند ذلك أن يتخذوا ما يرونه مناسبا من الاحتياطات اللازمة والضرورية باقامة السدود والحواجز، حتى إذا ما اعترته ثورة عارمة مرة أخرى وارتفع، انسابت مياهه إلى أحد الاقنية، أو كان اندفاعه لا يجلب من الاضرار ما يكون شديدا قاسيا على الناس. وهذه هى الحالة ـ من وجهة نظرنا ـ مع القدر الذى يبسط قوته ويفرضها على البشر عندما تنعدم الاجراءات التى قد تتخذ لمقاومته، ويوجه ثورته وهيجانه إلى حيث لا توجد حواجز ولا سدود اقيمت فى طريقه لكبح جماحه.

واذا ما نظرنا بامعان إلى إيطاليا التى كانت مسرحا وارضا خصبة لهذه التبدلات والتحولات العظيمة، والتى دفعت الناس إلى أن يؤمنوا بهذا الرأى، لوجدنا أنها بلاد لا يتوافر فيها شىء من الحواجز والسدود مهما كان نوعها، ولو قدرت لإيطاليا الحماية بالوسائل الصحيحة ـ كما وجدنا فى المانيا واسبانيا وفرنسا ـ لقلنا أن هذا الفيضان ما كان ليقدر على احداث تلك التبدلات والتحولات العظيمة التى تسبب فيها، أو لما وقع الفيضان على الاطلاق.

ونعتقد أن فيما قلناه الكفاية عن طرق مقاومة القدر بصورة عامة. واذا ما اردنا تقييد انفسنا فى قضايا معينة، ففى إمكاننا أن نقول اننا

نرى اليوم اميرا معينا فى غاية السعادة والاطمئنان، ثم نراه غدا وقد تبدل حاله، إذ نجده تحطم دون أن يطرأ عليه تبدل فى طبيعته أو فى شىء اخر. واننا نعتقد اعتقادا جازما راسخا أن هذا التبدل والتحول إنما نجم من الناحية الاولى من الاسباب التى أوضحناها بإسهاب وتفصيل، وبمعنى اخر، لأن هذا الأمير قد اوكل امره كلية إلى القدر، فحطمه القدر عندما دارت عجلته، ولم يستطع هذا الأمير أن يواجه هذا النهر العنيف الهادر.

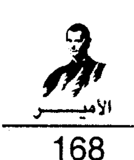
ونحن نعتقد كذلك ونؤمن بسعادة ذلك الإنسان الذى توافقت إجراءاته والاحتياطات التى اتخذها مع مقتضيات الزمن، وبالتالى نرى تعاسة وحزن من يعارض فى إجراءاته تلك المقتضيات واننا لنرى اختلاف الطرق والاساليب التى يتخذها الناس للوصول إلى ما يسعون إليه من مجد وثراء وثروة، حيث اننا نجد بعضهم وقد لجأ إلى الحذر والحيطة، ومنهم من يختار التهور والاندفاع، ومنهم من يتبع العنف، واخرون يتبعون الحيلة والمكر والدهاء، ومنهم من يصبر ويثابر، واخرون نجدهم يتسرعون، ولكنهم جميعا قد يصلون إلى اهدافهم. وقد نرى شخصين حذرين ينجح احدهما فى تحقيق اهدافه التى يسعى اليها، بينما نجد الفشل حليف الاخر. ومن ناحية أخرى قد نجد أن شخصين يستطيعان الوصول إلى هدف واحد بطريقين مختلفين، احدهما ينطوى على الحذر والهدوء والروية، والاخر على التسرع والمجازفة. وانما ينجم كل ذلك عن اختلاف الزمن وطبيعته التى تتفق اولا مع طبيعة الاجراء. وينتج عن هذا - كما سبق وذكرنا - أن رجلين يعملان بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف، يصلان إلى نفس النتيجة، بينما نجد رجلين اخرين يعملان باسلوب واحد وبطريقة متشابهة وقد ينجح أحدهما فى حين يكون الفشل من نصيب



الاخر. وعلى هذا تتوقف أيضاً التبدلات والتغيرات فى النجاح والازدهار، فقد يحدث أن تكون الظروف المحيطة وعوامل الزمن ملائمة لشخص يعتمد عمله على الحذر والروية وحسن التبصر، فيجد النجاح فى النهاية، ثم لا تلبث أن تختلف الظروف وعوامل الزمن، فتجده وقد تحطمت مشاريعه واهدافه، وذلك لأنه لم يلجأ إلى تغيير طريقته فى العمل. ولم يحدث على الاطلاق أن وُجد إنسان على هذا القدر من الحكمة والتعقل، بحيث يتكيف مع الظروف وعوامل الزمن إذا تغيرت وتبدلت، اما لأنه لا يستطيع اقناع نفسه بانه من الافضل له أن يتركها. ولذلك نجد أن الرجل الذى تعود منذ نعومة اظفاره على الأناة يرى نفسه عاجزا عن تكييف اعماله عندما تقتضى الضرورة السرعة، ويكون من نتيجة ذلك أن يلحقه الخراب والدمار. واذا كان فى إمكان الإنسان أن يغير طبيعته تبعا لتغير الازمنة والظروف، فإن القدر لا يتغير ايضا.

ونجد أن البابا يوليوس الثانى كان متهورا فى كل عمل يقوم به، وقد رأى الأوقات والاوضاع متفقة مع طريقته فى العمل، بحيث استطاع دائما أن يحصل على النتائج الباهرة.

■■■



الفكر السياسى بعد
الأميـــر

السلطة المطلقة

كانت فكرة "السيادة" التى احتلت حيزا مهما فى تفكير مكيافللى هى التى اهتم بها عدد كبير من المفكرين السياسيين الذين جاؤوا بعده، وكانت موضع تحليلهم ودراستهم؛ ويأتى على رأس هؤلاء المحامى "جان بودان" (١٥٣٠-١٥٩٦م)، حيث ضمن افكاره السياسية كتابه المسمى "عن الجمهورية" Deta Republique الذى نشره عام ١٥٧٦م مقدما قيام النظرية السياسية على قواعد تاريخية، وعلى ملاحظة الواقع ودراسة المؤسسات السياسية والقانونية، وذلك ضمن نطاق ما يطرأ عليها من تطورات وظروف، وعلى اساس تاريخى مقارن. وتبرز قيمة بودان لما كان لطريقته التحليلية من تأثير على هوبز ـ الذى سنعرض له فيما بعد ـ حيث أنه تبناها فى دراسته السياسية ويعتبر جان بودان أنه سبق إلى البحث التاريخى المقارن الذى انتهجه واعتمده مونتسكيو فى "روح الشرائع" فيما بعد.

ولابد من التنبيه بان جان بودان كان من اكبر المناصرين للحكم الملكى المطلق. ويعلل ذلك بان الدولة التى تتبع النظام الديمقراطى تكون عرضة للثورات على الدوام، ولكنه - بأى حال ـ لم ينكر إمكان قيام الدولة على



اسـاس الحكم المختلط. وعلى هذا لم يؤيد الحريات الفـردية ولا يأخـذ بالعقد الاجتماعى اطلاقا. وبوجهة نظره أن ميزة المواطن هى خضوعه المطلق لسيادة الدولة، وميزة الدولة هى وجود السلطة السياسية العليا فيها. وتظل الدولة رغم هذا مقيدة بالموجبات الاخلاقية المنبثقة عن القوانين الطبيعية والإلهية.

ولكن ما يثير انتباهنا فى تفكير بودان هو اعتباره ضرورة انسجام التنظيم السياسى وشكل الحكومة ونوعية القوانين مع طبيعة الشعب وظروف حياته المكانية والجغرافية.

وبالرغم من ذلك نجد أن بودان ينبه إلى المشاكل الاجتماعية والسياسية التى يؤدى اليها التفاوت فى الثروات، وفى الوقت نفسه يعارض تدخل الدولة فى الملكية الخاصة والنشاط الاقتصادى الفردى.

العقد السياسى والعقد الاجتماعى

ولكن ألتو سياس يرى أنه لا يمكن أن يوجد عقد اجتماعى دون وجود عقد سياسى، كما أن العقد السياسى لا يقوم دون العقد الاجتماعى، ذلك أن كلا العقدين فى حاجة إلى الاخر، وما من مجتمع إلا ولابد أن يكون له قانونان اساسيان: أولهما- هو نتيجة العقد السياسى بين السلطة الحاكمة والمواطنين، حيث يحدد العلاقات بينهما وينظمها، ويوضح حقوق ومسئوليات كل منهما تجاه الاخر. اما القانون الثانى فهو يعكس العقد الاجتماعى، وبموجبه يتعايش الافراد معا فى المجتمع، حيث يتحملون الواجبات ويتمتعون بالحقوق تجاه بعضهم البعض.

ونجد ارتباطا بين هذه النظرية ونظرية فرعية كان لها دستور مهم استأنست به انظمة الدول المركبة. لقد اعتبر ألتو سياس أن مجتمع



الدولة لا يتكون من الافراد فحسب، بل من المقاطعات ايضا، وانه إذا انضمت المقاطعة إلى الدولة فإن ذلك لا يعنى أنها تنازلت عن جميع حقوقها للدولة الأم، بل يعنى فقط افتقادها بعض الحقوق التى تتعارض مع تحقيق غرض انضمامها إلى الدولة، أو الغاية من قيام هذه الدولة.

ونجد أن ألتو سياس قد ربط فكرة السيادة بالدولة، إذ أن المجتمع بدون دولة يخلو من السياسة، والسيادة إنما مصدرها الرئيسى هو الشعب، فإذا ما تخلى عنها الشعبفإنها تزول وتزول مع زوالها الدولة. والسلطة التى تمارس هذه السيادة إنما تمارسها باسم قانون الدولة نتيجة العقد السياسى!.

إعادة النظر فى القانون الطبيعى

ويذهب جروشس (١٥٨٣-١٦٤٥م) فى دراسته مصادر القانون الطبيعى ومقوماته إلى تعريف تعميمى، معتبرا أن القانون الطبيعى هو ما يمليه العقل وينسجم مع القيم الاخلاقية. وهو بذلك يكون مصدرا للقانون الوضعى. ولا نجد جروشس يكتفى بنظرية العقد فى قيام المجتمع ونشأة الدولة، بل يضيف إلى ذلك الدافع، وهو المصلحة المشتركة بين الافراد. ويربط جروشس السيادة بالشعب، معتبرا أن الشعب هو من يملك حق نظام الحكم الذى يرتضيه. واذا لم يمارس الشعب هذا الحق فليس له أن يرجع عنه بعد ذلك ولا يملك حق تغييره.

اللوياثان والبهيموث

اللوياثان Vithan هو تمساح هائل متسلط على جميع الوحوش البحرية. ونجد أن العهد القديم قد اشار اليه، حيث ذكر أن بعض الوحوش البحرية قد تطلع إلى اغتصاب سلطته، لكن قوة ذلك التمساح

حالت دون تحقيق ذلك. وجاء توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩م) واستعار اسم اللوياثان ليتخذه عنوانا لكتابه الذى نجد فيه جوانب من تفكيره السياسى، وخاصة نظريته فى السيادة. ونجد أن بعض من تناول فكر هوبز السياسى ودرسوا هوبز (ومنهم وتكنز) يرون أن هوبز إنما اراد من اللوياثان أن يظهر "أن الطموح المتعجرف هدام، فضلا عن اصطدامه بالواقع. وان البشر العقلاء - على هذا الاساس - يتناورون. وقد وعوا ليس حاجتهم إلى الحماية لأن يحكموا من دولة تكون على نمط اللوياثان صلدة منبثقة تغدو محاولة تقويضها ضربا من الجنون". فى حين يرى اخرون أن هوبز قد اراد أن يمثل الدولة باللوياثان يرهبها الافراد ولا يحترمونها، واذا كانوا قد ارتضوا بها وسكتوا عن وجودها، فما ذلك إلا لتأمين منفعتهم الشخصية ومصالحهم التى يسعون إلى تحقيقها. وعلى هذا فإن المجتمع بنظر هوبز - انطلاقا من هذا المبدأ - هو عبارة عن كيان مصطنع اوجده الافراد حتى يتمكنوا من تحقيق منفعة تفوق نفع العيش الفطرى الطبيعى، وذلك على اساس أن فى المجتمع يتم تبادل الخدمات والافراد. ومن هنا كان منطلق تفكير هوبز الفردى.

ونجد أن هوبز قد استعار تسمية وحش بحرى آخر هو "البهيموث" ليطلقه على البرلمان المعمر الذى عايشه كرومويل ثم قام بازالته، وهو البرلمان الذى أصبح قوة مستقلة بموافقة الملك على قانون عدم حله، الأمر الذى أدى إلى تجزئة السيادة، وبالتالى القضاء عليها.

ويرى هوبز أنه نظرا لكون الإنسان غير اجتماعى بفطرته، فينبغى أن تكون الدولة واقعة تحت سيطرة حكومة متسلطة تكبح جموح الإنسان واطماعه، ولابد - فى اية دولة - أن تتركز السلطة فى ايدى السلطان السيد. وليس من اللازم أن يكون صاحب السلطة ملكا، بل يمكن أن يكون



مجلسا أو هيئة لها قرار واحد. وقد اعتبر - انطلاقا من اعتقاده بالعدالة الاصيلة فى القانون - أن القوانين التى تصدرها السلطة لا يمكن أن تبتعد عن العدالة.

ومن الواجب ذكره هنا أن هوبز قد تجنب - وهو يعتمد المنهج الاستقرائى فى منهجه - اعتماد المقاييس والمعايير الوطنية أو الاخلاقية أو الدينية فى استخراج قواعده، وذلك خشية منه أن يدخل فى معترك التنازع الأيدلوجى الذى كان يطرح فيه التفكير السياسى فى انجلترا فى زمنه. وعلى ذلك كان ممن الضرورى لهوبز - الذى كان فى الوقت نفسه معجبا بمعاصره الدكتور وليم هارفى مكتشف الدورة الدموية - أن يرسى مقاييسه على الميول البيولوجية والنفسية، على اعتبار أن العضو الذى يتحكم بحياة ورغبات الإنسان هو القلب ومن هنا نلمس اثر تفاعل دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية مع الثورة المنهجية التى حدثت فى دراسة العلوم الطبيعية وعكوف الفلاسفة على دراسة القوانين الطبيعية الإنسانية - فردية واجتماعية - على اسس معطيات دراسة انظمة القوانين الطبيعية التى كشفتها ابحاث كوبر نيكوس (١٤٢٨-١٥٤٣م) وغاليله (١٥١٤-١٦٤٢م)، ونيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) وغيرهم.

ومما يجدر بنا ذكره أن هوبز يبرز سيادة القوة، حيث أنه يتبنى نظرية العقد، فالدولة كالمجتمع نتيجة عقد مبرم بين المواطنين، يتنازلون بموجبه عن بعض حقوقهم، ويخضعون لسلطة حكم هى بمثابة الشخص الثالث ليس طرفا بالعقد.

ولم يهتم هوبز بكون الدولة ذات السيادة تتخذ شكل الديمقراطية أو الأوليجاركية أو الملكية المقيدة، مادامت تؤكد سيادتها بالدول الاخرى، وتحتفظ بسلطتها بالنسبة إلى مواطنيها.



اذا دققنا النظر فى تفكير جان لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) نجده قد اتسم - كما اتسم تفكير هوبز - بروح الفردية، فهو يرى أن المجتمع ما نشأ إلا لحماية الحقوق الطبيعية للفرد والمصالح الشخصية التى بررت وجود المجتمع.

وقد اعتبر لوك أن بالقانون تتكرس مصلحة الفرد، وبوا سطته تُحمى حقوق الملكية الخاصة والحريات الشخصية، والقانون يقتضى أن منع الدولة من التعرض لهذه الحقوق.

والدولة هى نتيجة "الإيجاب" Consent الذى هو بمثابة عقد. وهذا العقد هو الذى يؤدى إلى قيام السلطة التى لا تنشأ إلا بايجاب المواطنين. والهيئتان التشريعية والتنفيذية هما اللتان تتوليان حماية الملكية والحريات. اما غير ذلك من حقوق الإنسان الطبيعيةفإنما يبنى على تنازل الفرد عنها للسلطة، ويبرر هذا التنازل ضمان تكريس هذه الحماية واستمرارها دون تعرض، وهذا ما يطلق عليه العقد الاول The Original Compact وهو الذى ادى إلى تكوين الافراد للمجتمع الذى مثل الشخصية المعنوية التى فضل لها التنازل، ذلك أنه يقتضى أن يكون المتنازل له كيان حتى يكون قانونيا. وينشأ الزام الفرد بالخضوع لرأى الاغلبية بفضل هذا العقد.

وتعتبر السلطة التشريعية اعلى سلطة فى الحكومة. ولكن لجهة القوانين التى تتقيد بها السلطتان التشريعية والتنفيذية يعتبر لوك أن للسلطة التنفيذية الحق فى الاشتراك فى سنها.

وعندما تفقد الهيئة التى تتولى السلطة التشريعية الثقة التى مُنحت لها، فإن لوك يخول للمجتمع حق تغيير هذه الهيئة ونجده يربط زوال



الحكومة بتلك الثقة الممنوحة للهيئة التشريعية. اما السلطة التنفيذية فهى مسئولية تجاه السلطة التشريعية.

وتبعا لذلك فإن محور فلسفة لوك السياسية هو أن الحكومة - بمن فيها الملك والبرلمان - تكون مسئولة مسئولية كاملة تجاه الشعب، وسلطتها مقيدة بالتزام واجباتها والتقاليد الدستورية والتعهدات التاريخية.

ذلك هو ما امكن عرضه من نظريات لوك السياسية فى الحكم، وهى - كما يرى بيترز - عبارة عن "خيوط مفككة جميعها من مصادر متنوعة، وحاكها حول مجموعة من المطالب السياسية التى كانت تتفاقم فى وجه نوازع آل ستيوارت الأتوقراطية. واكتسبت نظرياته هذه تلك الشهرة الواسعة، لا لعمقها الفلسفى وسعة أفقها، بل لكونها عبرت بشكل نظرى عن مشاعر الناس فى كل مكان بوجوب لجم السلطة المطلقة".

وما يجب أن نسلم به أنه كان لآراء لوك السياسية ذلك الاثر الكبير فى تطور الفكر السياسى والاقتصادى اللاحق، حيث نجد أن مذهبه فى "الطور الطبيعى" وفى العقد الاجتماعى "يحكى من نواح عدة مذهب روسو الذى - بلا ادنى شك - قد تأثر به، ويختلف عن مذهب توماس هوبس (هوبز) الذى يصف الطور الطبيعى بانه طور من التناحر والخصام الدائمين The War of All Against All يحف به الخوف من جميع جوانبه. كذلك نجده قد بسط لنظرية تمييز السلطات الحكومية وانفصالها Separation of Power حيث يعتبر تمهيدا لمذهب مونتسكيو فى هذا المضمار، واساسا من الاسس التى يرتكز عليها الدستور الامريكى واقواله فى العمل والملكية هى من دعائم الاقتصاد الحديث. اما فى مضمار الحياة السياسية فقد كان أثر جون بالغا جدًا فنظريته فى



حقوق الإنسان الطبيعية تعتبر من اهم الاسس الفلسفية التى ترتكز عليها الوثائق الدستورية المعروفة باسم "حقوق الإنسان"، والتى جرت العادة منذ قيام الثورة الامريكية عام ١٧٧٦م، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م على ادراجها فى الدساتير الحديثة.

روح الشرائـــع

وقد كان لمونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م) دور بالغ الاهمية والاثر فى الثورة المنهجية التى كان يتمخض بها الفكر السياسى، حيث نجده قد خرج بحقل استقراء التاريخ من الابعاد المكانية والاقليمية والزمانية المحددة (من خلال المطالعة والرحلات) دارسا بشمول التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى كل زمان ومكان. ومن هنا كانت قيمة كتابه "روح الشرائع". وعلى حد وصف "دالامبير" فإن مونتسكيو لم ينهج فى هذا الكتاب المهم نهج اسلافه، ولم يسترسل فى جدليات ميتافيزيقية على النحو الذى انصرف إليه أولئك الذين يتصورون الإنسان تصورا تجريديا. ولم يقف ـ كغيره ـ عند تناول بعض الشعوب فى احوال خاصة، ولكننا نجده قد تناول جميع سكان العالم، وتطرق لاحوالهم الحقيقية فى كل ما يقوم بينهم من علاقات.

ونرى أنه لا يمكن أن نحيط بتفكير مونتسكيو بمعزل عن مؤثرات محيطه المتعددة، واهمها:

- تأثر العقلية الفرنسية ـ بوجه عام ـ بالعوامل الطبيعية، وبالمناخ والارض.
- الحالة الصناعية والتجارية التى كانت سائدة، وكذلك وسائل انتاج السلع.



- الانفعالات النفسية والعقلية التى تنتج عن الظروف العامة.

- شكل الدستور السياسى.

- التقاليد والعادات التى اعتمد عليها التكوين القومى للشعب.

وقد كانت نظرية القانون الطبيعى هى منطلق مونتسكيو، ففى رأيه أن العدالة المجردة كانت سائدة قبل ظهور القانون الوضعى الذى هو نتاج تكيف القانون الطبيعى مع الزمان والمكان (تاريخيا وجغرافيا).

والتصنيف الذى وضعه مونتسكيو لانواع الحكم مازال معتمدا كقاعدة فى القوانين الحديثة، وهذه الانواع هى ثلاثة: الحكم الجمهورى، الحكم الملكى، والحكم الاستبدادى.

وما يكفى مونتسكيو فضلاً وفخراً أن نظريته فى فصل السلطات هى القاعدة التى تقوم عليها الدساتير فى العالم منذ اوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم.

حرية الرأى العام وفساد الحكم

اذا كان فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) وهولباك (١٧٢٧-١٧٨٩) قد اتفقا بما أثاراه من نقد للتعصب الدينى، فإننا نجد بينهما اختلافا وتباينا فى النطاق الذى وجه إليه كل منهما اهتمامه السياسى؛ فقد خص فولتير باهتمامه بقضية الحرية فى النظام السياسى، آخذاً من النظام البريطانى نموذجا مثاليا. فى حين ذهب هولباك إلى انتقاد النظام الحكومى عامة والنظام الحكومى الفرنسى خاصة، حيث أنه اعتبر أن الحكومة جاهلة مقصرة ظالمة مستغلة خارجة عن غايتها باهتمامها بالحرب والتوسع بدلا من اهتمامها بالشعب والعمل على تحقيق منافعه



ومصالحه. ويرى هولباك أن الإنسان خير بطبعه، وان الشىء الذى يفسده ويحمله على الشر هو الحكومات، وان حل هذه المشكلة يكمن فى اطلاق حرية الارادة الشعبية. وضعف الدولة إنما يكون عائدا إلى تقسيم المصالح بين الطبقات، ولا علاج إلا بالتعليم والثقافة، وبنظره هو الحل الثورى. والحاكم ما هو إلا مجرد وكيل عن الشعب، وان ممارسته الصحيحة لاعباء الحكم تكون بالعمل على نشر التعليم والثقافة، وبذلك يكون حاكما صالحا.

العقد الاجتماعى والحب الاجتماعى

كان روسو هو اول داعية إلى التطور الاجتماعى، وكانت محاولته فى رسم التقدم التاريخى للمجتمع الإنسانى بصورة منسقة هى الاولى من نوعها. فهو فى هذا المجال يتقدم قرنا كاملا على إنجلز والآخرين الذين جعلوا مسألة تطور المجتمع الإنسانى موضوعا شعبيا. وان اهتمامه بتعيين مراحل التطور الاجتماعى وعوامل الفاضلة هو دون ريب موضع التقدير، لاسيما إذا ما قورن بالكتابات المعاصرة فى زمنه، فقد كان جميع معاصريه يتحدثون عن التقدم، غير انهم عالجوا الأمر باسلوب متداع ينقصه التماسك، بينما انفرد روسو عنهم جميعا بالتفكير فى التقدم على اساس أنه عملية متكاملة يتوجب اكتناهها.

هذا ما استهل به برترانداِلى دراسته عن روسو (١٧١٢-١٧٧٨م). والواقع أنه وان كان قد سبق لهوبز أن تبنى نظرية العقد الاجتماعى - وكذلك لوك - فإننا نجد أن روسو قد اعطاها مضمونا اجد وابعد واوسع، فالإنسان الاول - البدائى - كان إنسانا صالحا، وان الحياة الطبيعية الفطرية الاولى هى السعادة المثلى، والافراد عندما اتفقوا على



التنازل عن حقوقهم فى السيادة للجماعة، وذلك على اساس اشتراك ارادة الفرد مع ارادة الآخرين لتمثيل الارادة العامة. على أن ارادة الاغلبية تمثل الارادة العامة بعد تكون الدولة. وان الارادة العامة ما هى إلا المظهر الوحيد للسياسة. ومن حق الشعب أن يمارس السيادة باستمرار ودائما، وارادة الشعب هى المصدر الوحيد للقوانين، والحكومة التى هى وكيل عن الشعب، تخضع لرقابته باستمرار، وتغيير الحكومة إنما يرجع لارادة الشعب وحده. ويقول كرامنشوف فى كتابه "عرض موجز لنظريات الدولة والقانون": (ان "راديشيف" الديمقراطى الثورى الروسى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، قد أيد هذه النظرية. واعتقد كذلك بان النظرية التعاقدية عن اصل الدولة، تعطى للشعب حق الانتفاضة وحق الثورة ما لم يقم الملك - وهو أحد طرفى الاتفاق - بجميع التزاماته). وكان راديشيف يقول أن سلطة الدولة يجب أن يضعها الشعب، وان الشعب يراقبها بنفسه. ومن هنا يأتى الدور التقدمى لنظرية التعاقد هذه.

وبنظر روسو فإن الحكومة إما أن تكون ملكية وإما ارستقراطية وإما ديمقراطية وإما مختلطة. ونظام الحكم يتكيف مع حالة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. ونجد أن روسو استحسن نظام الحكم الديمقراطى المباشر وفضله على النظام النيابى الذى يراه دليل الفساد السياسى.

ومما يجب ذكره هنا فكرة الاجتماع الدورى للشعب لتجديد ثقته بالحكومة وبالموظفين العموميين، أو أن يمنحها عليهم، وهى الفكرة التى اقتبستها دساتير بعض الولايات الامريكية.



وقبل أن ننتقل من عرض تفكير روسو السياسى لابد أن نشير إلى مفهومه فى الحرية والمساواة. أن الحرية ـ الحرية البدائية ـ هى المنطلق والغاية حتى يمكن بناء حياة اجتماعية حقة، وان دخول الإنسان الحر المجتمع الحر يؤدى إلى فتح آفاق رحبة لتعزيز الحرية عن طريق ممارستها من الفرد والمجتمع. اما المساواة فهى القاعدة التى تدعم النظام السياسى، وبالمساواة تحمى الحرية والعدالة فى أن واحد.

●●

فى الوقت الذى كانت فيه قارتان مضطخبان باكبر ثورتين ديمقراطيتين (الثورة الامريكية والثورة الفرنسية) فى عام ١٨٧٠م صدر لإدموند بيرك كتاب "تأملات فى الثورة الفرنسية". وقد هاجم فيه الثورة الفرنسية باسبابها واهدافها، معتبرا أن فكرة حقوق الإنسان التى نادى بها روسو، وحتى تلك التى حددها لوك إنما هى فى حقيقتها فكرة مجردة لا تقوم على حقيقة. وان الحقوق الطبيعية ما هى إلا من اختلاق الإنسان؛ ذلك أن العلاقات الاجتماعية ـ من وجهة نظره ـ وجدت مع الإنسان ولم تطرأ عليه. ولكننا نجد بيرك فى الوقت نفسه يعتبر أن العلاقات فى المجتمع تتغير مع حاجات هذا المجتمع. كذلك نراه معترفا باهمية الرأى العام، واعتبره اقوى سند للدولة.

كذلك لم يتردد بيرك فى مناصرة مطالب المستعمرات الامريكية، والدفاع عن حقوق الهنود الحمر، والمطالبة بحمايتهم من استغلال الشركات والمؤسسات التجارية البريطانية. ولكنه على الجانب الآخر فقد ظل يعتبر أن السيادة فى انجلترا ليست ملكا للشعب، وذلك لأن ذلك الشعب لا يقوم باعباء الحكم. واذا توافقت مطالب الشعب مع استمرار

الحكم ومبادئ العدالة والعقلفإنها تصبح بمثابة قوانين تقيد الطبقة الحاكمة ليس إلا. وعلى ذلك فإن الطرف الذى يملك هذه السيادة لابد أن يكون البرلمان الذى يمثل دور الحاكم فى مطالب الشعب، وهذه السيادة هى نتيجة تطور تاريخى ودستور الدولة، وبعد "التقادم" أو مرور الزمن تكتسب اسم التقاليد. ونوع الحكومة هو تحقيق للميل الطبيعى للشعب نحو نوع الحكم.

وقد كان بيرك على قناعة بعدم إمكانية الثورة على تطوير المجتمع، حيث أنه رأى أن الشعب لا يستسيغ التغييرات المفاجئة بسهولة، وعلى ذلك فإن التطور الطبيعى هو وحده - وان كان بطيئا - من شأنه أن يعمل على تحسين المجتمع ويسير به نحو الكمال، وهذا التطور وتسييره مناط بالطبقة الأرستقراطية، فهى وحدها التى يمكن أن تكتشفه.

السعادة - المنفعة الذاتية

"لقد وضعت الطبيعة الحرة تحت سلطة حاكمين سيدين هما الألم والمتعة".

هذه العبارة لجرمى بنتام تعبر عن منطلق واساس نظريته، ذلك أن هذه العبارة قد خططت المبدأ الذى توصل اليه، وقام ببناء نظريته على اساسه، فالمبدأ الذى يتحكم فى اعمال الفرد هو تجنب الألم والبحث عن السعادة، والمتعة هى تحقيق هذا المبدأ. وبمعنى آخر - على حد قوله أيضاً - مبدأ المنفعة يعنى المبدأ الذى يفضل أو يعارض أى عمل تبعا لما يحويه من ميل نحو زيادة أو تقليل سعادة الفرد. وانما تزداد قيمة المتعة وتتحقق المنفعة كلما ازداد عدد الافراد الذين يميلون اليها.



وعلى هذا الاساس فإن الاخلاق والقوانين هى نتيجة سعى وعمل الإنسان لانتاج اكبر طاقة من السعادة، وان عمل الحكومة الاساسى هو نشر وتحقيق هذه السعادة، على أن تكون هذه السعادة وليدة توافق سعادة الفرد وسعادة المجتمع. وهذه السعادة لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق حكومة دولة جمهورية ينص نظامها على مجلس يقوم بتمثيل الشعب ويقر القوانين التى عن طريقها يمكن تحقيق السعادة لأكبر عدد من الشعب.

الكونت الثائر

اذا نظرنا لفكر هنرى سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥م) نجده يشغل مكانا رحبا واسعا فى تاريخ الفكر السياسى والاصلاح الاجتماعى. وقد كان هذا الكونت ـ الذى اشترك عسكريا وفكريا فى الثورتين الامريكية والفرنسية ـ يهدف إلى ايجاد نظام اجتماعى هرمى جديد يقوم على الكفاية والعمل، وذلك عن طريق تقدم المعرفة، ويصحب ذلك حلول النظام الصناعى والعلمى محل النظام الاقطاعى والدينى، وتكون للطبقات الاقتصادية والمهنية السيطرة على النظام الجديد، وبذلك لا نجد محلا للفروق الطبقية، حيث أن العمل يفرض على افراد جميع الطبقات دون استثناء، والتقييم يقوم على المقدرة والكفاءة فقط، ويجب على الحكومة أن تعمل على حماية هذا النظام.

والتاريخ بنظر سان سيمون وحدة مستمرة، ودراسة الحاضر لا تكون إلا بناء على ضوء دراسة الماضى. وآمن بالتقدم المطرد للإنسانية، كما أنه دعا إلى دراسة أسباب الثورات والتغييرات التى تنشأ عنها. وعلى ذلك يكون سان سيمون قد رفض التفسيرات التقليدية للتاريخ، واكد السببية فى تطور التاريخ، وكذلك إمكانية التنبؤ بالمستقبل على ضوء الحاضر.



ومما يجدر بنا ذكره من افكار سيمون التى كان لها كبير الأثر فى الفكر السياسى، أنه اعتبر أن التغيير فى النظام الاجتماعى يوجب احداث تغيير فى النظام الملكى. وازدواج المعرفة بالصناعة وعدم قيامه إلا فى ظل السلام هو الذى حمل سان سيمون إلى اقتراح انشاء برلمان أوروبى يمثل فيه زعماء الدول شعوبها. كذلك نراه يقترح انشاء جمعية عامة تعمل على ضمان العمل للقادرين عليه، وهنا يتوجب أن نشير إلى أن سان سيمون اعتبر أن الدولة العتيدة يجب أن يقوم العلماء بحكمها، وان الوسيلة حتى يتم تحقيق هذا كله فهى الاقناع لا القوة، وذلك عن طريق الكتابة والحديث.

ونجد أن ماركيوز قد ذكر فى كتابه "العقل والثورة" أن المؤلفات التى الفها سان سيمون تتضمن بالفعل العناصر التى تسير فى طريق مخالف تماما لاتجاهات الرأسمالية الصناعية. وكان مقتنعا بأن تقدم النظام الصناعى يفترض مقدما أن يتحول الصراع بين الطبقات إلى صراع ضد الطبيعة، تتضافر فيه جميع الطبقات الاجتماعية. ولم يكن شكل الحكومة الذى استهدفه يخضع فيه الرعايا لسيطرة حكامهم، بل كان شكلا تقوم فيه الحكومة بممارسة ادارة تكنيكية على العمل الواجب اداؤه.

ونجد أنه كان لافكار سان سيمون التى قام بعرضها فى مؤلفاته، (منها: رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه - محاولات فى التنظيم الاجتماعى ذمقدمة للاعمال العلمية فى القرن التاسع عشر - تاريخ الإنسانية - بحث فى علم الإنسان - فى اعادة تنظيم المجتمع الاوربى - فى النظام الصناعى - اراء ادبية وفلسفية وصناعية)، كان لهذه



الافكار تأثير كبير خاصة بعد أن قام بتطويرها وتوسع بها اتباعه، حيث دعوا إلى وجوب ملكية الدولة لادوات الانتاج وحصر الملكية الخاصة فيما يتصل بالسلع الاستهلاكية، كما نادوا بالغاء الميراث وتأميم الاراضى ورأس المال، وذلك حتى تتمكن الدولة من تطبيق الجزاء على قدر العمل.

المساواة المطلقة

وكما اشترك سان سيمون فى الثورة الفرنسية، فقد اشترك بها فرنسيس بابيف (١٧٦٤-١٧٩٧م) فكريا وعسكريا. واذا كانت الامور بالنسبة لسان سيمون قد انتهت عند حد سجنه، فإن الأمر بالنسبة إلى بابيف تعدى ذلك بكثير، حيث تم اعدامه لتكوينه منظمة سرية تهدف إلى قلب نظام حكومة الادارة.

وقد آمن بابيف بفكرة المساواة المطلقة ايمانا كاملا، وانطلق بفلسفته السياسية من قاعدة مؤداها أن غاية الجماعة هى السعادة، وتحقيق تلك السعادة إنما يكون بالمساواة. ولكننا نجد أن تلك المساواة التى دعا اليها بابيف ليست تلك التى تكون دفعة واحدة، بل تأتى تدريجيا وعلى مراحل عدة، تبدأ بتأميم الدولة للمؤسسات والشركات التجارية، ثم تنتقل إلى مصادرة التركات التى تركها المتوفون، وبالتالى فإن الملكيات التجارية والعقارية تصبح ملكا للامة باسرها. والدولة التى اقترحها بابيف هى دولة انتاج وعمل يقوم على ادارة شئونها مجموعة من الموظفين المنتخبين. والمواطن المنتج هو وحده الذى يتمتع بالحقوق السياسية. ويفرض نظام بابيف وحدة الزى والطعام على جميع المواطنين!.





والى هنا نصل إلى السياسة التى نادى بها شارل فرانسوا فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧م) وبسطها فى اهم ما قام بتأليفه: (نظرية الحركات الاربع - ملخص دراسة العالم - العالم الصناعى الجديد أو عالم الشركات - أحابيل ودجل طائفتى سان سيمون وروبرت أوين - الصناعة الكاذبة).

ونجد أن فورييه قد آمن بان الإنسان - حتى لو كان سيئا - يخضع لنظام طبيعى يتناسق مع نظام النجوم والكواكب وما سماه قوة الاجتذاب العام، وقصد به طاقة كائنة دائما فى العالم تعمل على اجتذاب الناس وتقوم بتوحيده. وعلى ذلك نجد أنه دعا إلى صرف الجهود نحو ايجاد تنظيم اجتماعى يتكيف مع طبيعة الافراد، بحيث يتاح لهم التعبير عن انفعالاتهم حتى يظلوا متناسقين متجانسين، وقد قام فورييه بتصنيف هذه الانفعالات إلى اثنى عشر نوعا هى: الحواس الخمس، الصداقة، الحب، العطف العائلى، الطموح، التخطيط، التغيير، الوحدة. وهذه الثلاثة سماها فورييه الانفعالات التوزيعية الثلاثة. وتمتزج هذه الانفعالات جميعها فى نضال واحد هو حب الآخرين ووحدة المجتمع. ويفترض نظام فورييه قلة حاجة المجتمع إلى الحكومة، باعتبار أن من يشرف على الانتاج مجموعة من الموظفين يقوم الشعب بانتخابهم.

ومما يجدر ذكره اعتبار فورييه أن التفاوت الطبقى لا يؤدى إلى خلل بانسجام المجتمع، وذلك بفضل التجانس والتناسق بين الافراد الذى هو وليد قوة الاجتذاب العام منطلق واساس فلسفته.

●●



(أ) وقد ادى الانقلاب الصناعى الذى حدث فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر إلى قيام مجموعة من المفكرين الاجتماعيين يدعون إلى الاشتراكية. ونجد منهم سبنس الذى تقدم سنة ١٧٧٥م باقتراح فكرى إلى الجمعية الفلسفية فى نيوكاسل نادى فيه باعادة اشتراكية الملكية فى العقارات، باعتبار أن ملكية الارض كانت مشتركة فى الدولة الطبيعية. واذا كان اعضاء هذا المجتمع قد اتفقوا على ازالة الاشتراكية، فإن هذا الاتفاق لم يجدد وبالتالى فقد مبرر وجوده. وقد اعتبر سبنس أن النزاع الذى قد ينشأ بين الافراد لا يرجع سببه إلى اشكال الحكم، إنما فى ازالة أسباب البؤس الاقتصادى.

(ب) أما أوجيلفى فقد استنتج من القانون الطبيعى أن كل فرد له نصيب من الارض، واعتبر أن ازدياد قيمة الارض نتيجة عمل الفرد واجتهاده يمنحه الحق فى التصرف فيها.

(ج) فى حين اننا نجد أن توماس باين قد فرق بين حقوق الفرد بالارض والحقوق الناتجة عن تحسينها، فقد اعتبر أن الارض ملك للجماعة، والتحسينات ملك للفرد. ولحل مشكلة الملكية اقترح أن يتم منح من لا ارض لهم تعويضا تستوفيه الدولة من ضرائب التركات.

(د) وقد ذهب وليم جودوين إلى اعتبار الحكومة نتاج رذائل الافراد، وانه فى الإمكان الاستغناء عنها بالعدل والانصاف والتعليم على الخير العام الذى هو قانون العقل. كذلك دعا جودوين إلى ازالة نظام الملكية الخاصة.



(هـ) ونستطيع أن نصنف فكر تشارلس هال كحلقة اتصال بين الفكر (القانون الطبيعى) والبروليتاريا الاشتراكية، فقد انتقد فى كتابه "تأثيرات المدنية" توزيع الثروات فى المجتمع والاستغلال، وأرجع أسباب قيام الحروب إلى عوامل اقتصادية، ذلك أن هدفها زيادة حجم التجارة وكسب اراضى جديدة والعمل على صرف اذهان الفقراء عن مشاكلهم وشغلهم بأعبائها، كذلك دعا إلى تكريس الزراعة وجعلها حرفة اساسية للشعب.

(و) وتجدر الاشارة هنا إلى لورد أيتون الذى تنبأ فى كتابه "الجنس القادم" بالتقدم التكنولوجى الموجود فى عالمنا المعاصر واختراع القنبلة الذرية. ولكننا نراه يعطى ذلك صورة أيتوبية!.

(ز) أما إدوارد بيلامى فنجده يدعو إلى تأميم القطاعات الاقتصادية جميعها ـ سواء كانت صناعة ام تجارة ام زراعة ـ وذلك بغاية الغاء نظام الاجور، وبالتالى التجارة والنقود، حتى يتمكن الافراد من الحصول على احتياجاتهم بالتساوى من انتاج الامة.

ونجده فى رواية بعنوان News from No Where ـ نشرت تباعاً فى عام ١٨٩٠م بمجلة كومنولث التى كانت تصدرها العصبة الاشتراكية ـ يعرض فيها انتقاده لما ادى إليه الانقلاب الصناعى من صرف الناس إلى الاشتغال بالصناعة دون سواها من القطاعات الاقتصادية، الأمر الذى ادى إلى استغلال العمال من جهة، ومن جهة أخرى إلى ضيق مجال العمل بسبب تضخم عدد الايدى العاملة وفائض الحاجة اليها، وبالتالى انتشار البطالة. وعلى هذا الاساس دعا إلى حرية الافراد وتمكينهم من التمتع



بالمساواة فى الحرية، على اعتبار أن ذلك يعمل على توفير السعادة أكثر من زيادة الانتاج.

(ح) اما روبرت أوين فقد اكد - انطلاقا من نظرية بنثام فى "السعادة غاية المجتمع" - اهمية المحيط من خلال تأثيره على الفرد، كذلك آمن بالتشريع كأداة مفيدة ومجدية للتقدم الاجتماعى، وكان يهدف إلى اعادة تكوين المجتمع عن طريق المشاركة والتعاون بين الاعضاء حتى يتم النهوض بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

ثــروة الأمـــم

وقد بدأت معالم تداخل التفكير الاقتصادى بالتفكير السياسى بدءاً من اوائل القرن الثامن عشر، ذلك التداخل الذى تبلور وتجلى بشكل واضح تماماً عند المفكرين الماركسيين. ولا ريب فى أن فكر آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠م) يعتبر اول فكر سياسى يهتم بتداخل التفكير الاقتصادى فيه على نحو لم يسبق له مثيل فى الفكر السياسى، ونجد ذلك فى مؤلفه "بحوث عن طبيعة واسباب ثروة الامم".

وقد اعتبر سميث أن الانتاج الناجم عن استخدام العمل والموارد هو المصدر الوحيد للثروة. ونراه يعلق زيادة الثروة على المهارة والكفاءة فى استخدام العمل، ووفقا لتلك النسبة من اعضاء المجتمع التى تشترك فى العملية. وان الوسيلة التى تحقق زيادة الانتاج إنما هى تنظيم العمل وتقسيمه واستخدام الآلات الميكانيكية. ويتنبه سميث إلى الاهمية الكبرى لوسائل النقل والمواصلات كى يتم تصريف الانتاج، وبالتالى إمكانية تحقيق مستوى عال من التخصص كذلك نراه يتنبه إلى اهمية الزمن فى صنع الانتاج ودرجة اتقان العمل ومهارة العامل.



ولكن فى ظل نظام اقتصادى يستخدم النقود يربو فى بعض الاحيان الطلب الفعال، "أى الرغبة فى الحصول على سلعة ما مع المقدرة على اداء ثمنها" على العرض، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى ارتفاع الثمن والى كسب جديد للمنتج، سرعان ما يحمل الغير على المنافسة، كما أنه يعمل على اجتذاب العمال ورأس المال من حرف اخرى. وهذا بدوره ـ وبالاضافة إلى مرور الزمن ـ يعمل على انخفاض الثمن، بحيث يصبح اقل من قيمته الطبيعية. وبالرغم من ذلك فإن سعر أى سلعة يميل إلى أن يتذبذب حول القيمة الحقيقية أو يقترب منها. وعندما يتوازن العرض والطلب فى حالة أى ثمن، فهذا الاخير مثل الثمن الطبيعى، وهكذا نجد أن الاستفادة تعم الجميع من السوق الحرة. وبرأى سميث فإن الفرد عندما يعمل على تنمية مصلحته،فإنه غالبا ما ينمى ـ وبفعل يد خفية ـ مصالح المجتمع، ذلك أنه "لو أزيلت النظم كلها .. فإن نظام الحرية الطبيعية الواضح البسيط يثبت وجوده بمحض إرادته". وبالرغم من أن الملاحظات التى أبداها سميث كانت تصب فى صالح الرأسمالية،فإنها كشفت ـ بكل وضوح ـ عن عيوب ضخمة وخطيرة فى "نظام الحرية الطبيعية" الواضح والبسيط. فالعالم الاخير لا يمكنه الحصول على القيمة الطبيعية الكاملة للمنتج مادام يتعين تخصيص جزء من الثمن للارباح". ويرى سميث أن التفاوت الكبير فى نسبة توزيع الثروات وكمياتها يظهر فى المجتمعات المتخلفة حضاريا.

ويلفت سميث نظرنا إلى وجوب فرض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة من الصنف الذى يقوم البلد المستورد بانتاجه، وذلك بهدف زيادة الدخل القومى من جهة، واستعمال وسيلة للمساومة على تصدير الانتاج المحلى.



وكذلك يرى سميث أن الصناعة هى اساس قوة الدفاع القومى، وان الحكومة هى المطالبة بالاهتمام بهذا الجانب والتنبه لدوره الفعال فى قوة الدولة. كما يجب على الدولة أن تهتم بالتجارة الخارجية والعمل على حمايتها. وكذلك يعلق سميث اهمية كبيرة على الضرائب، حيث نجده يتناول احكامها وتوزيعها، ويلفت النظر إلى نسبة الضريبة بالنسبة إلى الدخل الفردى والحماية الموفرة له.

التعقيم الجنسى وزيادة السكان

وتعليقا على مشروع الجدول التاريخى لتقدم الروح الإنسانية الذى قام بنشره وليم جودوين وكوندرسيه، واستشرفا فيه رؤية المستقبل حافلاً بالاخلاق والابداع فى ميدان الفكر والعلم، يكشف عن ثروات عديدة لا حصر لها، ومجتمع منتج حر ينال فيه كل إنسان نصيبه العادل فى الثروة العامة تعليقا على ذلك نجد أن مالش (١٧٦٦-١٨٣٤م) كتب مقالا بعنوان "عن مبادئ زيادة السكان وآثارها فى تحسين المجتمع المقبل"، مع ملاحظات على نظريات جودوين وكوندرسيه وغيرهما من الكتاب، دعا فيه إلى التعقيم الجنسى بهدف الحد من زيادة عدد السكان الذى يتضاعف بدرجة يفوق ازدياد الانتاج إلى حد كبير يأسا من قيام النظم المعاصرة له - وهى برأيه نظم استغلالية ومتخلفة - بأى عمل لسد حاجات الإنسان.

ولكننا نرى أن مالش قد تراجع عن وجهة نظره المتشائمة، وذلك فى مقال له بعنوان "الأزمة"، حيث دعا فيه إلى زيادة عدد السكان عن طريق زيادة المساعدات الاجتماعية للاسر الكبيرة.

ولا يمكن للفكر السياسى أن يتجاهل ما عرضه مالش من شروح ومبادئ فى مؤلفاته: (بحث فى الاثار الماضية والحاضرة للسكان على



سعادة الإنسانية - طبيعة الدخل وزيادته - مبادئ الاقتصاد السياسى منظورا اليها من زاوية تطبيقها العملى - تعريف الاقتصاد السياسى ومقياس القيمة).

الدولة المغلقة

واذا ما جئنا للافكار السياسية والاجتماعية لجوهان جوتيليب فيخته (١٧٦٢-١٨١٤م) فإننا نجدها تقوم على فلسفته الاخلاقية التى تعلق اهمية كبيرة على النشاط الفردى وشخصية الفرد، وهي الفلسفة التى عرضها فى مؤلفاته، ومنها: نظرية العلم - مصير الإنسان - اساس القانون الطبيعى - مساهمة فى تقديم احكام الجمهور على الثورة الفرنسية.

ويرى فيخته ضرورة اعطاء الفرصة لكل إنسان حتى يستطيع أن يعبر عن شخصيته فى العمل المشترك، واختيار المهنة التى تروق له وتتفق مع ميوله، ونراه يضع على عاتق الدولة مسئولية تأمين وتحقيق ذلك، وذلك على اعتبار أن للدولة وظيفة اقتصادية لكونها تعبيرا عن الحياة واستجابة لمطالبها. ولكى تقوم الدولة بذلك يكون من الضرورة بمكان - من وجهة نظر فيخته - أن تنغلق على نفسها وتوقف جميع أشكال تجارتها الدولية، وتمتنع عن اقامة اية علاقات مع غيرها من الدول، وبذلك يكون من اليسير توافر الإمكانيات والفرص المنشودة لكل فرد.

ومع أن فيخته يفضل الملكية الخاصة ويحبذها، ويعتبرها اساس القانون المعبر عن الفردية، فإننا نجده وقد علق اهمية كبرى على التعاونيات الاجتماعية،واقترح أن تقوم الدولة بإنشائها، على أن تتمتع هذه التعاونيات باستقلال ذاتى، بحيث تتمكن من تنسيق الانتاج والتبادل باتفاقيات مشتركة.



(أ) الديالكتيك:

لفظ "ديالكتيك" مشتق من اللفظ اليونانى Dialegestia والذى يعنى "التقاء الناس للمحاورة". ولما كان الهدف من الحوار هو الإقناع، ولا اقناع بدون برهان واضح، لذلك اعتبر الديالكتيك فن البرهان.

وقد ظهرت معالم التفكير الديالكتيكى فى الفلسفة اليونانية القديمة عند هيراقليطس، كما بدت بعض عناصره فى فلسفة ديكارت وسبينوزا وليبنتز وكانت. إلا اننا نجد أن الديالكتيك كمنطق وكمنهج فلسفى لدراسة الظواهر العامة قد بدأ بجورج هيجل (١٧٧٠-١٨٣٨م). وفى الواقع فإننا نرى أن الديالكتيك الهيجلى هو المنطق الذى كان يقتضى أن يحل محل المنطق الصورى والفلسفة الميتافيزيقية القائم على نفى التناقض فى الفكر والوجود، والقائل بفقدان الاشياء العلاقة فيما بينها. وان هذه التناقضات تفرض وجود منطق جديد غير المنطق الصورى، يقر مبدأ جديدا وهو مبدأ التناقض، وبصورة أخرى منطق الديالكتيك، فكل شىء فى حالة تغيير وحركة وصيرورة.. وهكذا نجد أن الديالكتيك يبدأ عند هيجل بالوجود ثم بالماهية ثم بالمركب منهما، ويطلق عليه هيجل "الفكرة الكلية"، وهى الفكرة التى تظهر فى النهاية فى صورة الفكرة المطلقة التى هى وجود الطبيعة. ومن هنا كانت الفكرة الكلية حلقة انتقال إلى فلسفة الطبيعة، وما الطبيعة إلا المظهر الخارجى للفكرة الكلية تعارضها وتنازعها، والطبيعة نفسها تتحرك، حيث أنها على النقيض من المنطق تشتمل على الزمان والمكان، وابعاد الزمان الماضى والحاضر والمستقبل، وعنها يتولد معنى الزمان والمكان والتعارض موجود وقائم بين



الزمان والمكان، والوحدة بينهما تسمى المادة، ومركز المادة هو ذاتها، والتجاذب يكمن فيه، ومن هنا ظهور الروح، والروح بدورها تتطور فى ذاته (الفرد) ولذاته (المجتمع) وذاته ولذاته (الروح المطلقة). ومن هنا كان المطلق البداية والنهاية، والمطلق معتقد Dogme وبذلك يكون الديالكتيك عند هيجل منهجا ومذهبا يجمع بينهما اسم الفلسفة الديالكتيكية. وعلى ذلك فإن الفلسفة الديالكتيكية لا تقف عند حد النهائى والمطلق والمسلم به، بل نجد أنها تكشف عن الطابع التطورى لكل شىء وفى كل شىء، ولا يستطيع الصمود امامها إلا تلك العملية التى لا تهدأ أو لا تقطع عملية الصيرورة والزوال والارتقاء اللانهائى من الادنى إلى الاعلى.

(ب) الفلسفة الديالكتيكية والتاريخ:

وبالنظر إلى الفلسفة الديالكتيكية عند هيجل نرى أنها هى التى تؤدى إلى تحرير الفرد من سلطة الحس، كما أنها تحرر المجتمع من سيطرة الواقع الظرفى، والذى لا يستطيع أن يتماشى مع تطور حركة التاريخ، فالواقع الحقيقى هو الواقع الديالكتيكى، وهو الواقع الذى يقتضى تجسيده حمل الواقع الظرفى كى يتماشى مع ديالكتيكية التاريخ، والتى هى الوعى بالحرية، وذلك لأن تاريخ العالم - على حد تعبير هربرت ماركوز - ليس سوى تقدم الوعى بالحرية، والدولة هى الحرية، ذلك أن الدولة التى قصدها هيجل - على تعبير ماركوز - هى التى تحكم بمعايير العقل النقدى، وبالقوانين الصادقة المطلقة.

(ج) الدولة:

وعلى ذلك فإن الدولة الهيجلية ليست ذات النشأة المصطنعة، حيث أنها ليست نتاج عقد اجتماعى، بل هى كائن طبيعى، والدولة ليست ذلك



الكيان الذى يحوى مجموعة من الافراد كل منهم يملك حقا طبيعيا وحصة فى الاراضى العامة، بل هى شخص حقيقى يكمن فى ارادتها المنطق الكامل، وهى مصدر حريات الافراد التى يدعيها كل منهم، ذلك أن الدولة هى تجسيد الحرية العقلية، والتنظيمات السياسية فى الدولة هى تلك التى تتماشى مع القواعد الاخلاقية، بمعنى كون الدولة الهيجلية هى حقيقة فى حد ذاته، حقيقة الفكرة الاخلاقية.

وفى رأى هيجل أن الفوارق فى الشكل السياسى بين الدول لا اهمية لها، وذلك مادامت تحافظ على هوية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الكامنة من ورائها على النحو المطلوب فى مجتمع الطبقة الوسطى.

(د) الدستور:

وعلى ذلك فإننا نرى أن دستور الدولة الهيجلية هو ذلك الناتج عن تطورها التاريخى، ذلك أن التاريخ - الذى هو تطور منطقى قائم على اساس مفهوم التقدم نحو النظام والمعقولية والحرية - هو الذى يقوم بتحديد النظام الدستورى لكل دولة.

(هـ) السيادة والسلطة:

وفى نظر هيجل، كانت سيادة الدولة اداة ضرورية ومهمة حتى يمكن الحفاظ على مجتمع الطبقة الوسطى، ذلك لأن الدولة ذات السيادة فى إمكانها ازالة عنصر المنافسة الهدام من الافراد، وتجعل المنافسة مصلحة ايجابية للحقيقة الكلية، فالدولة تستطيع أن تسيطر على المصالح المتعارضة التى تنشأ بين افرادها. اما النقطة التى ينطوى عليها رأيه هذا هى أنه حين يقتضى النظام الاجتماعى وجود الفرد على التنافس مع الآخرين، فإن الضمان الوحيد لتحقيق المصلحة المشتركة على نطاق



محدود على الاقل يكون وضع حريته فى اطار لا تتعداه داخل النظام الكلى للدولة. وهكذا فإننا نجد أن سيادة الدولة تفترض مقدما التنافس الدولى بين الوحدات السياسية المتعارضة، تكمن قوة كل منها اساسا فى سلطتها التى لا تنازع على افرادها.

واذا ما جئنا للسلطة سنجد أن الذى يقوم عليها ويتولاها السلطة التشريعية (وتمثل الكثرة العددية)، والسلطة الادارية وتشتمل على السلطة القضائية (وتمثل الاقلية)، ثم السلطة الكلية (وهى التى تمثل الفرد).. ومادامت الدولة ذات ارادة واحدة، كان من الضرورى أن يتم الامتزاج بين السلطات الثلاث وبمعنى اخر، العمل على تجنب الفصل بين السلطات.

(و) الدولة والعلاقات الخارجية:

وبرأى هيجل أن الدولة - بناء على مبدأ سلطان ارادة الدولة ـ لابد أن تكون مستقلة فى علاقاتها الخارجية، ولا تخضع لسلطان دولة اخرى، أى أنها تعمل بما تمليه عليها ارادتها وحدها. والقواعد الاخلاقية الملزمة للافراد داخل الدولة ليست ملزمة للدول فى علاقاتها الخارجية، ذلك لأن علاقة الدولة بالمجتمع الدولى تختلف اختلافا كليا وجزئيا عن علاقة الفرد بالدولة. والاتفاقات والمعاهدات التى تبرمها هى وقتية، أى أنها تتغير أو تلغى أو تعدل تبعا للظروف التى تمر بها الدولة. لذلك فمن الضرورى على الدولة المبادرة إلى اعادة النظر بهذه الاتفاقيات والمعاهدات، خاصة عندما تجدها متعارضة مع مصالحها.

(ز) الحرب:

والحرب برأى هيجل هى شىء ضرورى لابد منه، وهى لازمة حتى تتمكن الدولة من الاستمرار والحفاظ على كيانها، وكذلك يراها ضرورية



فى حياة الشعب، لأن معنى الكل ومعنى وحدته لا وجود لهما دونها، ولولاها لهوت الإنسانية وانحدرت إلى درك طبيعة بلا روح.

ولكننا نرى أن الحرب التى يعلن هيجل عن ضرورتها ليست هى الحرب الاستعمارية، ذلك أنها تؤدى إلى قيام امبراطوريات تجمع بين شعوب مختلفة، والنتيجة - تبعا لذلك - هى فقدان الدولة وحدتها الذاتية وفرديتها الاصيلة. فهذه الامبراطورية ليست تلك التى يهدف اليها التاريخ.

(ح) القومية:

وما يعرضه لنا التاريخ من حضارات ودول تتعاقب، تصعد كل منها إلى ذروة مجدها ثم تنحدر إلى الحضيض، وهذا الصعود والانحدار المكون لحركة التاريخ الصاعدة من امة إلى امة توقف عند الدولة البروسية.. التاريخ يقف عندها لانها القمة، فهى تجسيد للمطلق ولروح الحرية والألوهية.. وعلى ذلك فقد مجد هيجل القومية الألمانية ورسالة الشعب الألمانى تجاه العالم.

وقد تأثر فكر هيجل وعاطفته بالظروف التى كانت تمر بها ألمانيا فى ذلك الحين كدولة وشعب، حيث كانت اقدام الاجانب تسحق اجزاء عديدة من وطنه ألمانيا، وكان الوطن مشتتا موزعا بين الإقطاعيين. ولذلك كان من الضرورى بناء دولة قوية تكون قادرة على تحطيم هذه السيادات الخاصة، وظهور المستبد العادل الذى يمكنه تحقيق الوحدة للشعب والدولة.

ونجد تأثيرا واضحا لهذا التفكير فى حركة توحيد ألمانيا التى قادها بسمارك، وذلك فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر، كما كان لها الاثر الحاسم فى تطور فكرة اشتراكية الدولة، بل اننا نجد أن افكاره



القومية هى التى حملت بعض المتطرفين إلى تبرير نظريتهم التى نادت بتفوق العنصر الألمانى، ودعت إلى التوسع الاقليمى.

منهج السياسة الايجابية

اذا نظرنا إلى تفكير اوجست كونت للتطور الفكرى الإنسانى عبر التاريخ وجدنا أن تاريخ الفكر السياسى قد سجله فى سلسلة من ثلاث مراحل: الطور الميتافيزيقى، الطور العقلانى، والطور العلمى الايجابى. وهذا الطور الاخير هو الذى عاصره كونت، وقام بالتخطيط لثورته الفلسفية المنهجية، وهو موضوع الطبعة الثانية من كتابه "منهج السياسة الايجابية" Systém De Politique Positive حيث دعا فيه للتحرر من جميع المسلمات النظرية والاعتبارات العلمية، والانطلاق من الوقائع نفسها، وهى ثورة تتطلب من العلماء أن يرفعوا اليوم السياسة لمنزلة علوم الملاحظة.

ونجد أن تفسير كونت للتاريخ كان على اساس مضاد للمادية، عاملا على تيسير مهمته، ونراه قد احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة أن التقدم هو التقدم العقلى قبل كل شىء، ففكرة التقدم عند كونت تستبعد الثورة والتغيير الكلى لـ"نسق الظروف" الموجود، ولا يعد النمو التاريخى إلا تطورا متوافقا للنظام الاجتماعى فى ظل قوانين "طبيعية" ثابتة.

وبرأى كونت أن "القوى المؤقتة" التى تقوم بحكم المجتمع ستجد ـ لا ريب ـ انها قد ازدادت امانا بفضل تأثير "السياسة الوضعية" التى هى وحدها القادرة على أن تبث فى نفوس الناس الشعور بانه ليس ثمة اهمية حقيقية لأى تغيير سياسى فى الحالة الراهنة لافكارهم. بل اننا نجد كونت يزداد صراحة عن ذلك، حيث يحمل على النظريات والجهود



الغربية، الشديدة الخطورة، الموجهة إلى نظام الملكية السائد، إذ أن هذه الجهود والنظريات تشيد يوتوبيا مستحيلة ممتنعة.

صحيح أن من الواجب والضرورى العمل على تحسين احوال واوضاع الطبقات الدنيا، ولكن هذا من الاهمية بمكان لأن يتم دون ادنى تغيير فى الحواجز الطبقية، ودون تعكير للنظام الاقتصادى الذى لا غنى عنه. وفى هذه النقطة بدورها تقدم الوضعية شهادة تنم بها عن نفسها، فهى تقدم الوعد بـ"تأمين الطبقات الحاكمة ضد كل فرد فوضوى"، وبيان الطريقة الصحيحة لمعاملة الجماهير". وقد لخص كونت أسباب تمسكه بـ"قضية النظام" فأكد أن فلسفته بحكم طبيعتها نفسها "لا تهدف إلى التدمير بل إلى التنظيم"، وانها "لن تعلن ابدا أى نفى أو سلب مطلق".

ونرى أن أوجست كونت بالرغم من فشله فى تطبيق منهجه الذى دعا اليه،فإنه يكفيه تحريره علم السياسة من طفولته الميتافيزيقية العقلانية، وتناوله له كعلم للعلاقات السياسية الحقيقية.

علم سياسة جديد من عالم جديد

اتجه الكسيس دو توكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩م) إلى دراسة النظام الديمقراطى فى الولايات المتحدة على اعتبار أنه نموذج لعالم ديمقراطى جديد، يقوم على المساواة مطبقا المنهج الذى وضعه كونت، معتمدا فى ذلك الاستفتاء الشخصى للمواطنين الامريكيين على اساس المسائل التى اعتبرها موضوعا للبحث، مراجعا النصوص والوثائق.

ومن الغريب اننا نجد دو توكفيل لم يتردد فى انتقاد المساواة والديمقراطية، مصرحا أنه يتذوق المؤسسات الديمقراطية بعقله، اما الارستقراطية فيتذوقها بغريزته، لأنه - على حد تعبيره - يزدرى الغوغاء،



انما هو شغوف بالحرية والمساواة واحترام الحقوق، ولكنه لا يحب الديمقراطية!!

ومع ذلك فإن دو توكفيل قد اقر وسلم بان الديمقراطية هى الحقيقة السياسية الكبرى لعصره وحقيقة المستقبل، سواء اراد هو ذلك ام لم يُرد. وقد اعتبر بريلو توكفيل النموذج العصرى للعالم السياسى.

خطة النظام العقلى

وفى الوقت الذى كان فيه هيجل يكشف ويشرح الديالكتيكية ونظرياته فى الحرية وفلسفة التاريخ، نجد روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨م) فى انجلترا يكتب "نظريات جديدة للمجتمع"، نداء إلى الحكومات الاوربية، "العالم الاخلاقى الجديد"، "خطة النظام العقلى"، "بناء التشارك بين كافة الطبقات وكل الامم"، و"الثورة الكونية"، حيث نلاحظ أن افكاره ونظرياته الاجتماعية - وضمنها السياسية - هى امتداد للفلسفة السياسية الطبيعية فى القرن الثامن عشر، سيما فلسفة روسو.

وقد اعتبر أوين أن شخصية الفرد انعكاس لبيئته الاجتماعية، وان الوسيلة المثلى للارتقاء بالوجود الإنسانى هى البيئة، ولا عبرة لكون المجتمع بما ينافى العقل وينافى الطبيعة.

وبالاضافة إلى ذلك نرى أن مشروعه "مجلس مدينة نيولانارك" قد تضمن التنبه إلى قوة الايدى العاملة واهميتها، ودور العامل وتوضيح ارتباط قيمة الاشياء والمنتجات بما تستغرقه من كمية عمل، وقياس ذلك بوحدات قيمة العمل والاشارة إلى تبادل السلع اساس قيمتها الحقيقية، أى ما استغرقه انتاجها من ساعات عمل. وقد كان لهذا المشروع تأثير كبير فى الفكر الاقتصادى، حتى اننا نجد أن ريكارد وماركس قد تأثرا به فيما بعد.



ونجـد أنه على الرغم من تناول أوين ظروف العمل الصناعى فى كتاباته،فإنه قد وجه جانبا كبيرا من اهتمامه إلى الزراعة، بل اعتبر أن الصناعة عمل مكمل للزراعة وملحق بها، وتبعا لذلكفإنها تأتى فى المرتبة الثانية بعد الزراعة.

الريــع

كانت مطالعة دافيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣م) لكتاب سميث "ثروة الامم" هى ما دفعه إلى دراسة نظريات الاقتصاد السياسى، وربط التفكير السياسى بالتفكير الاقتصادى ليخرج منه إلى نظريته فى توزيع الثروة انطلاقا من الملكية الزراعية، معتبرا أن الريع الذى يحصل عليه مالك الارض الخصبة ليس هو مقابل ثمن العمل، ولكنه نتيجة امتلاك نوع نادر من الموارد الطبيعية وهو مال غير مُكسب اطلق عليه ريكاردو اسم "الريع".

وقد تابع ريكاردو نظرية مالش فى "قانون الاجور الحديدى"، حيث اعتبر أن الاجور العالية تؤدى إلى زيادة موارد العمل، فى حين أن الاجور المنخفضة تؤدى إلى انخفاض موارد العمل. وبنظر ريكاردو فإن الريع هو "عدوان على الربح"، وان الارباح فى الأجل الطويل تميل إلى الهبوط حتى تصل إلى درجة الصفر، بينما ملاك الاراضى يستولون على الفائض الاقتصادى. فبمجرد التسليم بإمكانية الصراع بين المصلحة الفردية والمشتركة والاستغلال الناشئ عن شكل واحد من اشكال الملكية، أصبح فى الإمكان وبعبارات مماثلة، انتقاء اشكال أخرى من الاستغلال. وهكذا بدأ الاشتراكيون الانجليز بعد ريكاردو، وبدأ ماركس حيث توقف ريكاردو.



وتعود المدينة الفاضلة فى كتب: "رحلة إلى إيكاريا" و"تحقيق مجتمع إيكاريا" و"التقويم الإيكارى" وهى من تأليف إيتين كابيه (١٧٨٨-١٨٥٦م)، حيث تخيل فيه "الإيكاريا" كمجتمع لا وجود للملكية الفردية فيه، والمواطنون متساوون فى الحقوق والواجبات. وتتولى فيه الجماعة ـ ممثلة بجمعية وطنية ـ شئون الانتاج، وذلك وفق خطة سنوية. وتقوم تلك الجماعة باستلام الانتاج وتصريفه. ولا تتميز قيمة عمل عن عمل. والتقدم الآلى هو الذى يجعل الآلة تلعب دورا كبيرا فى الانتاج، بحيث يخف الجهد الإنسانى. وتقوم الجمعية الوطنية ـ وهى مؤلفة من ألفى عضو ـ بشئون الحكم، فهى التى تقوم بتعيين القضاة المنتخبين شعبيا.

وقد كان كابيه يؤمن بتعاون الناس حتى يتم تحقيق هذا المجتمع دون الحاجة إلى صراع أو ثورات أو عصيان. ومن اقواله: "اذا كنت اقبض الثورة بيدى، فسأظل قابضا عليها حتى ولو ادى ذلك إلى موتى فى المنفى".

الأبدية والكواكب

ونجد أن أوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١م) كان على النقيض من كابيه، حيث لا يستنكر الثورة وفى الوقت نفسه يؤمن بإمكانية تعاون الطبقات. وقد هاجم بلانكى الاستغلال، سواء فى الملكية ام فى الصناعة، واحتقر الثورة على اساس نظرته إلى وسائل الحصول عليها.

وقد تنبأ بلانكى بانهيار البرجوازية وسيطرة البروليتاريا، الأمر الذى جعل افكاره تقترب إلى حد كبير من الافكار الاشتراكية الماركسية، وقد اصر على اعتبارها متميزة عنها وعن افكار برودون، وهذه الاخيرة كانت محل انتقاده.



ومما يقوله فى هذا الصدد: "لقد حدث الخلاف بين الاشتراكية البرودينية والاشتراكية الاخرى، فسقطت كل منهما صرعى فى سنة ١٨٤٨م. أن الانتصارات ليست عملية يمكن أن تتم فى يوم. لقد وقفت الاشتراكيتان امام شاطئ النهر، واحتدم الجدل بينهما حول ما إذا كان الحقل الواقع على الشاطئ الآخر مزروعا قمحا أو ذرة. وركبت كل منهما رأسها واصرت على رأيها. وكان الاجدى اولا أن نعبر النهر وهناك سوف نرى.

الفرد وملكيته

ذلك هو عنوان المؤلف الذى كتبه جوهان شميدت الذى عُرف باسم ماكس شتيرنر (١٨٠٦-١٨٥٦م)، حيث نجده يدافع فيه عن الفرد وقدرته فى انطلاق المجتمع باسره فى أى مجال من مجالات الحياة، وان الاستبداد ما هو إلا استغلال يجعل الناس معجبين اشد العجب بطاقاتهم الفردية ودورها الخلاق.

ويرى شتيرنر أن الدولة تكون فى تناقض مع "أنا" الفرد، وتكون عقبة فى طريق انطلاق طاقتها. والتفسير نفسه الذى يقوم عليه موقف شتيرنر من الدولة ينطبق على موقف المؤيد للملكية الفردية.

ويعتقد شتيرنر أن تنظيم العمل المحرر للفرد من الاعمال المادية المرهقة إلى الاعمال الفردية الخلاقة يؤمن المجتمع القائم على اساس المشاركة الخاضعة لسيادة "الأنا".

ومن هنا نستطيع أن نقول أن شتيرنر قد هدف إلى القضاء على جميع اشكال الحكم السياسى.

وقد رأى ماركس فى افكار شتيرنر مجرد تفسير للمجتمع الرأسمالى وبنائه الاقتصادى على اسس فردية جديدة.



لا عيش بدون تطور

ومن اوائل الاشتراكيين الروس فيساريون بلينسكى (١٨١١-١٨٤٨م). وقد اشترك مع جماعة من المفكرين امثال ألكسندر هيرزن ونيكولاى دوبر وليوبوف ونيكولاى تشيرنيفسكى فى الدفاع عن حقوق الفلاحين. كذلك دعا إلى التجدد والتنمية الاجتماعية. وفى رأيه أنه لا عيش بدون تطور ولا تقدم بدون تطور.

الحياة بالعمل

يحمل هذا العنوان أحد المؤلفات التى قام ف ـ فيدل (١٨١٢-١٨٧١م) بتأليفها، والتى دعا فيها إلى توفير السعادة عن طريق "علم المجتمع". ويرى أن الفلسفة والاقتصاد والسياسة تتعاون معا وتتعاضد لتشكل علم المجتمع المحقق للرفاهية، ذلك أن الاحتياجات المعنوية هى موضع دراسة الفلسفة. وعن طريق علم السياسة يمكن تحقيق النظام، اما علم الاقتصاد فيقوم بتوفير المطالب المادية. ويرى فيدل أن السبيل إلى حل المشاكل التى تعترى المجتمع انما يكون عن طريق تنظيم المجتمع وتوزيع الثروة.. ولم يدعُ فيدل إلى الثورة لتحقيق النظام الاجتماعى الجديد، بل ناه يكتفى بالدعوة إلى توعية طبقات الشعب دون استثناء، واستخدام العطف والعقل والبعد عن العنف.

العاصفة والحياة

(أ) لاوتزى:

وُلد لاوتزى بالصين خلال عام ٦٠٤ ق.م، ويبدو أنه صاحب اول مذهب يتضمن نزعة فوضوية فى تاريخ الفكر البشرى. وكان ينشر



افكاره ومعلوماته بين طلابه ومريديه الذين قصدوه فى ملاذه فى جبال لنج بو بعد أن اعتزل امانة المكتبة الملكية فى كاو.

وبفضل تلميذه شوانج تزى حُفظت افكاره، حيث قام شوانج بتدوينها، الأمر الذى اثر عميقا فى الفكر الصينى، وهى - بالواقع - تكون عقيدة فكرية اطلق عليها اسم التاوية Taoisme وهذه العقيدة تعتبر أن "الظروف الخارجية تمنع الإنسان من انماء فضائله واظهار مزاياه الاخلاقية، وانه لابد من ازالة العقبات القائمة عن طريق انماء فضائله واظهار المزايا الشخصية. وقد كانت التاوية من العقائد الدينية الاجتماعية التى كانت تدعو لاقامة مجتمع بدون حكومة، ولذلك يمكن أن نعتبرها اول مذهب فوضوى النزعة فى التاريخ.

(ب) قانون البر الجديد:

وفى عام ١٦٤٩ يصدر كتاب "قانون البر الجديد" لجيرارد ونستافلى الذى نعتبره رائد "جماعة الحراثين" الذين استطاعوا أن يسبقوا غيرهم إلى الكثير من الافكار التى قام كروبتكين باعلانها فى كتابه "التعاون المتبادل" وبعض اراء باكونين، وغيرها من زعماء المذهب الفوضوى وكبار مفكريه.

(ج) العدالة السياسية:

كان - ولا يزال - كتاب "العدالة السياسية" الذى اصدره وليم جودين (١٧٥٦-١٨٣٦م) فى عام ١٧٩٣ مرجعا مهما من مراجع التفكير الفلسفى الفوضوى، حيث تظهر - بوضوح - التبريرات الفوضوية لدعوتها إلى الغاء الحكومة وتعديل نظام الملكية، بالاضافة إلى دعوتها إلى الحرية. وقد كان



جودين يعتبر أن النظام الفيدرالى هو افضل الانظمة وانسبها لاحلاله محل الحكومة السياسية، التى هى - من وجهة نظره - الآلة الوحشية التى كانت العلة الدائمة لمساوئ البشر.

(د) عقود الاحرار:

وقد رفض برودون (١٨٠٩-١٨٦٥م) الحكومة والسلطة، ودعا لأن تحل محلها مجموعة من العقود بين الرجال الاحرار، بالاضافة إلى رفضه وجود الدولة وكل الالوان السياسية وصورها واحزابها دون استثناء.

(هـ) باكونين:

ويرى ميخائيل ألكسندر (١٨١٤-١٨٧٦م) أن عالما جديدا بلا قوانين يكون فى حاجة ماسة إلى العاصفة والحياة. وبذلك يكون العالم الحر!

وقد اسهم باكونين كثيرا - كما فعل ماركس - فى تشكيل المذهب اللينينى. وكان من اكبر احلام باكونين أن تقوم امبراطورية ثورية سلافية، وهو نفس الحلم - بكل دقائق حدوده - كما حققه ستالين.

وقد تبدو هذه التصورات، كما تتبدى من رجل كان من الحكمة، بحيث ذكر أن القوة الدافعة المحركة لروسيا هى الخوف، ورفض نظرية ماركس فى الديكتاتورية الجزئية. وقد تبدو تصورات متناقضة، لكن هذه المتناقضات تدل على أن اصول مذاهب السلطة هى اصول فى اجزاء منها عدمية.

ونرى بيساريف يبرر اقوال باكونين، وكان الاخير يطلب الحرية المطلقة حقا، لكنه كان يرى أن تحقيقها بالدمار الكامل، بتدمير كل شىء: نستطيع أن نبنى بدون اساس، وان نسند الاساس بعد ذلك بسواعدنا.



لكن كل من يرفض الماضى برمته، ويرفضه ولا يستبقى منه شيئا، وبذلك ينفخ الحياة فى الثورة، يسلم نفسه إلى المستقبل، ويعلن أنه لا ثقة له إلا فى المستقبل، وهو بذلك يسلم إلى الشرطة مهمة تبرير الوضع المؤقت. ويطالب باكونين باقرار الديكتاتورية، لا لتعارض شهوته فى التدمير، لكن لتتمشى معها. ونرى أنه مادامت القيم الاخلاقية عنده قد تبلورت فى النفى الخالص،فإنه ما كان لشىء يستطيع أن يقف ضده، أو - على الاقل - مواجهته.

ولكن هل هذا كله استطاع أن يقدم شرحا وافيا لتفكير الفوضوية لدى باكونين؟! وما هو أنموذج الثورى الباكونينى؟

ونرى أن الصورة التى رسمها الكتيب المؤلف من بضع صفحات - والذى نشر فى روسيا عام ١٨٦٩ ونسب إلى بليشاييف بعنوان "التعليم الثورى" - افضل ما يعبر عن أنموذج الثورى الفوضوى الباكونينى: "ان الثورى رجل بذل نفسه، ليست لديه مصالح شخصية ولا شئون، لا شعور ولا صلات، فهو رجل لا يمتلك شيئا ولا يحمل اسما. ونجده فى صميم ذاته نسف - بالفعل لا باللفظ - كل الروابط القائمة بينه وبين النظام العام، فهو لا يملك إلا علما واحدا وهو علم التخريب والتدمير. اما المشاعر العائلية ومشاعر المودة والصداقة والحب - وهى مشاعر مثلى - فيجب الاطاحة بها لدى الثورى بواسطة تعلقه الاوحد والخالص من كل تأثر مما يحيط به بالعمل الثورى.

وبرأى باكونين أن الثورة عبارة عن عمل شعبى تلقائى مبعثه وعى الجماهير، وهو عمل معظمه خيال والباقى واقع وتنظيم. وان الثورة انما



فى العنف، ولا مجال فى ممارستها لاية مفاوضة أو تسوية أو مهادنة. اما آفاقها فإن من العسير - بل من المستحيل - تحديدها.

ومن هنا نرى منشأ التناقض بين باكونين وماركس حول العديد من قضايا الثورة، ففى الوقت الذى كان فيه ماركس يرى أن الاسلوب الثورى هو اسلوب علمى واقعى كانت وجهة نظر باكونين أن الاسلوب الثورى انما يكون فى تحريض الجماهير على أن يقوموا باعمال ارهابية ليس الا، وعلى هذا فإننا نرى أن ثورية باكونين قد اكتسبت صفة "الفوضوية"، وبالتالى اصبحت هذه التسمية تقترن بذكره وذكر فكره. ومادام أنه لا اسلوب ثوريا فقد كان باكونين يعارض أى تنظيم ثورى رسمى قائم على اسس وقواعد والتزامات وتوجيهات محددة. وعلى هذا نرى أن باكونين كان يقتصر على المبادرة الفردية، واذا كان من الضرورى المشاركة، فالشكل الوحيد هو وجود جماعة متفاهمة على مواضيع معينة.

وقد اعلن باكونين مدى يأسه من الطبقة البرجوازية وثقته بالفلاحين والشباب والعمال. ونراه فى ذلك يقول: "فى المسألة البرجوازية وفى مجال البرجوازية لست إلا سياسيا رديئا، وصاحب تكتيك غاية فى السوء. وليس فى نيتى أن اكون غير ذلك". ويقول فى نفس الاطار: "اننى لا اثق إلا فى الطبقة العاملة فى اوربا الغربية، كما اثق فى الفلاحين والشباب المتعلم فى روسيا".

وفكرة الدولة - من أى نوع - مرفوضة تماما عند باكونين، بل نراه يدعو ويحث على القضاء عليها، حيث أن وجهة نظره أن الدولة تكون متعارضة مع مبدأ الحرية.



وعلى كل نرى أن باكونين قد اقر بأن الانتاج ملك للمجتمعات التعاونية التى تتألف من العمال.

كارل ماركس

ونجد من الضرورى أن نعترف أنه من غير الممكن الاحاطة بتفكير ماركس السياسى فى الصفحات التالية المعدودة، لذلك فإننا لا ندعى أن ما نورده يتجاوز الملاحظات العابرة.

(أ) الديالكتيكية المادية:

ارتبط ديالكتيك هيجل بالمطلق، والمطلق فى الديالكتيك الهيجلى هو المنطلق وهو النهاية. ولما كان المطلق هو ـ بحد ذاته ـ معتقد Dogma لذلك كانت ديالكتيك هيجل منهجا ومذهبا فى الوقت نفسه.

ولما جاء كارل ماركس (١٨٨١-١٨٨٣م) اخذ من ديالكتيك هيجل المنهج، وقام باستبعاد المذهب على اساس أنه تصورى. ولكن ليس معنى ذلك أنه استبعد المطلق، ذلك أن ماركس ـ فى الواقع ـ استبعد المطلق كمطلق، ولكننا نراه ـ فى الوقت نفسه ـ قد اعتبر المطلق منتهى، وذلك على اساس أنه يمثل الارتقاء النهائى للإنسانية.

وقد كتب ماركس فى المقدمة الثانية لكتاب "رأس المال" المنشور سنة ١٨٧٣: "لا يختلف منهجى الديالكتيكى ـ فى الاساس ـ عن منهج هيجل فقط، بل هو على النقيض تماما، حيث أن هيجل قد اعتقد أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعة الواقع الذى ليس إلا الصورة الظاهرية للفكرة اما وجهة نظرنا فهى على العكس من ذلك أن الفكرة ليست إلا انعكاس حركة الواقع، وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان وعقله.



وفى كتابه "المادية" الديالكتيكية والمادية التاريخية" يعرف ستالين النزعة المادية عند ماركس، مبينا أن مادية ماركس تقوم على المبدأ القائل بان العالم بطبيعته مادى، وان اختلاف ظواهر الكون انما هى جوانب مختلفة للمادة فى حركتها، وان العلاقات والشروط المتبادلة بين الظواهر التى يكشف عنها المنهج الديالكتيكى هى القوانين الضرورية واللازمة لنمو المادة المتحركة، وان نمو العالم يكون حسب قوانين حركة المادة، وهو فى غير حاجة لأى روح شاملة.

ومن هنا نجد أن ماوتسى تونغ قد انطلق فى مقال له بعنوان "فى الممارسة العلمية" إلى القول بأن الماركسيون يعتبرون ـ اولا وقبل كل شىء ـ أن نشاط الإنسان فى الانتاج، انما يشكل اهم نشاطاته العملية الأساسية، ويقرر نشاطاته الاخرى، فالإنسان ـ بالاعتماد بصورة رئيسية على نشاطه فى الانتاج المادى يتفهم تدريجيا ظواهر الطبيعة وخصائصها والقوانين التى تتحكم فيها، والعلاقة بين الإنسان وبين الطبيعة. وكذلك يتفهم ـ تدريجيا أيضاً ـ وعلى درجات متفاوتة عن طريق فى الانتاج ما يربط بين الإنسان والإنسان من علاقات معينة. وليس فى استطاعته أن يحصل على أى معرفة من هذه المعارف بمعزل عن النشاط فى الانتاج. ويعتبر ماوتسى تونغ أن النظرية المادية الديالكتيكية عن عملية تطور المعرفة من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة لم يتمكن أحد من الوصول اليها على هذا النحو قبل أن تظهر الماركسية.

(ب) المادية التاريخية:

لقد استشهد بليخانوف فى كتابه "فلسفة التاريخ" بفقرة لماركس وردت فى مقدمة مؤلفه "نقد الاقتصاد السياسى" كى ينطلق منها إلى



عرض المفهوم الماركسى للتاريخ. حيث ورد: "لقد افضت ابحاثى إلى النتيجة التالية: لا يمكن تفسير العلاقات الحقوقية واشكال الدولة لا بذاتها ولا بالتطور العام المزعوم للفكر البشرى، وانما هى تستمد جذورها من شروط الحياة المادية التى كان يفهمها هيجل تحت اسم "المجتمع المدنى" اسوة بالمفكرين الانجليز والفرنسيين فى القرن الثامن عشر".

وعلى ذلك فإن الوضع الاقتصادى لشعب ما هو الذى يقوم بتحديد الوضع الاجتماعى، والوضع الاجتماعى لذلك الشعب هو الذى يحدد بدوره وضعه السياسى والدينى، وهكذا.. اما سبب الوضع الاقتصادى فهو السبب الاساسى لمجموع التطور الاجتماعى، وبالتالى لكل حركة تاريخية، هو الصراع الذى يخوضه الإنسان مع الطبيعة فى سبيل وجوده.

ويوضح بوليتزر، بيس، وكافين فى "اصول الفلسفة الماركسية" هذا المفهوم بتعريف المادة التاريخية بانها النظرية العامة لطرق الانتاج، وان العلم الخاص بالقوانين الموضوعية التى تقوم بالسيطرة على علاقات الانتاج بين الناس هو الاقتصاد السياسى، وان موضوع علم التاريخ هو العلاقات المتبادلة بين الطبقات المختلفة التى تتمثل فيها هذه العلاقات للانتاج، سيما علاقاتها السياسية.

(ج) رأس المال والبيان الشيوعى:

يعتبر كتابا "رأس المال" و"البيان الشيوعى" الانجازين الفكريين الرئيسيين فى انتاج ماركس الفكرى الملىء بالعديد من الابحاث والدراسات



والمؤلفات فى شئون الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، منها: "مساهمة فى نقد فلسفة القانون عند هيجل" سنة ١٨٤٤ "حول المسألة اليهودية" سنة ١٨٤٤ "الاقتصاد السياسى والفلسفة" سنة ١٨٤٤ "العائلة المقدسة" سنة ١٨٤٥ و"الأيديولوجية الألمانية" سنة ١٨٤٥-,١٨٤٦ وقد اشترك هيجل فى المرحلة الثانية مع إنجلز فى وضع "البيان الشيوعى" سنة ١٨٤٧ "الصرعات الطبقية فى فرنسا"، "مساهمة فى نقد الاقتصاد السياسى" سنة ١٨٥٩ خطاب افتتاح الأممية الأولى سنة ١٨٦٤ و"الحرب الاهلية فى فرنسا" سنة , ١٨٧١ وقد كتب ماركس تاريخ المذاهب الاقتصادية" بين ١٨٦١-١٨٦٥ وكتب "رأس المال" بين ١٨٦٤-١٨٧٦.

وانطلاقا من الديالكتيكية فإنه يمكننا عرض بعض معالم الفكر السياسى لماركس.

نشأة السلطة السياسية:

برأى ماركس أن اداة الانتاج قد فقدت الغاية من وجودها ووظيفتها لسد حاجات الإنسان، حيث أن العمل وهو العامل المكون لقيمة الاداة الانتاجية قد نزعت منه نتائج مجهوداته. وفى تحليل ماركس لنشأة السلطة السياسية ووجود طبقة حاكمة مستبدة نجد أنه يعتبر أن العمل - كوسيلة إنتاج - ظل يؤدى غايته حتى ظهرت النقود واصبحت معيارا ومقياسا للقيمة. وبذلك نجد أن النقود قد اصبحت لغاية تكوين الثروة الفردية.

التوسع الذاتى لرأس المال وفائض القيمة:

وقد كان من اللازم والضرورى حصول ما يسمى "فائض القيمة" نتيجة لاستخدام رأس المال للعمل والحصول منه على ما يفيض على



حاجته - رأس المال الطفيلى - وذلك باطالة يوم العمل وزيادة طاقة الانتاج فى الوحدة الزمنية، وتحقيق فائض داخلى فى نظام الانتاج وتعميم نظام التخصص وتقسيم العمل.

الصراع الطبقى:

وقد كان من نتيجة ذلك أن حول رأس المال العمل الفردى إلى عمل جماعى مشترك، الأمر الذى تطلب زيادة حجم رأس المال من جهة، وادى إلى زيادة الانتاج من جهة اخرى. وحتى يتم تحقيق ذلك كان من الضرورى زيادة عدد العمال. ومن المؤكد أن تؤدى زيادة عدد العمال إلى ازدياد قوة طاقة المقاومة والمعارضة لسلطة رأس المال. وهنا نجد بروز الصراع الطبقى لغاية تحقيق الاشراف الاجتماعى على العملية الانتاجية.

الطبيعة البشرية:

وفى الواقع اننا نجد أن ماركس عندما تناول خصائص النظام الرأسمالى الذى اشرنا اليها كان على ضوء بحثه "الطبيعة البشرية". ويرى ماركس أن الإنسان هو حيوان اقتصادى أكثر من كونه حيوانا سياسيا، وان التطور الذى وصلت إليه الإنسانية فى مواجهتها للتغييرات المتلاحقة والمتسارعة فى الحياة المتطورة واستجابات حاجاتها، انما كان عن طريق اختراع الإنسان للادوات ثم للآلات والعمل على تطويرها.

وفى الاساس فإن العمل البشرى عبارة عن عملية تجرى بين الإنسان والطبيعة للسيطرة على مواردها والعمل على تنظيمها، وان تمكن الإنسان من تغيير الطبيعة انما يؤدى فى الوقت نفسه إلى تطوير الإنسان، ويعمل على

تنمية ملكاته وقدراته الكامنة وجعله قادرا على السيطرة على هذه الملكات، واخضاعها لاشرافه التام. ومن هنا كان الانتاج المادى هو اساس الحياة الاجتماعية باكملها. وكان تقسيم العمل هو السبب الرئيسى فى قيام التخصص الذى ادى إلى التعاون فى سد الحاجات بين الاختصاصات بعضها مع البعض، وزيادة القدرة على سد الحاجات المتعددة، الأمر الذى ادى إلى ارتباط الطبقات الاجتماعية ببعضها بسبب حاجتها إلى تبادل منتجاتها.

تحقيق الاشراف الجماعى على وسائل الانتاج:

والثورة هى التى تؤدى إلى تحقيق الاشراف الجماعى على العملية الانتاجية، وبعبارة أخرى نقل الانتاج ومكاسبه من الفرد إلى المجتمع.

ونجد أن ماركس قد خلص إلى ذلك على ضوء اربع نتائج حددها ماكنتاير فى مقال له عن ماركس، وهى كما يلى:

- ان الاشكال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتألف منها وحدة المجتمع هى الدليل الذى يشير إلى وجود طبقة مسيطرة، والى وجود توترات بين الطبقات المختلفة، والى معارك ينبغى على الطبقة الحاكمة خوضها.
- ان سر العلاقات السياسية والاجتماعية هى العلاقة بين البرجوازية والطبقة العاملة.
- انه لا يمكن فهم أى نظرية سياسية بمعزل عن اطارها فى الصراع بين الطبقات.
- ن نضال الطبقة العاملة ضد البرجوازية انما هو فى حقيقته نضال سياسى، والنضال السياسى لا يمكنه تخطى الحدود التى تقيمها مرحلة معينة فى التطور الاقتصادى.

ولولا فـردريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م) مـا امكن نشـر الجـزءين الثـانى والثالث من "رأس المال" لماركس، ففى عام ١٨٨٥ قام إنجلز باصدار الجزء الثانى من "رأس المال"، وفى عام ١٨٩٤ اصدر الجزء الثالث. وفى الوقت نفسـه كان إنجلز يعد كـتـابيـه "أصل العـائلة والملكيـة الخـاصـة والدولة" و"لودفـيغ فـيـورباخ - نهـاية الفلسـفـة الالمانيـة التـقليـدية" الذى قـام فـيـه بايضـاح الفوارق بين القوانين الموضوعية فى جمال الطبيعة وفى مجال التاريخ والمبادئ الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادة التاريخية.

المادة الديالكتيكية وديالكتيكية الطبيعة:

ان الفضل فى بحث النظرية فى مجالى العلوم الطبيعية والرياضية يعود لإنجلز، حيث أن كتابه "جدليات الطبيعة" فى الحقيقة هو الجانب الآخر من كتاب "رأس المال" لكارل ماركس. واذا كان ماركس قد قام بتحديد القوانين الجدليـة الأسـاسـيـة فى المجـتـمع، فإن انجلز يحدد فى كتابه هذه القـوانين الجدلية فى الطبيعة. وبهذا نعتبره تتميما لكتاب "رأس المال" وتعميما لمبادئه الأساسية، وتأكيدا للمادية الجدلية فى مجال العلوم الطبيعية.

البيان الشيوعى:

ومـهـمـا يكن تسليمنا بقـول إنجلز نسـبـة اسـهـامـه مع مـاركس، فـمن الضـرورى أن نشـيـر إلى أن البـيـان الشـيـوعـى الذى اصـدره مع مـاركس ١٨٤٨ يحتوى على خلاصة المنهج الفكرى النظرى والعملى لكل منهما.

ولابد أن ننوه بالدور الذى قام به إنجلز فى اعداد كتاب "الأيديولوجية الألمانية" الذى اشترك فى تأليفه مع ماركس عام ١٨٤٥.



ولم يغفل تاريخ الفكر الفلسفى والسياسى الاشارة إلى اهمية المؤلفات التى قام إنجلز بتأليفها منفردا، مثل "حالة الطبقة العاملة الانجليزية"، "معارضة دوهرنج"، و"فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية التقليدية".

تدخل الدولــة

ترجع اهمية الفكر السياسى لفرديناند لاسال (١٨٢٥-١٨٦٤م) إلى نظرته العملية فى دور الدولة، وتدخلها فى جميع شئون المجتمع حتى يمكنها القضاء على مساوئه، إذ أنه يرى أن الدولة انما وجدت ـ فى الواقع ـ لتحقيق الحرية ومقاومة الظلم، والقضاء على البؤس والجهل والعوز والعنف، ذلك أن الفرد وحده يكون عاجزا عن القيام بهذا الدور، ولذلك فإن الضرورة تحتم الاتحاد، والدولة ما هى إلا صورة لهذا الاتحاد.

وقد قام لاسال بتقسيم تاريخ الجنس البشرى إلى ثلاث مراحل: المرحلة الاولى هى المرحلة البدائية، وفى هذه المرحلة التى سادها الاقطاع تحقق الاتحاد، ولكن بهدف اخضاع العامل والفلاح. ومع نشوب الثورة الفرنسية ١٧٨٩ بدأت المرحلة الثانية، ونجد فيها انتقال الحكم إلى الطبقة الرأسمالية والطبقات المتوسطة، وكانت الغاية هى تحطيم الاتحاد القديم الذى كان يرمى إلى اخضاع العامل والفلاح لتحقيق الحرية. وفى عام ١٨٤٨ جاءت المرحلة الثالثة. وكانت غايتها أن توفق بين المرحلتين، والتضامن والحرية، وتحقيق ذلك انما يكون عن طريق انشاء جمعيات انتاجية من العمال متحدة، وتكون خاضعة لاشراف الدولة وتوجيهها.



يعتبر كارل كاوتسكى (١٨٥٣-١٩٣٨م) من اهم من قاموا بشرح الماركسية، حيث أنه تناول فى كتابه "برنامج العمل" - الذى يعتبر من مراجع الفكر الماركسى - قضية التعاون الاختيارى فى تغيير البنيان الاقتصادى للمجتمع، وضرورة اطراد الزيادة فى الوحدات التى تسيطر على الانتاج. ويعتبر كاوتسكى من رواد تخطيط الصناعة على النطاق العالمى والقومى.

وقد حاول كاوتسكى أن يؤلف بين الماركسية الاصيلة والاشتراكية والديمقراطية. وبذلك نراه قد ذهب إلى اتجاه يخالف اتجاه "البيان الشيوعى" والمخطط اللينينى "المذهب الثورى العالمى". فقد اعتبر أن الثورة الاشتراكية قد تتحقق بشرط أن يحدث ذلك عن طريق الاساليب الديمقراطية. وتستطيع الاشتراكية أن تكسب الاغلبية الشعبية عن طريق الديمقراطية، وبذلك تتمكن من احداث الثورة.

وبرأى كاوتسكى فإن غاية الثورة هى تحقيق الديمقراطية الكاملة لا دكتاتورية البروليتاريا كما ذهب لينين. وقد فصل كاوتسكى فى كتاب "دكتاتورية البروليتاريا" وجهة نظره فى الديمقراطية الكاملة، معتبرا ثورة اكتوبر ثورة برجوازية، كان انجازها فى نقل الملكية من الاقطاعيين إلى الفلاحين.

ولكننا نرى أن كاوتسكى قد اقر بأن تخطيط الصناعة قد يمهد الطريق إلى الاشتراكية.

●●



وبرغم موقفه من البلشفية ولينين، فإن تاريخ الفكر السياسى لم يغفل أن يذكر فكر جورج بليخانوف (١٨٥٧-١٩١٨م). وقد بدأ موقف بليخانوف سلبيا واصبح قطيعة ثم نراه ينتهى إلى خصومة، وذلك فى كتابه "الانهزامية البلشفية".

ولا يستطيع الفكر السياسى الاشتراكى إلا أن يذكر الافكار الفلسفية التى جاء بها بليخانوف، وكذلك توضيحه لاهم مواضع الفلسفة الماركسية: التاريخ والمفهوم المادى للتاريخ.

وقد بين بليخانوف أن مذهب ماركس الثورى يعكس بامانة قوانين تطور المجتمع، وهو وليد ذلك التفحص الانتقادى لتراث الماضى النظرى وتنميته والعمل على تطويره فى سياق منهجى علمى. ويذكر بليخانوف فى مؤلفه "مقدمة للتاريخ الاشتراكى الروسى" أنه خرج من الفكرة الأساسية للمادية التاريخية برأى هو أن الوعى لا يحدد الإنسان، ولكن الإنسان هو الذى يحدد الوعى.

وقد حدد بليخانوف العناصر التى تتكون منها المادية التاريخية، وهى كما يلى:

- تكوين القوى المنتجة.
- العلاقات الاقتصادية التى يخضع لها.
- النظام السياسى - الاجتماعى القائم على القاعدة الاقتصادية المحددة.
- سيكولوجية الإنسان الاجتماعى.
- القاعدة المختلفة.



ويوضح بليخانوف - من خلال تحليله لكتاب أنطونيو لابريولا - بعض القضايا الأساسية فى المادية التاريخية والعوامل التاريخية والمفهوم العلمى للمجتمع والارتباط بينهما.

وبرأى بليخانوف أن القفزات التى يقوم بها التاريخ تتم بلا هوادة أو رفق، وان التاريخ حافل بهذه القفزات، والتى بدونها لما كانت مراحل الانتقال والتطور التاريخى. وقد اعتبر بليخانوف أن التطور الاقتصادى لابد أن يؤدى إلى الثورة السياسية التى تكون نتيجتها التأثير على النظام الاقتصادى، وان النظم الاجتماعية ما هى إلا وليدة الصراع بين الطبقات المستغَلة والطبقات المستغلة.

وفى كتابه "الفوضوية والاشتراكية" نراه ينتقد كلا من شترنر وبرودون وباكونين والفوضوية عموما، حيث يوضح أن الفوضويين لا يريدون - فى الواقع - فصل الطبقة العاملة عن مستغليها فحسب، بل أنهم يرمون إلى الحيلولة بين البروليتاريا وبين الوصول إلى حقوقها السياسية!

أوهـــام النقد

وقــد كــان جــورج ســوريل (١٨٥٧-١٩٢٢م) من اشــد المناهضــين للماركسية، حيث نراه يخصص أحد مؤلفاته "تحليل الماركسية" لانتقادها. وقد نالت الديمقراطية - بدورها - حظها من انتقادات سوريل، حيث نجده فى كتابه "إفلاس العالم القديم" يقول: "ان فلسفة القرن التاسع عشر قد قادت العالم إلى ايمان وهمى بالديمقراطية"، فالديمقراطية كانت محل انتقاد سوريل واستنكاره.

وقد انكر سوريل فى كتابه "أوهام التقدم" قدرة العقل وطاقته كوسيلة للعمل الاجتماعى، ونفى مفهوم التقدم كحقيقة موضوعية.



وفى كتابه "تأملات فى العنف" اعتبر الاضراب العام من انجع الوسائل للاطاحة بالانظمة. وقد دعا إلى الاطاحة بالانظمة وخاصة البرجوازية، دون أن يحدد النظام الافضل برأيه.

قاع الكون

ويذكر العالم الاجتماعى ليفى برول أن جان جوريس (١٨٥٩-١٩١٤م) قد شرح فى كتاب له لاحد اصدقائه: (انه قبل أن يعمل فى السياسة "يحاول أن يلمس قاع الكون"). ومن هنا كان عمله السياسى قائما على تفكيره الفلسفى، حيث تجلى ذلك فى مؤلفاته، ومنها "حقيقة العالم الملموس"، "خطب برلمانية"، و"دراسات اشتراكية"...

ولذلك نرى أن جوريس قد وضع فكرة التنظيم الجامع للبروليتاريا محل الصنف، وإمكانية تدخل الدولة بدلا من الافراد لتنظيم الاقتصاد. وعن طريق النظام الديمقراطى الشامل والمتطلع يمكن أن ترتبط الاشتراكية بالديمقراطية التى تتحقق عن طريق النظام الجمهورى الذى هو انسب النظم من اجل ذلك.

الأحمسا

"الأحمسا" أو اللاعنف الايجابى، وبعبارة أخرى الحب فى اسمى صوره، هو المنطلق للافكار التى جاء بها "موهانداس كرمشند غاندى" المعروف باسم المهاتما (١٨٦٩-١٩٤٨م)، والذى لم يتردد لويس فيشر بتسميته "الثائر القديس".

ومن اقوال غاندى "إن عدم العنف هو اعظم القوى فى خدمة الجنس البشرى، أنه اقوى من اقوى سلاح للتخريب ابتدعته عبقرية الإنسان".



وان الشرط الاول لعدم العنف ـ برأى غاندى ـ أن تشمل العدالة كل ناحية من نواحى الحياة. أن عدم العنف هو التحرر من الخوف، ومن عدم العنف يستخرج غاندى قانونا ساميا للحب، فعدم العنف ليس حب من يحبنا، بل هو حب من يكرهنا.

ونجد اصرارًا من غاندى على اعتبار أن المحل الاساسى فى السياسة والشئون الدينية انما يكون بعدم العنف، ذلك أن الذى يؤمن بمبدأ العنف لا يمكنه أن يمنع نفسه من أن يثور على الظلم الاجتماعى والتمييز بين الطبقات أينما وُجد، وهو الذى يحرم الاستغلال فى أى صورة من صوره تحريما كاملا.

وقد دعا غاندى إلى المساواة فى توزيع السلع، ولكنه استدرك على اساس أنه يجد ذلك مستحيلا فدعا إلى توفير العدالة فى التوزيع، وان تأمين ذلك يكون عن طريق تمكين كل فرد من الحصول على عمل يستطيع عن طريقه سد حاجاته من ايراداته. وبرأيه أن ذلك امر لا يمكن تحقيقه إلا بوضع الوسائل التى تنتج السلع الضرورية تحت سيطرة الشعوب.

وعلى حد وجهة نظر غاندى فإن المضمون الرئيسى للمساواة فى توزيع الثروة هو اعطاء كل فرد من افراد المجتمع الوسيلة التى يتمكن عن طريقها من الحصول على حاجاته الطبيعية ليس إلا. وللوصول إلى ذلك عن طريق عدم العنف هو أن يقصر الفرد احتياجاته إلى الحد الادنى، وان يتحرر فى كسب قوته عن طريق الغش وان لا يلجأ إلى المضاربة.

وبرأى غاندى أن الفائض الكبير فى الثروة الذى يسيطر على الاغنياء هو ما يدعو إلى المساواة فى توزيع الثروة، ولا يجوز لهؤلاء الاغنياء أن يملكوا شيئا أكثر من غيرهم.



ويرى غـانـدى أن الحل انما يكون فى ترك الرجل الغنى مـالكا ثروته لينفق منها ما كان فى حد المعقول فى حياته، ويظل وصيا على باقى ثروته فيما يعم بالخير على المجتمع. اما إذا رفض هؤلاء ذلك، فالحل يكمن فى عدم التعاون معهم، بالاضافة إلى اعلان العصيان المدنى، وهذه وسيلة مجدية، على اعتبار أن الاغنياء ليس فى وسعهم تحقيق الثروة بدون أن يتعاونوا مع الفقراء فى المجتمع.

وقد قام غاندى بالدعوة إلى تغيير ظروف العمل والاندفاع الجنونى لجمع الثروة واكتنازها، بالاضافة إلى تأمين العمل الدائم للإنسان، الأمر الذى تصبح معه الآلة عونا كبيرا للإنسان، كما تكون عونا للدولة أو لمن يملكها.

وقد بنى غاندى رأيه فى الديمقراطية على اساس عدم اللجوء إلى العنف، حيث أن استعمال العنف عند ممارسة الديمقراطية تكون نتيجته زوال تلك الديمقراطية.. والسلطة السياسية عند غاندى ليست غاية، بل هى وسيلة يستطيع الناس عن طريقها أن يحسنوا من ظروفهم واوضاعهم فى كل ناحية من نواحى الحياة، كذلك يعتبر غاندى أن النظام البرلمانى يكون صالحا عندما تتوافق ارادة البرلمان مع ارادة الاغلبية.

الدولة والثورة

وعندما جاء فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م) اضاف إلى الماركسية عدة نظريات مهمة فى الاحتكار والاستعمار والحروب والدولة والقومية والتحالف بين العمال والفلاحين ودكتاتورية البروليتاريا والربط بين الثورة الاشتراكية وحركات التحرر الوطنى، وقلب مفاهيم الثورة التى كانت شائعة فى عصره من عمل ارهابى فوضوى إلى عمل علمى فلسفى منظم يقوم على التوعية والتخطيط.



وفى الواقع فإن الاحاطة بجوانب فكر لينين السياسى غير ممكن فى هذه المعالجة، لذلك فإننا سنكتفى بابداء بعض الملاحظات السريعة عن ابعاد الفكر اللينينى.

(أ) الشعب صانع التاريخ:

كانت حركة الناردونيين (الشعبيين) هى التى سادت روسيا حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر. وكان هؤلاء يتخذون من الارهاب وسيلة للثورة على القيصرية وتغيير المجتمع. وفى الوقت نفسه نراهم ينكرون على العمال دورهم، ويعتبرون الفلاحين وحدهم القوة الثورية.

وبرأى لينين أن حركة الناردونيين عقبة كئود فى طريق الثورة. وكان اول ما قام به فى هذا السبيل أن يناقش افكار هؤلاء علميا، فوضع كتابه المشهور "من هم اصدقاء الشعب؟" عام ١٨٩٤ حيث قام بتحليل الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى روسيا، وقد أثبت لينين أن الشعب هو الذى يصنع التاريخ، ويربط بين دور قادة الشعب ومدى التفهم لقوانين المجتمع الموضوعية ورؤياهم الحقيقية فى التقدم واستجاباتهم لمصالح الشعب. ونرى لينين يركز على الخبرة العملية التى تنتج عن الممارسة لما تضيفه على المكتبات النظرية من مجالات جديدة. واخيرا دعا لينين إلى تكوين حزب ماركسى للعمال.

(ب) المرونة الثورية:

وبنظر لينين أن الناردونيين لم يكونوا وحدهم العقبة فى طريق الثورة، بل كانت هناك أيضاً جماعة "الماركسيين القانونيين"، وقد قام لينين بانتقاد هؤلاء انتقادا علميا وحلل افكارهم ووسائلهم وكشف تحويراتهم فى التفكير الفلسفى.



وفى سبيل مصلحة الثورة اضطر لينين إلى أن يتحالف مؤقتا مع الماركسيين القانونيين، ومن هنا كانت نشأة نظرية إمكان التحالف المؤقت أو الطويل مع القوى الاجتماعية السياسية الاخرى، ولكن بشرط المحافظة على الكيان الفكرى النظرى والعملى المتميز والممارسة الثورية المستقلة. ويتجلى ذلك واضحا فى دراسته الموقعة باسم "تولين" التى نشرت عام ١٨٩٥ مع مجموعة من الدراسات التى ساهم بها مجموعة من الكتاب الناردونيين.

(ج) وحدة هدف الديمقراطيين والاشتراكيين:

وقد كتب لينين فى عام ١٨٦٧ عن "واجبات الاشتراكيين الديمقراطيين"، حيث اعتبر أن مهمة الحزب هى واحدة سواء كانت اشتراكية ام ديمقراطية، ذلك أن الهدف هو تنظيم الكفاح الطبقى للبروليتارية فى ناحيتين، ناحية ديمقراطية: تتجلى فى الكفاح ضد الأتوقراطية والاقطاعية حتى يمكن تحقيق جمهورية ديمقراطية. اما الناحية الأخرى فهى اشتراكية: وهى الكفاح ضد الرأسمالية لتحقيق المجتمع الاشتراكى، وهما وجهان لا ينفصلان.

(د) ما العمل؟!:

بقيت الاداة.. الحزب القائد. وقد قام لينين فى كتابه "ما العمل؟" بعرض اوضاع الحركة الاشتراكية الديمقراطية، وعالج المشاكل الأيديولوجية والتنظيمية للحركة الاشتراكية الديمقراطية فى روسيا، وبين الاهمية النظرية للثورة والوعى والتربية السياسية للطبقة العاملة، ودور الحزب القيادى، شارحا ومعمقا اشكال صراع الاشتراكية الديمقراطية التى بينها إنجلز، وهى الشكل النظرى والشكل الاقتصادى والشكل السياسى.



(هـ) خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف:

وكثيرا ما تعانى الاحزاب من انشقاقات داخلية تصل احيانا إلى المس بكيانها. وقد انقسم حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى إلى (البولشفيك والمنشفيك). وقد حلل لينين فى كتابه "خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف" مغزى هذا الانقسام، والخلافات القائمة حول التنظيم. كذلك تناول لينين مبادئ التنظيم الماركسى اللينينى واسسه الفكرية، والنظرية القائمة على فهم طبيعة الحزب البروليتارى ودوره الطليعى فى قيادته الطبقة العاملة.

(و) الثورة ذات المراحل:

لا ريب أن "استراتيجية الثورة ذات المراحل" هى الخلاصة من دراسة لينين الشاملة المتعمقة للانقسام الحزبى. وقد خرج لينين من هذه الدراسة بنظرية تطور الثورة البرجوازية والديمقراطية إلى ثورة اشتراكية، وذلك انطلاقا من نظرية ماركس فى الثورة الدائمة والظروف التاريخية الجديدة.

(ز) الدولة:

وقد دافع لينين فى "الدولة والثورة" عام ١٩١٧ عن التعاليم الماركسية بشأن الدولة. وبين مهام البروليتاريا والفلاحين فى سبيل قيام الدولة الاشتراكية، وهى:

١ ـ تحطيم جهاز الدولة القديم.

٢ ـ اقامة ديكتاتورية البروليتاريا وتركيز السلطة كلها فى يد السوفيات (المجالس)، وذلك باعتبارها الاجهزة التى تمثل العمال والفلاحين.



٣ ـ انشاء جهاز دولة قومى جديد، واستخدامه استخداما فعالا فى سبيل اعادة بناء المجتمع على اسس اشتراكية.

وقد طور لينين مبادئ ماركس حول الدولة وشكلها، واغناها بمحتوى جديد، حيث اكتشف فى الظروف التاريخية التى مرت بها روسيا شكلا جديدا للدولة الاشتراكية، وهو جمهورية السوفيات.

"وجمهورية السوفيات هى تنظيم للدولة تكون فيه الاجهزة الأساسية للسلطة فى المركز وفى المناطق هى السوفيات، ويتألف تركيبها من الكادحين عن طريق انتخاب ممثليهم ذوى الصلاحيات؛ أى النواب. وهكذا نرى أن سوفيتات النواب الذين يمثلون الكادحين تكون الاساس السياسى للدولة، حيث تعتمد فى نشاطها على المنظمات الاجتماعية العديدة وجمعيات الكادحين".

تراكم رأس المال

واذا ما نظرنا إلى فكر روزا لوكسمبورج (١٨٧٠-١٩١٩م) السياسى فإننا نجد أن اهميته تنصب على تبنيها الكيفية التى استطاعت بها الرأسمالية أن تتفادى انهيارها المحتوم.

وتتمثل الاهمية المباشرة لنظرية روزا ـ التى وضعها فى كتاب "تراكم رأس المال عام ١٩١٣ ـ فى مجال آخر عندما اظهرت استحالة تكوين رأس المال فى نظام مغلق، وان الرأسمالية لا يمكنها الاحتفاظ بسيرها وتفادى انهيارها بطريقة تقتصر على تفسير ظاهرة الامبريالية وهى ظاهرة مؤقتة، وانما بهذه النظرية تكون قد وضعت حدا تاريخيا. وهذا يعنى أن التوسع الرأسمالى كان يتوخى الاسس التى يقوم عليها، وبهذا أصبح النظام حقيقة تاريخية مؤكدة.



وقد اكدت روزا لوكسمبورج أن الاشتراكية بدون حرية ليس فى إمكانها أن تنشأ. وهى تعتبر أن الانتخابات العامة وحرية الصحافة والاجتماع وتصارع الافكار من صميم مظاهر الحرية.

الحريــــة

قدم جون ستيوارت ميل (١٨٧٢-١٩٠٧م) مقالته أو بالاحرى كتابه عن "الحرية" بالكلمات الآتية:

"ان موضوع هذه المقالة هو الحرية الاجتماعية والمدنية، وطبيعة وحدود السلطة التى يمكن للمجتمع أن يفرضها على الفرد قانونا. وهذه المسألة لم توضح من قبل ولم تناقش بشمول إلا قليلا، إلا أن لها تأثيرا عميقا على موضوع الساعة. ومن المحتمل أن تصبح مسألة المستقبل الحيوية.

وقد اعتبر ميل أن بحث مسألة الحرية ليس بجديد، إلا أن تلك المسألة قد اخذت ابعادا جديدة بعد أن قامت الثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية، ثم الثورة الصناعية، ثم ظهور الحركات الاشتراكية، ومالها من تأثير، والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى عمت عصره.

وبرأى ميل أن تعديل الدستور ونقل السلطة إلى ايدى الشعب لا يشكل ضمانات كافية لحريات الافراد.

ومن هنا انطلق ميل لبحث الوسائل التى تستطيع أن تحد من سلطة الحكومة والمجتمع كى لا تمس حريات الفرد.

ومصدر السعادة الحقيقى - من وجهة نظر ميل - هى الفوارق القائمة بين افراد المجتمع، والشىء الذى يحول دون تحقيق السعادة الحقيقية هو ازالة المجتمع لهذه الفوارق.



وبناء على ذلك يقترح ميل عدة تعديلات فى النظام الانتخابى وصلاحيات البرلمان ومجلس الوزراء ووظائف وعمل ممثلى الشعب والوزراء، فيقترح التمثيل النسبى، مع الاخذ فى الاعتبار الكفاءات واعطائها وزنا كبيرا. اما الوظيفة المكلف بها البرلمان فهى مراقبة الحكومة والاشراف على الاعمال التى تقوم بها، لا الحكم المباشر. والبرلمان - كما يرى ميل - يكون بمثابة لجنة تتلقى ظلامات الشعب ومجمعا للاراء. ويقترح انشاء لجنة التشريع تكون وظيفتها عمل القوانين، وتكون مؤلفة من خبراء، ويعود اقرار تلك القوانين التى تضعها هذه اللجنة للبرلمان.

الثـــورة الدائمـــة

كانت نظرية الثورة الدائمة موضع اهتمام وبحث ليون تروتسكى (١٨٧٩-١٩٤٠م) على مدى ستة وعشرين عاما. فقد وضع خطوطها العامة سنة ١٩٠٥ واخذ يطورها ويتوسع فيها حتى عام ١٩٣١ حيث اختبر تطبيقاتها على احداث ثورة اكتوبر فى روسيا وتطوراتها، واحداث الثورات التى قامت فى الصين واسبانيا والمستعمرات وكذلك الحركات الثورية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوربا، سيما فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة.

وفى مؤلفه "الثورة الدائمة" يرى تروتسكى أن الحل الناجع للمشكلة الثورية فى البلاد المتخلفة هو الحل الاشتراكى.

وبنظر تروتسكى أن نظرية "الثورة الدائمة" هى وحدها الصالحة للتطبيق بالنسبة لثورات المستعمرات واشباهها. وان الطبقة العاملة تكون اكبر عددا وقدرة من الرأسماليين المحليين ومن الطبقة المتوسطة، وبالتالى فهى التى لها القدرة على تحقيق مهمة الثورة، أى تحرير الارض



والفلاحين من سيطرة الاقطاع والرأسمالية والاستعمار. ومن هنا يتجه تروتسكى إلى وجوب استمرار الثورة فى البلاد المتخلفة حتى تتمكن من فرض الحل الاشتراكى.

اذ يعتبر تروتسكى أن الثورة والبناء الاشتراكى لا يمكن أن يتحققا كاملين إلا بتحقيق الثورة العالمية.

وتناول تروتسكى وجهة النظر الماركسية فى المثل الاخلاقية، فى مقال عنوانه "أخلاقهم واخلاقنا"، حيث نشر بمجلة "الأممية الجديدة" بأمريكا عام ١٩٣٨، وفى مقال ثان نشر عام ١٩٣٩، واعتبر اتماما للمقال الاول، وكان عنوانه "الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية".

والذى يهمنا من هذه الشروحات مناقشة "الغاية والوسيلة" والتوافق الديالكتيكى بالنسبة لهما، حيث يقول تروتسكى أن الوسيلة من الممكن أن تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية نفسها فى حاجة إلى تبرير. وهنا نجد تروتسكى يتساءل ما إذا كان كل شىء مباحا من اجل الوصول إلى هذه الغاية؟ ثم يبادر بالجواب أن المباح هو ما يؤدى فعلا إلى تحرير الجنس البشرى. ومادامت هذه الغاية يمكن تحقيقها من خلال الثورة، فإن البروليتاريا المحررة ذات طبيعة ثورية بالضرورة. ثم يوضح تروتسكى من خلال شرحه أن المادة الديالكتيكية لا تعرف الوسيلة والغاية، فالغاية منبعها الطبيعى من الحركة التاريخية، والوسيلة تابعة عضويا للغاية، والغاية المباشرة تضحى وسيلة لغاية ابعد. ويطرح تروتسكى سؤالاً بالنسبة للارهاب الفردى ما إذا كان مباحا ام لا. ويقدم الجواب بأن السؤال لا يقوم بالنسبة للدوافع الذاتية، لكن بالنسبة للدوافع الموضوعية. ويتجه تروتسكى لمخاطبة الارهابى بأنه من اعمال الاستعاضة عن الجماهير.



القوميــة

كان لفكر ساطع الحصرى (١٨٨٠-١٩٦٨م) الاجتماعى مكانة بارزة فى تاريخ الفكر السياسى، سواء لما قام بايضاحه من قضايا قومية، ام لما اثاره وناقشه من المسائل المتعلقة بها، حيث أنه اوضح اهمية أن تكون اللغة موحدة كاساس من الاسس اللازمة لتكوين الامة، كما قدم توضيحا لاهمية الدور الذى يقوم به التاريخ فى تكوين الوعى والشعور، واعتماد التاريخ اساسا من الاسس القومية. كما نراه يناقش الفكرة التى تقول باجتياز الإنسان مرحلة التنظيم القومى إلى التكتل الأممى، وما تفرع عنها من اعتبار أن عصر القوميات قد انتهى، وتبعه قيام العصر الأممى.

ونرى أن ساطع الحصرى يجيب عن الدفوع والمسائل التى تثيرها بالنسبة لمسألة القومية من الدفع المتعلق بالمشيئة الاستقلالية، وذلك على ضوء مشكلة الألزاس والحرب الاهلية التى قامت فى الولايات المتحدة. كذلك تناول القومية والحياة الاقتصادية لجهة الفكرة القائلة بأن الرأسمالية كانت سببا لولادة الحركات القومية. ثم يعالج مسألة الدين وعدم اعتبار اختلاف الاديان أو المذاهب سببا لافتقاد الامة كيانها.

وتقوم اهمية افكار ساطع القومية فى الفكر السياسى على اساس أخذه بالمحتوى الإنسانى للقومية، منطلقا وغاية، والتأكيد الذى ابداه على اهمية الرسالة الحضارية للقومية فى الماضى والمستقبل.

المساواة والتكافؤ

ومن الضرورى أن نشير إلى شعار "المساواة والتكافؤ" الذى نادى به جوزيف بروز تيتو، وادى إلى أن يصطدم مع ستالين، والى تنبهه المبكر



للاهمية الكبيرة لحركات التحرر فى آسيا وافريقيا وامريكا الجنوبية، وفكرة الادارة الذاتية والعمل على تكييف الدولة داخل التجربة الاشتراكية، ودعوته لفكرة التعايش السلمى.

الفابيون والفيلسوف الساخر

وفى عام ١٨٨٤ تأسست فى بريطانيا جماعة من "المثقفين المهذبين". وكان من اهم مميزات هذه الجماعة افتقارها الكلى إلى التنظيم والوحدة الفكرية.

لقد كان الاتجاه الفابى من أكثر الاتجاهات الاشتراكية مرونة، وهى مرونة تحولت إلى ليونة تتنازعها المهادنات والشكوك. وبأى حال من الاحوال فإن الفكر السياسى يدين لهذه الجماعة بالابحاث التى توزع الاعضاء مواضيعها بينهم، كالشرح الذى قدمه برناردشو لنظريات الاقتصاد الاشتراكى والاقتصادى الكلاسيكى، والتحليل الذى قام به كل من سيدنى وبياتريس للتاريخ الاجتماعى والنقابى والاشتراكى فى بريطانيا، وكذلك تناول أوليفييه للجانب الاخلاقى فى النظام الرأسمالى، ونقد كلارك لاسس النظام الرأسمالى.

ومن الضرورى أن نقف عند الافكار السياسية لبرناردشو، وذلك لما تنطوى عليه من دقة فى الملاحظة وبراعة فى التعبير.

ينظر برناردشو إلى المساواة فيعتبر أن المشكلة ليست فى اتاحة الفرصة للجميع، ولا هى المساواة الرقمية فى الدخل بين الافراد على اساس الموهبة، بل هى مشكلة الحد الاعلى للاجور، وللدخل الجائز فى مجتمع يعمل على بناء الاشتراكية. ويعالج برناردشو من جملة ما يعالجه - فى مقدمة مسرحية "ميجور بربارا" - مشكلة الفقر.



ويكون السوبرمان، أو الرجل المتفوق الفذ التفكير والعمل، هو حاجة سياسية فى الاعتبار النازى الذى يرى أنه سوف ينتظم فى المستقبل عندما ينشأ من العرق الآرى ـ ذلك الجيل الذى تتوافر فيه الصفات البشرية العليا. ونظرا لوجود السوبرمان فإن الديمقراطية ـ وهى السلطة التى تقوم على رضى الشعب ـ غير صالحة، ومن الضرورى وجود دولة يندمج فيها الفرد اندماجا كليا، وتكون هى المثل الاعلى والعقل المدبر.

هذه هى اهم العناصر التى نادت بها النازية، حيث ظهرت ملامحها الاولى فى كتاب أدولف هتلر (١٨٨٩-١٩٤٥م) "كفاحى". ثم اتضحت حقيقتها نهائيا فى السياسة والحرب بين عامى ١٩٣٣-,١٩٤٥ وفى الواقع فإن النازية لا تعتبر فلسفة ولا نظرية سياسية، ولكنها حركة سياسية واجتماعية. وقد قام ألبير كامو بتعليل الاسباب التى ادت إلى هزيمة النازية كأيديولوجية، حيث قال انها تقوم على فكرة ساذجة فى الاصل على امبراطورية عالمية. وهذا هو التناقض والخلل الداخلى الذى ادى فى النهاية إلى انكسارها فكريا قبل أن تنكسر عسكريا.

معالجة التناقضات فى صفوف الشعب والثورة الثقافية

تقوم مساهمة ماوتسى تونغ فى الفكر السياسى والاشتراكى بمعظمها على النظريات التى تم استخراجها من الممارسة والتطبيق العملى الزمنى والمكانى. وقد خص ماوتسى الفكر السياسى بدراسة نظرية منها مؤلفاته "الممارسة العملية" ١٩٣٧ "فى التناقض" ١٩٣٧ و"معالجة المتناقضات فى صفوف الشعب" ١٩٥٨.



وقد قام ماوتسى بالدعوة إلى الدراسة والتعلم وإعمال الفكر. وقد نبه ماوتسى إلى ما يجره الاعتداد بالنفس فهو عدو الدراسة. ويقوم ماوتسى بتحديد كيفية البحث عن الحقيقة من الوقائع، فيحدد ما يقصده بالوقائع، وهو كل الاشياء الموجودة موضوعيا، وما يعنى من الحقيقة، وهو ما يربط بين هذه الاشياء داخليا، أى القوانين التى تتحكم فيها، اما البحث فهو الدراسة والاستقصاء.

وكذلك نرى ماوتسى يحدد اساليب التفكير واساليب العمل، حيث يرى أن الذى يحدد تفكير الإنسان هو الوجود الاجتماعى. اما "من أين تنبع الافكار السديدة؟ فمن الممارسة الاجتماعية". وهى من انواع ثلاثة: النضال من اجل الانتاج، الصراع الطبقى، والتجربة العملية. والناس يزاولون النضال بمختلف انواعه واشكاله من خلال ممارستهم الاجتماعية.

وبرأى ماوتسى أن المثالية والميتافيزيقيا هى الشىء الوحيد فى العالم الذى لا يكلف الإنسان أى جهد أو مشقة، ويرى ماوتسى أن "العمل السياسى هو شريان الحياة لجميع الاعمال الاقتصادية. وهذا بصورة خاصة اثناء تغيير نظام الاقتصاد الاجتماعى تغييرا جذريا".

ويلاحظ ماوتسى أن "العمل الفكرى والسياسى قد ضعف فى الآونة الاخيرة بين المثقفين والطلاب الشبان، فظهرت بينهم بعض الانحرافات. فالسياسة ومستقبل الوطن والمثل العليا للإنسانية قد اصبحت فى نظر بعض الناس وكأنها اشياء لا تستحق الاهتمام. وازاء هذه الحالة يجب علينا الآن تقوية العمل الفكرى والسياسى.. وعلى هذافإنه يجب على جميع الدوائر والمنظمات أن تضطلع بمسئولية العمل الفكرى والسياسى".

وعن الديمقراطية يقول ماوتسى أنه "ينبغى أن يسمح لأى شخص كان أن يعبـر عن آرائه مـادام هذا الشـخص ليس من العناصـر المعـادية، ولا يقصد الطعن والتشنيع، ولا يهم إذا عبر عن رأى خاطئ، وواجب القادة فى جميع المستويات أن يستمعوا إلى الآخرين، ويجب أن يُراعى مبدآن فى ذلك:

١ ـ قل كل ما تعرفه، وقله بدون تحفظ.

٢ ـ لا ذنب للقائل فليكن قوله تحذيرا "للسامع".

وبرأى ماوتسى بأن المقصود من الديمقراطية داخل الحزب، سواء فى الجيش أو الهيئات المدنية هو تقوية النظام ورفع القدرة الكفاحية لا اضعافها. ويحذر ماوتسى من الانزلاق فى طريق الديمقراطية المتطرفة، أو فى طريق الحرية المطلقة التصرف التى تخل بالنظام القائم.

ويوضح مـاوتسى أن التناقـضـات المختلفـة من حيث النوع لا يمكن الوصول إلى حلها إلا بطرق مختلفة نوعيا.

وهناك ثلاث نقط مميزة لفلسفة ماوتسى: اما الاولى فهى تتركز على فكرة مدارها أن التناقض صفة عالمية الطابع لجميع الظواهر والاشياء، والثـانيـة فـهى لا ترى التناقض قـائمـا بين الاشـيـاء والظواهـر والافكار فحسب، بل هو مـوجود بداخلها كـذلك. واما الثـالثـة فتـرى فى جمـيع الاضداد والمتناقضات ضرورة لابد منها"

وينظر ماوتسى أن استخدام الاساليب الديمقراطية ـ اساليب المناقشة والنقد والتثقيف والاقناع ـ هو السبيل الوحيد للوصول إلى حل جميع المسائل ذات الصفة الفكرية، وجميع المسائل التى تجد اختلافا عليها داخل صفوف

الشعب. اما بالنسبة للحرب - وهى فى نظر ماوتسى امتداد للسياسة - فنراه يعلن أنه من دعاة القضاء على الحرب، وانه لا يريد الحرب، إلا أنه من غير الممكن أن يتم القضاء على الحرب بدون فوضى الحرب.

الدولة فى النظرية والتطبيق

واذا ما جئنا إلى هارولد لاسكى (١٨٩٣-١٩٥٠م) نجد أن جل اهتمامه انصب على دراسة قضايا الدولة والسيادة والديمقراطية والاشتراكية الديمقراطية. وقد اضاف لاسكى عدة اضافات مهمة إلى الفكر السياسى، منها تفسيره للديمقراطية الرأسمالية، حيث اعتبر أن التنازلات التى تبديها الرأسمالية عن بعض الحقوق للشعب مردها توسيعها وازدهارها، وانها تبادر - حين تتعرض للازمة - إلى سحب هذه الحقوق، وتناقض الديمقراطية كما هو شأن الفاشية والنازية. كما لفتت الانظار الاستنتاجات التى قدمها لاسكى بالنسبة للنظام الرئاسى الذى يقوم بحكم الولايات المتحدة.

والدولة - بنظر لاسكى - مجتمع متكامل تعلو سلطته الإرغامية على كل الجماعات الاخرى. واعتمد لاسكى التفسير الماركسى لاهداف الدولة، واعتبر أن الدولة تأخذ الاهداف الاقتصادية التى تسعى اليها وتستخدم سلطتها للحفاظ عليها.

ويعتبر لاسكى من اوائل المفكرين الأوروبيين الذين تنبهوا إلى الادارة المحلية واللامركزية والديمقراطية الصناعية، وادارة العمال للمصانع، وكلها حلول ديمقراطية.

الديمقراطية والاشتراكية

وقد جاء جواهر لال نهرو (١٨٨٩-١٩٦٤م) بنظريات وافكار فى الديمقراطية والثورة والقومية والأممية وفى الحرب والسلم، فالديمقراطية



عنده بكونها حكم الجماهير وسيادة الشعب تتجاوز معناها، متمثلة ـ من جملة ما تتمثل فيه ـ فى حرية الانتخاب والرأى وغير ذلك من الحريات الديمقراطية، وهى مبدأ وسلوك والتزام اخلاقى.

ومع ايمانه بالحقيقة الاجتماعية، كان نهرو يرفض الاندماج الكلى فى الكيان الاجتماعى، إذ يرى أن السعادة هى سعادة الافراد، والبؤس هو بؤس الافراد.

ونرى أن نهرو يتجاوز اساس المفهوم الفردى للديمقراطية، حيث يعتبره قد فقد صلاحيته فى القرن العشرين، ولم يعد صالحا بعد الثورة الصناعية. وبناء على ذلك يرى نهرو ضرورة وضع قيود على الملكية الخاصة، وتحقيق الملكية العامة لوسائل الانتاج الأساسية حتى يقوم الحكم الديمقراطى العامل لصالح المجموع.

وبنظر نهرو أن بناء المجتمع والقضاء على المتناقضات فيه يكون عن طريق الديمقراطية البرلمانية المتفقة مع طبيعة الشعب، وهى السبيل لتحقيق التطور المطلوب نحو الديمقراطية والاشتراكية.

الحافز المادى للانتاج

وضع ليبرمان نظرية جديدة فى الانتاج الاشتراكى، وهى نظرية توفير اللامركزية حتى يمكن اتاحة التصرف المستقل والمريح لقياس الانتاج، وذلك عن طريق توسيع اختصاصات مديرى المؤسسات واجهزة الانتاح، واعتبار معدل الربح معيارا اساسيا للكفاية الانتاجية على اساس علاقة معدل الربح لرأس المال الانتاجى للمؤسسة الاقتصادية.

وبنظر ليبرمان أن التخطيط المركزى فى ظل الاشتراكية لا يعنى صدور الاوامر من السلطات العليا بشأن كل كبيرة وصغيرة فى الانتاج،



بل على اساس تحديد الاجمالى الكلى للانتاج على اساس تقدير القيمة المالية، وبعد تحليل عدة عوامل مختلفة مثل معدل زيادة السكان والقوة الشرائية، والمقدار الذى يخصصه الفرد من دخله لشراء كل سلعة منتجة، ومصادر المواد الاولية التى تتوافر للصناعة.

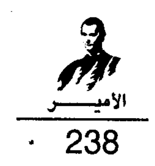
معذبوا الأرض

"اذا تركتم جعجعات سوريل الفاشل وجدتم أنفإنون هو اول من يعيد مولده التاريخ إلى النور بعد إنجلز. ولا يذهبن بكم الظن إلى أن دما مسرفا فى الغليان، أو إلى أن إشقاء هو الذى يحب العنف حبا خاصا. أن قانون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك. ولكن هذا لا يكفى لأن يصور مرحلة مرحلة، ذلك أن الديالكتيك الذى يخفيه عنكم النفاق الليبرالى هو الذى انتجنا كما انتجه".

ما سبق فقرات من الكلمة التى قدم بها جان بول سارتر كتاب "معذبو الارض" لفرانزفإنون (توفى عام ١٩٦١) المارتينيكى الذى قام بالمشاركة فى الثورة الجزائرية فعليا.

وقد توجهفإنون فى كتابه إلى العالم الثالث عارضا صورة إنسان البلدان المتخلفة اقتصاديا، حيث أنه حاول تفسير ضرورة وإمكانية الثورة وحتميتها فى عالم لا يوجد امامه ما يخسره غير قيوده.

والمسألة الاولى التى قامفإنون بطرحها هى الكيفية التى من الممكن أن تقوم بها الثورة فى عالم لا وجود فيه للطبقة العاملة الصناعية. وبرأيفإنون أن الفلاحين هم الطبقة القائدة للثورة فى المستعمرات والبلدان الافريقية. ولا يؤمنفإنون بقاعدة ديمومة الثورة وتحول قطاعات من الفلاحين إلى عمال فى مرحلة البناء الاقتصادى والتصنيع اللاحقة



بمرحلة الاستقلال الوطنى الذى تنتهى به ـ عادة ـ الثورة على الاستعمار.

ويشيرفإنون موقف الاحزاب البرجوازية فى البلاد المتخلفة من الثورة، حيث أنه يرى أن سعيها الوحيد هو لاستلام الحكم، وانها لا دورًا تضامنيا ايجابيا لها لمصلحة الثورة.

فلسفة الثورة وميثاق العمل القومى

صاغ جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠) فى كتابه "فلسفة الثورة" اهداف الثورة السياسية والاجتماعية. وقام فى (ميثاق العمل القومى) بتحديد النهج الاقتصادى ونظام الحكم.

وقد اوضح عبد الناصر فى "فلسفة الثورة" أن قصص كفاح الشعوب لا توجد فيها فجوات يملؤها الهباء، وكذلك لا مفاجآت لها تقفز إلى الوجود دون مقدمات.

وقد اكد عبد الناصر على اقتران الثورة الاجتماعية بالثورة السياسية، حيث اعتبر أن لكل شعب من شعوب الارض ثورتين: ثورة سياسية يسترد فيها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه من جيش متعد اقام فى ارضه دون رضاه، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته. ثم يستقر الأمر على ما يحقق العدالة لابناء الوطن الواحد.

وقد رأى أن شعب مصر قد امتحن بتجربة هائلة، وهى أن تعيش الثورتان معا فى آن واحد. وقد وضع عبد الناصر فى الميثاق (١٩٦٢) الخطوط الأساسية والضرورية التى يقوم عليها العمل القومى وهى:

ـ اعتبار المواطن الحر هو الاساس المهم للمجتمع.

ـ اعتبار القيم الروحية التى انبثقت من الاديان تكفى لأن ترشد الإنسان، وان تضىء حياته بالايمان، وان الرسالات جميعها هى من



الناحية الإنسانية ثورات هادفة لتحقيق الكرامة...

- العمل على استبعاد العنف.

- استبعاد خضوع طبقة لطبقة أخرى من طبقات المجتمع.

- العمل على ازالة الاستغلال وتوزيع الثروات توزيعا عادلا، بالاضافة إلى ضمان تكافؤ الفرص لجميع افراد الشعب، والقضاء على المشاغل والقلق بالنسبة إلى المستقبل المادى.

- شرعية الملكية الخاصة والوراثة، على إلا يترتب عليهما أى استغلال أو سيطرة شخصية.

- العمل على تشجيع وتنمية الملكية الزراعية والرأسمالية الوطنية الخاصة، ولكن ضمن حدود معينة، وعلى إلا يؤدى التشجيع والتنمية إلى الاستغلال.

- اعتبار العمل حقا وواجبا وشرفا للمواطن.

وقد قدم الميثاق تعريفا موجزا لكل من الديمقراطية والاشتراكية، حيث ذكر أن الاولى تعنى الحرية السياسية، والثانية هى الحرية الاجتماعية. وذهب إلى أنه لا يمكن الفصل بين الاثنتين، وذلك باعتبارهما جناحى الحرية الحقيقية، وانه بدونهما، أو بدون أى منهما، لا تتمكن الحرية من أن تحلق إلى افاق الغد القريب.

وقد حدد عبد الناصر فى الميثاق الضمانات التى من شأنها تحقيق الديمقراطية بالنسبة للمواطن. واعتبر أن المخرج الوحيد الذى يؤدى إلى التقدم الاقتصادى والاجتماعى هو الحل الاشتراكى، وهو الطريق إلى الديمقراطية بكل اشكالها السياسية والاجتماعية. اما تحقيق الاشتراكية



فيكون عن طريق خلق قطاع عام وقادر، يؤدى إلى التقدم فى المجالات جميعها، ويتحمل المسئولية الرئيسية فى خطة التنمية، بالاضافة إلى وجود قطاع خاص يشارك فى التنمية فى اطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال، على أن يراقب الشعب القطاعين ويسيطر عليهما معا.

ولكى تتحقق الاشتراكية يرى عبد الناصر أنه لابد من المرور بمرحلة التحول، حيث اعتبر أن الدولة هى اداة الثورة.

"وقد اكد الميثاق أن الحاجة ماسة إلى خلق جهاز جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكى العربى يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها، ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات".

الإنسان ذو البعد الواحد

واما هربرت ماركوز فهو ينظر إلى المجتمع المعاصر المتقدم صناعيا الذى هيمنت فيه الطاقة الهائلة للتكنولوجيا والصناعة على الفرد هيمنة تعدت السيطرة اللاعقلانية التى مارسها المجتمع القديم باشكالها المختلفة على الافراد، ومن هنا نرى أن ماركوز يدعو إلى حتمية التغيير السياسى فى المجتمع التكنولوجى الصناعى المتقدم.

وعند هذه النقطة يحدث الانفصال بين ماركوز والنظرية الماركسية، حيث أنه يعلن أن الطبقة العاملة لم تعد قادرة، ولا هى عامل التغيير الاجتماعى، والديالكتيكية بنظره - مع التسليم بصحتها - قد فقدت قدرتها الايجابية والعملية. ويلاحظ أن ماركوز لم يوضح أو يبين ما هى القوى الاجتماعية القادرة على أن تقود حركة التغيير السياسى، معلنا أن السبيل إلى التغيير غير ممهد فى الوقت الراهن.



ومن الضرورى أن نلاحظ أن المجتمع التكنولوجى المتقدم الذى يعنيه ماركوز ليس المجتمع الرأسمالى وحده، بل والمجتمع الاشتراكى ايضا.

ويقترن ذكر ماركوز بذكر حركات التمرد الطلابية فى اوربا، حيث اعتبر ماركوز بمثابة الاب الروحى لها، ولا جدال أن مرد ذلك إلى ما ينطوى عليه تفكيره من تبرم واحتجاج واستياء.

ثورة فى الثورة

ولعل افضل المؤلفات لعرض الافكار السياسية لفيدل كاسترو وأرنستو جيفارا وريجى دوبريه هو مؤلف الاخير الذى يحمل عنوان "ثورة فى الثورة".

(أ) وقد كتب كاسترو تحت عنوان "كوبا الاشتراكية" سنة ١٩٦٥: "اننا نؤمن بعقيدة ثورية جدلية، لا بعقيدة تحمل صفات الجمود.. وعلى هذه العقيدة أن تكون دليلنا فى العمل الثورى، لا أن تثقل علينا كعقيدة جامدة. أن محاولة سجن الماركسية داخل نوع من الديانة هو بحد ذاته عمل مضاد للماركسية".

ونرى أن هذه الفكرة تلخص ـ إلى حد ما ـ تفكير كاسترو السياسى، حيث أنه لا ينكر ماركسيته، انما يعتبر أن اختلاف الاوضاع من شأنه أن يفسح المجال لوجود عدة تفسيرات مختلفة نوعا ما، وانه يمكن أن يسمى اصحاب التفسير الصحيح بالثوريين.

(ب) اما بالنسبة لجيفارا (١٩٣١-١٩٦٧) فقد بحث قضايا الحزب والثورة، الحرب والطبقة، الكفاح المسلح والشرعية، علاقة الماركسية بالمجتمع الاشتراكى، حيث يعتبر أن الثورة المسلحة هى التى تصنع الحزب، ويذهب جيفارا إلى أن حزب الثورة هو حزب الفلاحين، وان الطبقة العاملة فى المدن ما هى إلا رديف لهؤلاء.



وبنظر جيفارا أن القرى هى نقطة انطلاق الثورة، وهى - دون غيرها ذالقادرة فى بلدان العالم الثالث.

ويركز جيفارا - بالنسبة للشرعية والكفاح المسلح - على اعتبار أن الانتفاضة المسلحة لا الاحزاب هى التى بإمكانها أن تحسم الامور. اما بالنسبة لموقفه من الاشتراكية والماركسية فهو يطابق رأى كاسترو الذى ألمحنا إليه سابقا.

(ج) واذا ما جئنا لريجى دوبريه، فسوف نجد أنه اعتبر أن النضال الثورى لا يمكن أن يكون آليا لصيغ ثابتة مجردة هى حصيلة نضال ثورى اخر. وفى كتابه "ثورة فى الثورة" ينادى بالفصل بين النظرية والتطبيق دون أن يرفض عمل السياسة لحساب العمل العسكرى، أو اقترانهما فى تنظيم "الجيش الشعبى" الذى يشكل نواته المغاوير. وهو - كجيفارا وكاسترو - يعتبر الحزب وليد الثورة. وبنظر دوبريهفإنه لابد الاخذ بعين الاعتبار مضمون كل وضع على وجه التحديد. ويعتبر - كجيفارا - أن القرى هى مصدر انطلاق الثورة.

الإنسان العلمى وأتوبيا المستقبل

أتوبيا المستقبل هى الحكومة العالمية التى دعا اليها برتراند راسل، انطلاقا من السؤال: "هل يستطيع الإنسان العلمى أن يعيش؟". وبنظر راسل أن الإنسان العلمى - ويعنى به الإنسان المعاصر - لن يعيش طويلا إذا ظلت الاوضاع الدولية الحالية على حالها، ومادامت القوات المسلحة تحت تصرف دول مفرقة، أو مجموعات من الدول لها السلطان المطلق الذى لا راد له على الدنيا، ومادام أنه من المؤكد أن تنشب الحروب بين



هذه الدول أو التكتلات عاجلا أو آجلا، ومادام التكتيك العلمى موجود، فإن الحرب ستكون نتيجتها دمار للبشرية جميعها.

ومن هنا يدعو راسل إلى أن تكون اسلحة الدمار الهائل وكل اسلحة الفناء الجماعى تحت سيطرة سلطة واحدة. ويعلن راسل أنه من الممكن انشاء ما يسميه "حكومة عالمية" يكون لها سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية، بالاضافة إلى جيش لا يقهر.. ويعتبر دستور الهيئة التشريعية الفيدرالية بحيث تكون الدول مستقلة ذاتيا فى كل شىء إلا فى شئون الحرب والسلام. وتتناول سلطة البرلمان العالمى الاتفاقيات التى عقدت بين الدول بحيث يكون العمل بها معلقا على اقرارها منه. وتكون السلطة التنفذية مسئولة امام السلطة التشريعية وتشرف على القوات المسلحة. وهناك قانون عالمى تقوم محكمة دولية عليا بتطبيقه. كما أن هناك قانونا جنائيا دوليا.

وينهى راسل مشروعه بالدعوة إلى العمل المطرد للوصول إلى المساواة الاقتصادية كجزء من العمل على بسط السلام الدائم.

الغلاسنوست والبيريسترويكا

والتفكير الجديد للاتحاد السوفيتى والعالم اجمع

ماهية البيريسترويكا:

"بيريسترويكا" لفظ روسى يعنى (اعادة البناء) استخدمها جورباتشوف (١٩٣١) فى كتابه الذى صدر عام ١٩٨٧ الذى كان عنوانه "بيريسترويكا" لمفهوم لا يقف عند هذا المعنى، بل يضيف معنى آخر هو (عملية تجديد متعددة الجوانب متعددة الاهداف).

وانطلاقا من اعتبار الشعب ـ بل الإنسان تحديدا على قول جورباتشوف ـ هو الوجه الرئيسى للتاريخ، وعلى ذلك فإن مهمة



البيريسترويكا الاولى وشرطها الضرورى ومكمن نجاحها تقوم على ايقاظ الإنسان ودفعه ليكون ناشطا وذا مصلحة حقيقية والوصول إلى أن يشعر كل فرد أنه مالك البلاد، وان مكان عمله ومصنعه ومعمله هى جميعا مؤسسات يملكها. هذا هو الأمر الرئيسى.

غاية البيريسترويكا:

وكما كتب جورباتشوف فإن هدف البيريسترويكا النهائى واضح من البداية. وهذا الهدف هو فى الداخل تجديد معمق لجميع اوجه حياة البلاد واعطاء الاشتراكية احدث اشكال التنظيم الاجتماعى والكشف الكامل عن الطابع الإنسانى لنظامنا (الاتحاد السوفيتى) فى كل ابعاده ودلالاته الحاسمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والخلقية.

وفى الخارج وفى مجال العلاقات الدولية ومستقبل العالم، بما أن العالم لا يعيش فى جو الخطر النووى فقط، بل أنه يعانى من فشله فى العثور على حلول لمسائل اجتماعية وضغوطات جديدة ولدتها الثورة العلمية التقنية واحتدام معضلات ذات الطابع العالمى الشامل، حيث أن البشرية قد وجدت نفسها فى مواجهة مهمات وصعوبات لم يسبق لها أن واجهتها، هذه المهمات التى إن لم تبذل الجهود المشتركة لحلها،فإنها - أى البشرية - ستكون على موعد مع مستقبل غامض مبهم.

وعلى هذا يعقب جورباتشوف:

"أجل.. إن العالم اليوم ليس كعالم الامس، والمشكلات الجديدة لا يجوز أن تحل على اساس من نموذج تفكير سياسى موروث من القرون السابقة. إن السياسة يجب أن تبنى على وقائع، والواقع الاهم



فى عالم اليوم يكمن فى تركيز ترسانة اسلحة هائلة بما فيها الاسلحة النووية فى ايدى الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى تحديدا، وهذا يلقى على بلدينا مسئولية مميزة ازاء العالم باجمعه، فنحن عندما يحركنا هذا الوعى انما نسعى مخلصين إلى تنقية اجواء العلاقات السوفيتية - الامريكية ونرغب فى الوصول إلى حد ادنى من التفاهم المتبادل الضرورى لحل المسائل التى يتوقف عليها مصير العالم".

الغلاسنوست:

وقد استدعى طرح البيريسترويكا اعتماد المجاهرة والمصارحة والعلنية، وهو ما يعبر عنه بالروسية بكلمة "غلاسنوست" التى نوه عنها جورباتشوف، حيث يرى أن الغلاسنوست لا تنفصل - اليوم - عن المناخ الروح والاخلاقى الطبيعى فى المجتمع، وهى تعطى الإنسان الفرصة فى أن يفهم - بعمق - ما كنا عليه فى الماضى وما نحن عليه اليوم وإلام نطمح أن نكون عليه، وماذا يوجد بين ايدينا من خطط. ولهذا فهى تقدم المساعدة على المشاركة الواعية فى البيريسترويكا.

وبفضل تطوير الغلاسنوست - تحديدا - تزداد سرعة اشاعة الديمقراطية فى المناخ الاجتماعى والتقدم عن طريق التحولات الاقتصادية والاجتماعية.

البيريسترويكا واللينينية والستالينية:

وقد اورد جورباتشوف فى التقرير الذى القاه فى ٢٢ ابريل ١٩٨٣ فى الجلسة الافتتاحية للاحتفالات بذكرى مولد لينين الموضوعات التى



اثارها لينين حول ضرورة الاخذ بعين الاعتبار المتطلبات التى تنجم عن القوانين الاقتصادية الموضوعية، وكذلك الموضوعات التى تتعلق بالتخطيط المبنى على نظام الادارة المستقلة، والاستخدام الامثل للعلاقات السلعية النقدية والحوافز المادية والاخلاقية.. وقد تحددت فترة الانعطاف نحو البيريسترويكا وتاسيس مفهومها، وذلك فى اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى انعقدت فى ابريل ١٩٨٥.

وفى كتابه "البيريسترويكا" يلاحظ جورباتشوف أن غنى الافكار اللينينية حول الادارة والادارة الذاتية ونظام الادارة الاقتصادية المستقلة حول ترابط المصالح الاجتماعية والشخصية فى ظل ظروف كهذه لم تحظ بالاستثمار المطلوب ولم تكن موضوع تطوير، وأنه لم يتم الاسترشاد الكامل بافكار لينين فى الفترة التى تلت وفاته.

وقد خرج جورباتشوف من ذلك إلى التعليق قائلا:

"وهكذا بدأ ضيق القواعد الديمقراطية التى يقوم عليها نظام الادارة المتكون ينعكس سلبا وبقوة فى الظروف الجديدة، إذ لم يكن فيه سوى مكان صغير للفكرة اللينينية القائلة بادارة الكادحون ذاتيا وبدا كما لو أن الملكية الاجتماعية اخذت تبتعد بالتدرج عن مالكها الحقيقى، ألا وهو الكادحون. وغالبا ما كانت تتوزعها وتفتتها الدواوينية وضيف الافق المكتبى حتى اصبحت سائبة مجانية مفتقرة إلى مالك فعلى، وبدأ يبرز أكثر فاكثر تغرب الإنسان عن الممتلكات الشعبية العامة وانعدام الترابط بين المصلحة الاجتماعية ومصلحة الكادح الشخصية. وفى هذا تكمن العلة الأساسية لما حدث.. أصبح نظام الادارة الاقتصادية المتكون فى الماضى عملا كابحا لتطور الاشتراكية وتقدمها إلى الامام.



البيريسترويكا والديمقراطية والشرعية:

وبرأى جورباتشوف أن الديمقراطية جزء لا يتجزأ من الشيوعية، فمن موانع البيريسترويكا العريضة والمبدئية، وانطلاقا من جوهرها اشاعة الديمقراطية نتجه إلى تأمين الشرعية المتماسكة وتحسين الهيئات التشريعية، ولا يمكن أن توجد الشرعية بدون الديمقراطية التى - بدورها - لا تستطيع أن تستمر وتتطور دون أن ترتكز إلى الشرعية، إذ انها مدعوة لحماية المجتمع من سوء استخدام السلطة، وكذلك هى مدعوة إلى ضمان حقوق المواطنين وحرياتهم، بالاضافة إلى حقوق منظماتهم وتجمعاتهم العمالية المنتجة وحرياتها.

البيريسترويكا والقانون:

وقد ذهب جورباتشوف إلى أنه من الواجب اجراء تحولات جذرية فى مجال التشريع وفى تحديث التشريع الاشتراكى عموما. كما ينبغى احداث التغيرات العميقة فى أولوية ادارة الاقتصاد والتنمية الاجتماعى. ويكون القيام بهذا العمل مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاصلاح الذى يتم فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، مع الاخذ بعين الاعتبار رغبات الكادحين ونتائج دراسة الرأى العام.

وتفرض البيريسترويكا متطلبات اكبر فيما يتعلق بمضمون المراسيم التشريعية ايضا. ويجب أن يضمن القانون - بحزم - الاجراءات التى من شأنها أن تكفل حماية مصالح المجتمع، وفى الوقت نفسه افساح المجال الكافى امام مبادرة المواطنين والتجمعات العمالية المنتجة والمنظمات. وفى اطار القانون فإن النشاط والمبادرة يجب أن يلقيا الدعم والتشجيع بكافة الوسائل الممكنة.



ويذهب جورباتشوف إلى أن البيريسترويكا تطرح مهمات جديدة حتى امام الممارسة السياسية والفكر الاجتماعى، فالقضاء على تحجر العلم الاجتماعى وفتح مدى واسع امامه والقضاء نهائيا على عوائق ذلك الاحتكار المفروض على النظرية.

وقد كان من الضرورى أن يذكر جورباتشوف توافر كل الاسس للاعلان - خلال يناير ١٩٨٧ - واثناء اجتماعات اللجنة المركزية عن كون النهج الراهن من حيث جوهره العميق وجسارته البلشفية وتوجهاته الاشتراكية الإنسانية استكمالا مباشرا للانجازات العظيمة التى بدأت تتحقق على يد الحزب اللينينى فى اكتوبر ١٩١٧، بل أنه ليس استكمالا فحسب، وانما هو تطوير لافكار الثورة الأساسية وتعميق لها.

شمولية البيريسترويكا والغلاسنوست:

وبالنظر إلى البيريسترويكا والغلاسنوست نجد انهما يمتدان إلى جميع المجالات ويشملانها بفعل ما تنطويان عليه من تجديد ديمقراطى، ويلاحظ جورباتشوف أنه فى ظروف البيريسترويكا واشاعة الديمقراطية انما يتغير أيضاً طابع النقد ومقياسه، وتدخل عملية اشاعة الديمقراطية تعديلات جوهرية فى العلاقات المتبادلة بين الناقدين والمنتقدين. ويجب أن تتحول هذه العلاقات إلى علاقة شراكة، وان تبنى على قاعدة المصلحة المشتركة. وهنا نجد أن الحوار سيكون أكثر جدوى.

وهناك مشكلة واحدة لا جدال فيها، وهى أن النقد يجب أن يقوم دائما على الحقيقة، وهذا يكون اعتماده على ضمير الكاتب والمحرر، وعلى شعورهما بالمسئولية حيال الشعب.



البيريسترويكا والمثقفون:

وقد دعا جورباتشوف فى لقاء سنة ١٩٨٦ مع العاملين فى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى إلى العمل مع الطبقة المثقفة باسلوب جديد، لأنه ـ كما ذكر فى كتابه بيريسترويكا ـ قد حان الوقت للكف عن توجيه المثقفين واصدار الاوامر اليهم، وذلك لأن هؤلاء ـ كما وصفهم ـ يعتبرون الجزء العضوى من المجتمع ذى الشعور الوطنى الراسخ حيال وطنه الاشتراكى. هم انجازنا العظيم، ولعله الانجاز الفريد فى نوعه، انهم يؤلفون الرأسمال الروحى الذى لا يقدر بثمن.

البيريسترويكا والاصلاح الاقتصادى:

وقد تجلت البيريسترويكا فى المجال الاقتصادى عمليا فى الاصلاح الاقتصادى الذى قام جورباتشوف بالدعوة إليه وذلك فى دورة اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٨٧ وقد اشار إلى ذلك فى كتابه البيريسترويكا، حيث اوضح أن المفهوم الاقتصادى الذى وضعه وحمله فى دورة يوليو، انما يحمل طابعا شموليا تركيبيا لا يترك ايا من جوانب الموضوع دون تغيير عميق وجذرى، حيث يتضمن تحويل المؤسسات إلى النظام الاقتصادى الذى يتمتع بالاستقلال التام (الحساب الاقتصادى) واعادة البناء الجذورية للقيادة المركزية للاقتصاد، والتغيير الجذرى للتخطيط واصلاح نظام تشكل الاسعار أولوية التمويل والاقراض واعادة بناء العلاقات الاقتصادية الخارجية، وتشكيل بنى تنظيمية جديدة للادارة وتطوير الاسس الديمقراطية للادارة بكافة السبل المتاحة والتطبيق الواسع لمبادئ الادارة الذاتية.

وقد لاحظ جورباتشوف توسيع الغلاسنوست فى جميع مراحل التخطيط، وتطبيق المناقشة العريضة للقضايا الحكومية العامة



والاقليمية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية العلمية والبيئية. كما سيستخدم مبدأ التغاير والتفارق بهدف ايجاد الحلول المثلى فى نظام التخطيط والبرمجة.

ويخلص جورباتشوف إلى القول "وباختصار سوف يجرى توحيد مزايا التخطيط بدرجة متنامية مع العوامل التى تحفظ السوق الاشتراكية. ولكن ذلك سيتم فى نطاق الاهداف والمبادئ الاشتراكية لادارة الاقتصاد".

جورباتشوف وآفات الإنسانية:

وما يلفت نظرنا عند تناول جورباتشوف مسألة القوميات التى تجاهر بالنضال ضد الصهيونية "من تقاليد حزبنا النضال المبدئى ضد جميع تجليات التعصب القومى والشوفينية والانعزالية الصهيونية ومعاداة السامية مهما تعددت اشكالها".

التفكير الجديد للعالم أجمع:

وخلال المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى طرحت نظرية "العالم المتناقض"، وفى الوقت نفسه العالم المترابط ذى العلاقات المتبادلة المتفاعلة معا، ووضعت نظرية اقامة نظام شامل للامن الدولى توجه فيها الحزب إلى العالم باسره والى الحكومات والاحزاب والمنظمات والحركات الاجتماعية. ومن الاشارة إلى هذه النظرية ذهب جورباتشوف إلى القول فى كتابه "بيريسترويكا":

"أجل، اننا نبقى مختلفين فيما يتعلق بالخيار الجماعى والمعتقدات الدينية والقناعات الايديولوجية واسلوب الحياة، وبالطبع سيظل هذا الاختلاف



قائما. ولكن ما الضير فى ذلك؟ هل سننتحر بسبب هذا الاختلاف؟! أليس من الاصح أن نتجاوز ما يفرقنا فى سبيل المصالح، مؤكدين على التفكير السياسى الجديد عن طريق البيانات الملزمة والاعمال والتصرفات الملموسة.

"لقد سئمت الشعوب التوتر والمجابهة، انها تتوق إلى عالم آمن، عالم يصون كل واحد فيه افكاره الفلسفية والسياسية والأيديولوجية ونمط حياته".

وفى موضع آخر من كتاب "بيريسترويكا" يقول جورباتشوف: "ان مبدأ الانطلاق الاساسى للتفكير السياسى الجديد بسيط، أن الحروب النووية لا يمكن أن تكون وسيلة لتحقيق اهداف سياسية واقتصادية وأيديولوجية، أو أى اهداف اخرى. وتكتسب هذه الخلاصة فى الحقيقة طابعا ثوريا كونها تعنى قطعا نهائيا مع التصورات التقليدية حول الحرب والسلم، فالوظيفة السياسية للحرب كانت دائما تبريرها ومغزاها أو جورها العقلانى. اما الحرب النووية فهى عقيمة وغير عقيمة فى النزاع النووى العالمى. لن يكون هناك رابحون وخاسرون، لأن الحضارة العالمية سوف تفنى فيه حتما. أن النزاع النووى ليس حربا بالمعنى التقليدى، بل هو انتحار. ثم أن تطور التقنية الحربية قد ارتدى طابعا تصبح معه حتى الحرب غير النووية بنتائجها المميتة مساوية للحرب النووية. ولهذا يصح أن نعزو التقديرات التى خلصنا اليها بشأن الحرب النووية إلى هذا النوع من الصدام المسلح بين الدول الكبرى".

"ومن هنا يبدو الوضع مختلفا تماما، فنمط التفكير ونمط العمل القائمان على استخدام القوة فى السياسة العالمية قد تكونا عبر قرون، بل آلاف السنين. وقد استويا على ما يبدو مسلمتين ثابتتين. اما اليوم

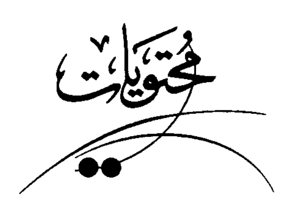


فهما يفتقران إلى أى معنى عقلانى. أن معادلة "كلاوزفيتس" الكلاسيكية فى حينها والتى تقول أن الحرب استمرار للسياسة ولكن باساليب أخرى قد عفى عليها الزمن، ولم يعد لها من مكانة إلا فى المكتبات فقط. ولاول مرة فى التاريخ أصبح هناك حاجة حيوية لادراج المعايير والقواعد الاخلاقية المالية العامة فى اساس السياسة الدولية وأنسنة العلاقات الدولية".

والاساس المبدئى للأمن عند جورباتشوف هو عندما تصل عملية التجديد إلى التعايش الإنسانى على مستوى الشعوب والدول، ويقول فى كتابه "بيريسترويكا": "ان الاساس المبدئى للأمن فى عصرنا هو الاعتراف بحق كل شعب فى اختيار طريق تطوره الاجتماعى بكل حرية، والامتناع عن التدخل فى الشئون الداخلية للدول الاخرى، واحترام الآخرين المقرون بنظرة موضوعية نقدية ذاتية إلى كل مجتمع بعينه. ومن حق الشعب أن يختار الرأسمالية والاشتراكية، وهو سيد هذا الحق. ولا يمكن للشعوب ولا ينبغى لها أن تتبع مشيئة الولايات المتحدة ولا مشيئة الاتحاد السوفيتى، إذ يجب فصل المواقف السياسية عن التعصب الأيديولوجى".






محتويات



